الأفندي

حكايةٌ ريفيّة

الطبعة الأولى
1439 هـ
2018 م

اسم الكتاب: الأفندي.. حكاية ريفية
التأليف: محمد فيض خالد
موضوع الكتاب: ادب
عدد الصفحات: 216 صفحة
عدد الملازم: 13.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2018/13726
الترقيم الدولي: 0 - 693 - 278 - 977 - 978

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

محمد فيض خالد

الأفندي

حكايةٌ ريفيّة

دار البشير للثقافة والعلوم

إهداء

إلى روحِ حارس كهفِ الذّكريات الأمين..

مُلهِمِ الصّبا، وحادي القافلة..

صاحِبِ الذِّكرى والمكان..

إنّه.. العبقُ الأصيل، والطيفُ العبقري الباقي بقاءَ الخير في الإنسانية..

وفاءً لذكراه، واعترافًا بجميله.

إلى ريفنا الطّاهر، منبتِ الشّرف، ومرتعِ الفضيلة،

ومستوْدع الحكايا، وأثيرِ الخيال.

إلى الطبيعة البكْر النّقيّة نقاءَ النّدى.

إلى الأفندي أهدي...

محمد فيض خالد

عزبة حسني – المنيا

وتنفّس الصبحُ الجديد

كان جميعُ مَن في الدار يغطّ في نوم عميق، سكونٌ تغلّفه برودة المكان، لا شيء يتحرّك في هذا الفضاء، إلّا صوتٌ قادم من بعيد يشقّ هذا السكون، ويقطع عنه الهدوء.. أصواتُ تسبيح وتهليل وتكبير.. دعواتٌ ورغبات ترفَع اعتاد جميعُ مَن في البيت سماعَها تحديدًا في هذا الموعد من كلّ يوم.. إنه الشيخ إبراهيم.

أخرج الفتى قدمَه من تحت لحافه القطني، وأعادها ثانيةً حيث كانت، بعد أن لسعَه البرد المتزاحم على الحصير الممدّد عليه. تمنّى الفتى أنْ لو سمع نصائح أمّه بالنوم وسط إخوته على سريرهم الخشبي الكبير المتوسّط الحجرة، ولكنّه عوّد نفسه ألّا يزاحمه أحدٌ في يقظة أو منام؛ فهو متعوّد على السهر، وله مزاجٌ خاصّ، وخصوصية تمنعُه من مشاركة أحدٍ له هذا العالم.

رفع رأسَه عن وسادته يستطلعُ المكان من خلف بابِ الغرفة الموارَب، اطمئنّ لمصدر الصوت، وعرفَ صاحبَه، عاد ثانية إلى أحْلامه.. إلى غطائه الوثير يغبّ في دفْئه، وينعم بوحْدته.. وبعد لحظات قلائل، شعر بصوتٍ يهمس في أذنيه عن قرب، آثر الصمتَ بداية، لكنّه استيقظ أخيرًا تحت إلحاح صاحبه.. إنّها أمّه، وقفتْ على عتبة الغرفة. استوى الفتى جالسًا، بدأ يهرشُ

في رأسه مرّة.. وفي عينيه أخرى ليعلنَ عن استيقاظه. تحرّك مغادرًا فراشه.. يبحث عن نعلِه البلاستيكي، خرج من الغرفة صوبَ الحمّام، توضّأ ثمّ انحرف إلى غرفةٍ مجاورة، وقد جلس والدُه الشيخ الكبير يقرأ وردَه اليومي المعتاد كلّ صباح.

اقترب الفتى من والدِه مقبّلًا يده، مرّر الشيخ يدَه فوق رأس الصبي داعيًا له بالبركة والقَبول والسّلامة.. شرع في صلاته حتى أتمّها، وقبل أن يفرغَ منها، عاودت أمّه النداءَ راجية أن يلحقَ بها سريعًا.

أسرعَ الفتى في خطواته ملبّيًا نداء الوالدة، التي وقفتْ في وسط الدار، وبيدها آنيةٌ من النّحاس الأصْفر، أخذ الصبيّ منها الإناء، إنّه عملُه المعتاد في كلّ صباح.. يذهب ليحضرَ لهم الفول السّاخن. مدّ يدَه على عارضةٍ خشبيّة خلف بوّابة البيت الخارجية، فتح الباب ليدلُفَ إلى الدّرب.. أخذ نفسًا عميقًا، وكأنّه يتعطّش لهواء الصباح المُنعش، أخرج زفيرَه مغمَضَ العينين، نظر مِن حوله.. إنّه صباح بكرٌ جميل؛ الطبيعةُ فيه تستيقظُ من سُباتها العميق الذي لفّها طوال اللّيل، وكلّ شيء ما بيْن النوم واليقظة يترقّب شمسَ النهار؛ فهي وحدَها مَن يعلن عن ميلاد اليوم، والإذنِ للحركة أن تدبّ في المخلوقات.. كلّ ما في الدّرب مستقرٌّ؛ فهذا كلبٌ صغير قد لملمَ جسدَه النحيل وانزوى تحتَ عتبةِ البيت المهجور، وفي تطّلع مشبوب بالأملِ يرفع رأسَه ساعة فتح الباب.. وهذه قطّةٌ صغيرة تجري خلفَ أمّها تتحاشاها مرّة،

وتتمسّح في الجدار أخرى، وهذا ديكٌ كبير يقف فوقَ خشبةٍ طويلة ممتدّة أعلى البيت المقابل يبدو عليه التّكاسل.. في ساعة الصباح، ينفضُ ريشَه مرّة، وأخرى يمدّ رقبته صائحًا في صوتٍ متقطّع على استحياء.

التفتَ الفتى بعينيه تجاه بيت جدّته القديم، وكأنّه يلقي السلام عليها، إنّها الجدّة الطيبة التي فارقت دنياهم منذ سنوات، ما أرقّها من عادةٍ حيث اعتاد صاحبُنا إلقاءَ هذه التحيّة..

تُرى هل تصلُ هذه التحيّة إلى جدّتي، لا بدّ أنّها في النعيم الآن؛ فجدّتي كانت طيّبة، وذات قلبٍ كبير؛ كانت تحبّ الناس، والناسُ أيضًا يحبّونها، لم تؤذِ أحدًا من الجيران.. دارَ هذا بخاطر الفتى وهو ينظرُ ناحية بيت جدّته المهجور.

تحرّك الفتى يجرّ أقدامه، لقد اشْتاق إلى جدّته كثيرًا، وقدْ أحسّ قلبُه أنّها لا بدّ تشتاق إليه أيضًا.. وعلى بُعد خطوات من المنزل التفتَ الصبي تجاه بوابةٍ عالية قديمة لمدخلٍ كبير مسقوف منتهٍ ببابٍ خشبي كبير.

أمعنَ الفتى النظرَ إليه؛ علّه يظفر بشيء يتحرّك خلف الباب الجاثم عن قُرب. تسمّع لأصواتٍ تأتي من بعيد، إنّها أصواتُ طيور كثيرة مُتزاحمة، اجتمعت فوقَ شجرة كبيرة ممتدّة، إنّها شجرة التّوت التي تتوسّط حديقة منزل الأفندي الذي يلاصقُ بيتهم. منذ أنْ وعي على الدنيا وهو يراه عن بُعد،

حتى عندما يأتي لزيارة والده الشيخ إبراهيم أيّام الأعياد أو في بعض الجُمع والمناسبات الخاصّة، أو للسّلام العابر؛ لا يكلّمه أبدًا.. تُرى كيف يعيش هذا العجوز بمفرده في هذا البيت الكبير؟! وهل حياة الأفندي كحياةِ مَن حوله؟ متى ينام، ومتى يستيقظ؟ مَن هم أقرباؤه؟ مَن يزوره؟ أين يذهب؟... أسئلةٌ كثيرة شغلت فكرَ الصّغير الذي سلّم نفسه لهذه التساؤلات، ونسيَ مهمّته الأساسية التي خرج لأجلها..

وأخيرًا، استفاق الصغيرُ من سباته، سارَ في الدّرب الموصل إلى بيتِ بائعة الفول؛ إنّها سيدة مسنّة تُدعى الحاجّة أمينة، أرملةٌ.. ماتَ زوجها وترك لها ثلاثَ بنات يعملنَ معها في بيْع الأغراض والسّلع التموينية. ألقى الفتى التحيّة على ابنتها زينب، ومدّ لها وعاءَ الفول لتردّه إليه مملوءًا، شكرَ لها..

عاد ثانيةً إلى البيت، وفي الطريق، صادف مرورُه مجموعةً من أبناء القرية الذين تحلّقوا على ناصية الشارع الأمامي، وقد أشعلوا بعضَ عيدان الذّرة اليابسة يستدفئون بها مِن برْد الصباح القارس.. ألقى عليهم التّحية، ولكنّ الشباب كانوا في شُغل مِن حديثٍ طويل منعهم من ردّ التّحية.

دفع الفضولُ الصغيرَ أن ينضمّ إلى هذا الحشد اللاهي، ومِن غريب المصادفة أنّهم لم ينتبهوا لوجوده بالمرّة... كان الحوار مُحتدمًا على أشدّه بينهم فيما جرى الليلةَ الماضية مع "مختار"، أحدِ فتيان القرية عند مروره أمامَ بوّابة الأفندي.. فقد ظهرَ له ماردٌ طويل، طالَ السماءَ بقامته، وعيناه يتطاير منهما

الشّرر، وأنيابُه التي بلغت في ارتفاعها مبلغَ النّخلة العالية، وأظافرُه يطْليها اللّهبُ المُشتعل، وعندما انتبه مِن هوْله؛ طلب منه أنْ ينتظرَ حتى يتكلّم معه فهو لن يؤذيَه أبدًا؛ فهو طيّب، ولا يُضمر الشرّ لبني الإنْسان..

تعجّب الفتى مِن هذا الحوار الغريب، تعالت ضحكاتُه بصوتٍ عالٍ ومَلحوظ؛ جعل القومَ يشعرون به، سأل أحدُهم باستغراب ودهشةٍ الفتى:

- مِن أين جئت؟ وكيف حضرت؟ وهل أنت أيضًا ماردٌ يمرّ بالناس، ويتواجد بينهم دونَ أن يشعروا به؟

سخر المجتمِعون منه ومِن بلاهته، فكيف يظهرُ المَردة في وَضَح النهار!!

التفتَ الحشدُ إليه، وهُم في غرابةٍ من تسلّل الفتى بينهم، مِن أين جاءته هذه الجُرأة ليضحك بصوته الساخر بلا مبالاة أو خوف! أيُعقل لصغيرٍ في سنّه أن يملك كلّ هذا القدر مِن الشجاعة؟!

قاطع أحدُهم الحديثَ بأنّ هذا الفتى اعتاد مُخالطةَ المَردة والجانّ والأبالسة؛ فهو جارٌ لبيت الأفندي المسكون بعُتاة الشياطين، يجالسهم ليلَ نهار. تعجّب الفتى مِن هذا الحديث الغريب، والذي يسمعه لأوّل مرّة في حياته.

ردّ الفتى: جانّ وشياطين، أيُعقل هذا؟!!

أجابه أحدُهم مِن فوْره: نعم، وأكثر من ذلك؛ فجميعُ أهل القرية يقولون بأنّ الأفندي متزوّج من جنّيّة، هي التي تساكنُه منزلَه، وتجالسه مِن مَغيب

الشمس وحتى شروقها.. وبداخل هذا المنزلِ المسحور يستقرّ كنزٌ من كنوز قارون التي يُحْكى عنها في القصص والرّوايات، وأنّ الأفندي هو الحارسُ الأمين لهذا الكنز، ولكنّه لا يريد لهذا الكنز أنْ يخرج لأنّ شرطَ حرّاسه أن يُذبح إنسانٌ على بابه، ويلطّخ جدران مدخله بدماء ذلك الإنسيّ، والأفندي يماطل أقاربَه الذين يدفعهم الفضول والشغف لامتلاك هذا الكنز بأيّة وسيلة، إلّا أنّ مسألةَ إراقة دمِ إنسان هذه لا يقبلون بها، ولا يوافقون عليها، خاصّة وأنّهم على قدرٍ من التديّن والطيبة.. كلّ هذا والفتى مستغرقٌ في حواراتهم لا يتكلّم، وقد اتّسعت أحداقه.

همس بعضُ الأشقياء من رُفقاء الجلسة قائلًا له: أنصحك يا فتى أنْ تأخذ حِذْرك مِن الذين يظهرون ويتشكّلون في أشكالٍ غريبة؛ فمنهم مَن يُرى على شكل أرنب، ومنهم مَن يتشكّل على هيئة حمار، ومنهم مَن يبدو على شاكلة ذكَر الجاموس، أو حصان، أو ديك كبير.. وجارُكم الأفندي قد اعتادَ تلك الخيالات، إنّه يمتلك بعضَ الكتب القديمة التي تحوي طلاسمَ وعزائم يسيطرُ بها على كلّ هؤلاء، ولا يستطيعون الاقترابَ منه.. أمّا أنت ووالدُك، فالحذَرُ هو سلاحكم الوحيد.

ضحك الجميع وانْصرفوا، وبقي الفتى شاردَ البال، مشتّت الفكر، أيُعقل هذا!! كيف لجانٍ أن يتشكّل في كلّ هذه الصور؟ وهل حقيقةً أنّ الأفندي- ذلك العجوزُ التركي- يمتلك هذه القوّة الخفيّة الخارقة بيده، والتي يستطيع

بها التحكّمَ فيهم، أو تسْخيرهم وفْقَ هواه؟ ما هذا السرّ الذي يخفيه الأفندي يا تُرى؟ وهل مِن سبيلٍ لدخول بيتِ الأفندي، والاطّلاع على هذا الاختراع العجيب الذي يجلب له القوّة التي يتحكّم بها في تلك المخلوقات؟ وهل والدُه الشيخ على علمٍ بهذا الكلام؟

تذكّر الفتى- مؤخّرًا- ما خرج مِن أجله، لقد أخذه الفضولُ إلى ارتكاب حماقةٍ كبيرة، لقد حادَ عن قصده، تُرى ماذا يقول لوالدته عند العودة!!

أسرع الفتى في مِشيته، وبدأ يطرحُ على نفسه بعضَ الإجابات ويعدّد الحُجج التي يُقنع بها المنتظرين له عند عودته. وصل إلى البيت، كانت أختُه الصغرى "رقية" تقف على عتبة الدّار في انتظار مَقْدمه، وما أنْ لاح لها عن بُعد حتى بادرته بالسؤال: أين كنت!؟ ولماذا التأخير؟

دخل الفتى البيت، سألته أمّه: أين كنت يا بني؟ والدك قلِقٌ عليك، هل هذه وصيّتي إليك قبل أن تخرج؟.. لم ينطق بكلمة واحدة، ظلّ صامتًا شاردَ الذهن، مشى يدفع نفسَه دفعًا قُبالة الحجرة التي يجلس فيها والدُه الشيخ.. دخل الغرفة، وأطالَ النظر إلى والده، وقد ارتسمتْ على وجهه الصغيرِ علاماتُ الاستفهام.. وفي بديهة، ودونَ تردّد منه، قال لوالده: هل حقيقيّ أنّ بيت الأفندي مسكونٌ بالجانّ والمَرَدة؟ وأنّ لدى الأفندي طلاسم وأحْجبة يسخّر بها هؤلاء؟

استغرب والدُه مِن حديثه، وبدتْ علامات الدّهشة واضحةً عليه وهو يسأله: مَن أخبرك بهذا يا صغيري؟ ردّ عليه: لقد كان بعضُ نفرٍ يتكلّمون في هذا الموضوع عند مروري بالدّرب.

قال له والدُه: اسمعْ يا بني، لا تشغل بالَك بهذه الأمور، ولا تسمعْ لأي شيء يُقال لك، فبعضُ الناس لا يملكون أدلّة مُقنعة يمكنُ الاستدلال بها أو الأخذُ بها، لا بدّ لك مِن المشاهدة والاقتناع بنفسك أوّلًا يا ولدي.

أُغلقَ الموضوع، أو هكذا بدا للجميع إلّا الفتى الذي شغله الإفطار؛ حيث أعدّت أمّه طعامَ الإفطار، وجاءت به.. التفّ الجميعُ حول مائدتهم يتناولون فطورَهم، وفي أثناء الأكل سأل الشيخُ إبراهيم أهلَ البيت عن طلباتهم واحتياجاتهم؛ فاليوم سيغادر القرية لحضورِ مولد السيّد أحمد البدوي بطنطا.. شكروا له مُمتنّين ومُتمَنّين له السّلامة، وأن يعود مِن سفره محفوظًا من كلّ شرّ. أكّد الشيخ على أولاده أنْ يكونوا في طاعةِ أمّهم، وأنْ يحافظ الفتى على سلامةِ إخوته قدْرَ طاقته، وألّا يعرّض شخصٌ حياتَه والآخرين للخطر، وأوصى زوجته أنْ تخبر كلَّ مَن يسأل عنه أنّه في زيارة لمولد السيد البدوي، وسيرجع بعدَ انقضائه.

كان الفتى لا يزال مَهمومًا بأحاديث الصباح أكثرَ مِن اللّازم، ظلّ شاردًا لا يُسمع له صوتٌ، شعر والدُه بحالته، قرّبه إليه ووضع يدَه على كتفه، وهمسَ في أذنه بحديثٍ خاصّ: دعْ عنك هذه الأوْهام، واشْغل نفسك بما

ينفعك، فالمؤمن الحقّ لا تهزمه مَردةُ الجنّ والإنس.. وعند عودتي من المولد، ستكون لنا جلسةٌ طويلة أقصّ عليك فيها ما يسرّك، ولكنْ دعْك من كلّ هذا، هل تريد شيئًا خاصًّا أجلبُه لك من عند السيّد؟

شكرَ الفتى والدَه، وقدْ سُرّ بحديثه، وعادت إليه ثقتُه التي كادت أن تتزعزعَ فيه مرّة أخرى. وأثناء ذلك، دخلت الزوجةُ بأكواب الشاي السّاخن، تحلّقَ الجميع حولها، وانغمسوا في حديثٍ باسِمٍ طويل.

زيارةٌ غيرُ متوقَّعَة

كان عالمُ الأفندي مُبهرًا وخياليًّا بالنسبة إليه، كثيرًا ما كان يشاهدُه في أحلامه، وتاقتْ نفسُه الدخولَ إليه.. ظلّ هذا العالم أشبهَ بالبلّورة السحريّة التي تبعد عنه بضعة أمتار ولا يستطيع الولوجَ إليها أو جسّها بيده.. كلّ ما عليه النظرُ إليها مِن بعيد وتخيّلها، راودته الكثيرُ من الأسئلة... يا ترى كيف هي؟ هل هي مثلُ عالمنا نحن؟ هل الأفندي يحمل طبيعةً كطبيعة البشر كأهلِ القرية، أمْ أنّه ذو طبيعة خاصّة تناسبُ هذا العالم السّحري الذي يحيا فيه؟! كيف يعيش؟ كيف يتكيّف مع هذا العالم المُنْعزل؟

استحوذتْ عليه أقاصيصُ اللّيل وحكاياتُ السّهر التي يقصّها الشباب عنْ عالم الأفندي الغامض، وكأنّه جزيرة في وسط القرية...

وكلّما مرّ أمامَ بوابة بيت الأفندي؛ اقْشعرّ جسده، وعاودته حكاياتُ الجنّ والمَردة، وخيالاتُ العفاريت التي تتشكّل في شخوصٍ غريبة؛ فهذا حمارٌ طويل، وهذا أرنبٌ أبيضُ يسير وسط ظلام الدّرب، وهذه بقرة تجري، ويجري خلفها وليدُها في منتصف اللّيل، وهذا ديكٌ أحمر يسير على ثلاث أرجل، وهذا رجُلٌ يركب حماره بالمَقلوب، يحمل خلفَه شخصًا طويلًا يطالُ السّحاب ينادي الناس من المارّة بأسمائهم، وكلّ همّه لفْتُ الانتباه والانفرادُ

بالخائف منهم.. وهذه سيدةٌ عجوز تُرضع طفلًا ذا لحيةٍ بيضاء، وقد امتدّت أثداؤها أمتارًا خارج جسدها،..،.. هذه أباطيلُ السّمّار وأسمار العامّة الذين يحلّقون حول جمْر الحطب في ليلِ الشتاء الطويل، الكلّ يراودهُ السؤال عمّن يستطيع أنْ يقترب مِن بيت الأفندي وهذا حال الجنّ والمَرَدة مِن عمّار المكان الذين يشاركونه السُّكنة؟!!

ها هو القدرُ يُهديه فرصةً جديدة، علّها تقرّبه من هدفِه؛ فقد صادف الأفندي في صباح يومٍ جديد، لاحظ عليه همومًا مُتراكمة تراكُمَ التراب على سطوحِ بيوت القرية العتيقة.. حاول أن يلفتَ انتباهه بأيّ وسيلة؛ تصنّع الأدبَ والوقار، أمسكَ في يده صحيفةً بالية وجدَها مركونةً أسفل جدار قديم، نفضَ عنها الغبار.. وبدأ يتهجى أحرفَها المطموسة. سار الأفندي بجواره، وكالعادة.. دونَ جدوى؛ فلم يلتفتْ إليه، أو يلقي له بالًا.

سار وراء الأفندي لاشعوريًّا، ولسانُ حاله يقول.. تُرى ما السرّ الذي جعله يتجاهلني وأنا أدْعوه لرؤيتي والانتباه إليّ؟!

وقفَ الأفندي أمامَ دكّان الحاج صالح ليشتري الفول المدمّس، طلب مِن "زينب" الصغيرة أن تقلّل من الماء وتُكثرَ من الفول، ومدّ إليها الطبقَ الصيني الأنيق الذي لم يكنْ بالقرية مثيلٌ له، إنّه من بقايا الأبّهة وأيّام العزّ.

رجع الفتى إلى البيت كاسفَ البال حزينًا مُنزويًا على كنبة خشبيّة مُتهالكة، أسند رأسَه على مسندٍ قطني مُهْترئ.. اقتربتْ منه أمّه قائلة له– وقد شمّرت أكمامَ ثوبها الأسود الطويل، تقطر يدُها الماء: ما لَك!! ماذا بك؟

رفع رأسَه المحنيّ إلى أمّه وهو يقول:

– لا شيء، والأفندي..

ارتسمت على وجْه أمّه الشاحبِ علاماتُ الاستفهام قائلةً له: – ما له الأفندي؟

وكأنّها تذكّرت شيئًا فدخلتْ مُسرعةً إلى حجرةٍ في آخر البيت، وأحضرت طبقًا من الصّاج القديم، وطلبتْ منه أن يسرع إلى بيتِ الأفندي، ويعطيه إيّاه.

نزلت عبارةُ أمّه عليه ذهولًا، ولأوّل مرّة يجرّب هذا الشعور؛ فرح يصل لحدّ الغياب عمّن حوله.. هل ما تقوله أمّه حقيقةٌ أم خيال؟!! يذهب بنفسه لبيتِ الأفندي! هل تأتيه الفرصةُ التي انتظرها لسنواتٍ هكذا دونَ سابق ترْتيب.. والتي كمْ داعبت خيالَه في النوم واليقظة؟!!

أمسك بالطبق وانْتفض مستويًا في جِلسته، واحتذى نعلَه البلاستيكي، وخرج مُسرعًا.. وقد ارتسمتْ على وجْهه الصغير أساريرُ الفرح والسّرور؛ فمَن في مثل حظّه، لقد وافاهُ السّعد وحالفه الحظُّ، وساقَ له تذكرةً مجّانية لدنيا الأفندي.

اقترب من بوّابة البيت، ويصارعُ الوقوفَ معه حكاياتُ المَرَدة والعفاريت من جديد.. ابتلع ريقَه، وهمَزَ صدرَه بيده.. ماذا دهاك! وهل هناك مَرَدةٌ بالنهار؟ أمَا سمعتَ عمَّكَ الشيخ حسن الطويل في مجلس والدكَ يقول: إنّ نور الشمس وشعاع النار تُشتّت قوّة العفريت!!

تشجّع، وبدأ يطرق البابَ الخشبي العتيق بيده الصغيرة، وراح يختلسُ بعض النّظرات من خلال ثقوبٍ صغيرة في الخشب، يراقبُ المتابعَ لطَرقاتهِ من الدّاخل. بدأ قلبُه ينتفضُ كالعُصفور الذي بلّل ريشَه ماءُ المطر، يا الله! إنّه هو الأفندي بنفسه جاءَ ليفتح له الباب. وقف الأفندي فوقَ الدّرج الداخلي المطلّ على الساحة الخضراءِ المَزروعة أمام الممرّ الموصل إلى الباب، وقال بصوتٍ عالٍ جَهْوري: مَن؟

تلعثمَ الفتى، وتحجّر الكلامُ كأنّه رضيعٌ لا يقوى على التّفوّه.. وأخيرًا استجمعَ ما تبقّى مِن قواه، وردّ بصوتٍ غيرِ مسْموع ليعلنَ عن نفسه. سار الأفندي في خطواتٍ رشيقة رغمَ شيخوخته، حتّى وصل إلى الباب، وفتح العارضةَ الخشبيّة الموجودة بالخلف.

وقف الفتى- للمرّة الأولى- وجهًا لوجْه مع الأفندي، لم يتمالكْ نفسَه، استجمع قواه وتماسَك، ثبّت نفسه، وحاول أن يطمئنَها.. ها قدْ جاءتك الفرصةُ وضحك السّعدُ..

ابتسم له الأفندي، ألقى الفتى التحيّةَ بصوتٍ مُتداخل، أجشّ؛ مِن اضطراب نفسه، قدّم للأفندي الطبقَ في أدبٍ، ونظرُه متحوّل فيما خلفَ الأفندي.. قال له الأفندي: ما هذا؟!

كشفَ عن الطبق ليتبيّن محتواه، إنها حبّاتٌ من الجُبن القديم وقطعةٌ من الزّبدة. شكرَ له الأفندي طالبًا منه أن يحملَ شكرَه وامتنانه للوالدةِ، ولوالده الشيخ.. هزّ رأسَه مُنحنيًا مُحيِّيًا بالقبول.

ثمّ طلب منه الأفندي أن يدخلَ إنْ لم يكنْ لديه مانعٌ من ذلك، فتح عينيه دهشةً فهو لا يصدّق ما يسمع.. ماذا يقول الأفندي! هل فعلًا أستطيع الدّخول لهذا البيت المَسْحور؟! قال مِن فوره: بالطبع لا شيء يشغلني.

أغلقَ الأفندي الباب، مرحّبًا بضيفه الصغير، مُحيّيًا إيّاه كجارٍ عزيز وصاحبِ صلةٍ ومعروف تعوّد أهلُه وصلَه الأفندي الوحيد بها بين الحين والآخر.

تأخّر وراء الأفندي لخطواتٍ قليلة، نظرَ إليه الأفندي طالبًا منه أنْ يعتبر البيت بيتَه.

كمْ هو جميلٌ قدَرُ الله وترتيبُه! همسَ في نفسِه: شكرًا لكِ يا أمّي؛ فقدْ منحْتني ما تمنّيتُه لفتراتٍ.. قلبُه يرقصُ .. وعيناه لا تثبتُ في مكانٍ يريدُ أن يلتهمَ بهما كل شيءٍ حتى لا يفوته شيء.. ثمّ بدأ يقنع نفسَه أنّه- فعلًا- في

بيت الأفندي؛ علّ ذلك الإحساس يمنحه شيئًا من الثباتِ أما الأفندي فلا يستصغره لحداثة سنّه..

ثبّت قدميْه داخل نعلِه البلاستيكي القديم، عدّل مِن هندامه، مرّر يدَه على ياقةِ جلبابه الأخضر، غافل الأفندي واختلسَ يمرّر يدَه فوق عيدانِ الرّيحان التي ازْدانت بها ممرّات البيت، تحسّس جسمَه ليؤكّد لنفسه أنّ ما يعيشه حقيقةٌ وليس خيالًا..

نظرَ لأعلى، إنّها شجرة التوت العتيقة، تحملُ أعشاش الطير، نعمْ هي.. فكمْ شاهدها مِن أعلى بيتهم، واستظلّ بها ساعةَ الغروب.. وهذه طلمبةُ المياه العتيقة، وهذه أعوادُ الجرجير الأخضر تحتضنُ شَجرات الباذنجان، وهذه لفائفُ الخسّ الجميلة النّضرة.

تقدّم الفتى تثّاقلُ عليه خطواته، وكأنما عُلّقت أكياسٌ من الرّمل بهما، يدفع نفسَه دفعًا، يحاول أن يهزمَ ترقّبه، تصارعه الرّغبةُ والفضول، وتعيقه الرّهبة، ويهزمُ مسيرَه الخوف.

يشخصُ أمامَ عينيه ويمرّ شريطُ الحكايات التي اعتادَ سماعَها عنْ هذا العالم السحريّ الذي يكتشفه لأوّل مرّة. صعدَ الدرج الأماميّ من المنزل، والفاصلَ بينه وبين الحديقة والممرّ المنتهي بالمدخل.

جلس على كنبةٍ خشبيّة تظهر عليها أمارات القِدم، إنّها بعُمر أقاصيص الجنّ والمَرَدة، تُرى كمْ مِن شخص جلس عليها يا تُرى؟ كم عاصرتْ مِن أحداث، وشهدت مِن أحلامِ وآمال الأفندي وأسرته العريقة؟!!

استوى في جِلسته بعد أنْ دخلَ الأفندي للبيت ليغيب دقائق، ثمّ يعود يحملُ بين يديه صينيةً مِن النّحاس المطليّ القديم قد توسّطتها أكوابٌ مصنوعةٌ من الزّجاج المعشّق القديم، ومعها طبقٌ أنيق مِن الصّيني عليه بعضُ ورقاتٍ من النّعناع الأخضر الفوّاح، وسكّريّة من الألمونيوم بملعقةٍ صغيرة من الزّجاج الأبيض النّاصع...

أخذ رشفةً من كوبِ الشاي الجميل الذي أمسكه دونَ أن يستأذن في محاولةٍ منه لاكتساب الثقةَ في نفسِه، وكأنّ يدَه تعرف طريقَها إليه من قبْل أن يراه. نظرَ إليه الأفندي بابتسامةٍ تعلو تجاعيدَ وجهِه الأحمر: هل تحتاجُ السّكر؟

ردّ عليه وهو يرشفُ رشفاتٍ مُتتابعة من الشاي دونَ أن ينظرَ إليه: لا.. أشكرك، إنّه جيدٌ جدًّا.

توالتْ رشفاته مِن الشاي، وعيناه معلّقتان بسقف المنزل الخشبيّ الذي تظهر عليه عواملُ الزّمن، وفِعْل الأيام.. ثمّ حوّل عينه ناحيةَ الصّالة التي تتوسّط منزلَ الأفندي. ففي المدخل وبجوار الباب الذي يتوسّط الصّالة،

رستْ كنبةٌ جميلة أنيقة قد زُيّنت بفرشٍ قطنيّ جميل، يزيدُها بهاءً مساندُ وتكّايات بقماشٍ أخضرَ أنيق.. كلّ هذا والأفندي يلحظُ على فتاهُ عواملَ الانْبهار والذّهول والتّطلّع، لكنّه لم يشأ إلّا أنْ يُشعره بالاطْمئنان والرّاحة؛ فلا غرابةَ في ذلك.. شعر الفتى بنظراتِ الأفندي، شعرَ بالحياء فلَم يُكملْ كوبَ الشاي رغمَ مذاقه الحُلو، استأذن وهَمّ بالانصراف في خجل..

طلبَ منه الأفندي أنْ يعاود الزّيارة قريبًا بلا تردّد أو إذنٍ مُسبَق. همّ الفتى نازلًا الدّرجَ العلوي لمدخل المنزل مودّعًا، وعادَ أدراجه ليمسكَ العارضة الخشبيّة، ويفتح الباب وهو لا يصدّق نفسَه فقد حظيَ بحُلم العمر، وتفتّحت أمامَه دنيا الأفندي السحريّة دونَ قصدٍ أو ترتيب مُسبَق.

ألقى نظرةً على الباب الخشبي الكبير، ولسانُ حاله يقول: لنا عودةٌ عن قريب يا صديقي.. وانصرف.

عادَ إلى بيته بعد خطواتٍ من بيت الأفندي، فتح الباب الخشبيّ، ومدّ بصره يجوب باحةَ البيت، نادى بصوته الهامسِ الصغير على أمّه وعلى إخوته.. ردّتْ عليه أمّه مِن أعلى البيت تُعْلِمه بوجودها.

اطمئنّ بعضَ الشيء، وأنِسَ لوجودها كعادته، رفع غطاءَ الزّير الموجود أسفلَ سلّم البيت، وغرف كوبًا من الماء البارد، شرب وكأنّه لم يشرب مِن قبْل، يا للعجب! لقد نسي أنّه عطشان لهذا الحدّ!!

استدار جالسًا على كنبتِه الخشبيّة الموجودة بصالة البيت، نزلت أمّه مِن على سطح البيت، طمأنَها على وصول الطبق إلى الأفندي، ظلّ الفتى مُطرقًا الرّأسَ شاردَ الفكْر، لا يشعر بمَن حوله، حتى أمّه لاحظتْ عليه شرودَه.

انتبه أخيرًا إليها.. أعادت عليه سؤالها: ماذا بك؟! وما الذي أخّركَ؟!!

أجاب الفتى: هو حقيقيّ يا أمّي الـ...،

وسكت فجأة، ما هذا الذي يقول، وهل يُعقل ذلك! اقتربت منه أمّه وجلست إلى جواره، وقالت: ما لكَ؟! لمَ كلّ هذا الشرود؟! أخبرها الصبيّ الصغير- وبلا مقدّمات- أنّه يودّ التّردّد على بيت الأفندي، على أنْ تساعده في إقناع والدِه الشيخ حالَ عودته من سفرتِه إلى طنطا، والتي غابَ فيها لحضور مولد السيد البدوي منذ أربعة أيّام. حكى لها ما حدثَ، وكمْ آنس إلى الأفندي، وآنسَ الأفندي به، وشعر وكأنّه يعرفه منذُ زمن.. ردّت عليه أمّه واعدةً إيّاه بأنّها ستحاول إجابةَ طلبه على شرطٍ واحد.. أنْ يوافق والدُه الشيخ أولًا، وإلّا فلن يستطيع دخولَ منزل الأفندي. قبّل يدَها داعيًا لها بطولِ العمر ولوالدِه العودةِ سالمًا.

عوْدٌ حميدٌ

مرّت الأيام، وجاء مَن يخبرهم بأنّ الشيخ إبراهيم عاد من عند السيد البدوي، وأنّ "أتوموبيلا" يقلّه هو وأغراضَه موجودٌ على الترعة عند مدخلِ القرية، وهناك مَن يساعده في حمْل أمتعته.

خرج مسرعًا ناحيةَ الجسر، احتضنَ والدَه وقبّل يده، وحمل عنه حقيبتَه، وأمسك بيده كيسًا ورقيًّا.. سار الشيخُ وسط القرية، يصاحبُه بعضُ نفرٍ مِن أهل القرية ناحيةَ البيت. شاهدَ بعضُ نسوةٍ من أهل القرية، وهنّ على أسطح البيوت مقدِمَ الشيخ إبراهيم، انطلقت إحداهنّ بالزّغاريد، مسَلّمين على الشيخ، مُهنّئين والدة الفتى بسلامةِ وصول الشيخ الزّائر.

أخفتْ زوجةُ الشيخ ابتسامةً ملأت قسماتِها وبرقت لها عيناها التي بدتْ فيها بقيّةٌ من جَمال، بوجْهٌ لا تزال فيه دماءُ الشّباب- وإنْ تقدّم بها العمر.. دخل الشيخ إلى البيت يستقبلُ المهنّئين له بسلامة الوصول، حملَ الفتى مع أخيه الأصغرِ كنبةً أخرى ليجلس عليها الضّيوف من أهل القرية. عاد مُسرعًا ليحضرَ صينيةً عامرة بأكوابِ الشاي المغْلي، وزّعها على الضيوف، وهو يتلقّى التّهاني منهم على سلامةِ الوالد.

أخذَ مكانَه آخرَ الصالة على كرسيّ خشبي صغير مُستمعًا إلى أحاديثِ الضيوف، بدأ يحرّك طاقيّته من على رأسه، يفرُك شعرَه، استعدادًا لوصْلة من السّمر التي ينتظرها بفارغ الصبر.

همّ بعضُ نفرٍ بالاستئذان.. إلّا أنّ الشيخ أقسم ألّا يغادر أحدٌ المجلسَ؛ فهو في حالة طيّبة، ولا يشعر بتعب السفر.

بدأ الشيخ يقصّ عليهم رحلته منذ أن غادر القطار محطّتَه، وما دار داخله، انتهاءً بطنطا والسيد البدوي..

قصّ عليهم أحاديثَ الليلة الكبيرة التي حضرَها المأمور ورجالُ الأمن، والأعيانُ والمشايخ والوجهاء، وعِلْية القوم، وخدّام المقام، ورجالُ الدّين من الفِرق، وأربابُ الأحوال من الدّراويش، وعشّاقُ السيد البدوي مِن مختلف بلاد الدنيا،... والقومُ يستمعون إليه في سكونٍ وخشوع، وكأنّ على رؤوسهم الطير، وصاحبُنا يجلس مُنبهرًا بما يسمعُ، مَسرورًا بوالده الشيخ، فخورًا به، يمرّر بصرَه خِلسة مُستطلعًا وجوهَ الحضور، يحاول أنْ يتكشّف- في خبثٍ- انطباعَهم مِن الرّضا والقبول، وكأنّه هو صاحبُ هذا الإنجاز.

انفضّ السّامر، وخرج القومُ من بيت الشيخ إبراهيم، بعد أن متّعوا أسماعهم بهذه الأحاديث والقصص الشّيقة التي قصّها الشيخ عليهم، وكلّ واحدٍ منهم تمنّى لو كان مكانَ الشيخ إبراهيم، وينالُ شرف زيارة السيد البدوي، ويضع يدَه على المَقام، ويلثمُ الكسوةَ الشريفة، ويعايش

هذه التجلّيات عن قرب؛ مشاهدةً ورؤية، وقد طالت كلّ نفرٍ منهم نفحةٌ من نفَحات السيد؛ قطعةٌ من الحلاوة السّمسميّة والحمّصية، أو الملْبن، والسّوداني...

وبعد أنْ أغلق الفتى البابَ، جلس الشيخ على حصير وسط الصالة، والتفّ حولَه الجميعُ ليطمئنّ على أحوالهم، وكيف كان حالُ البيت والحقلِ حالَ غيبته، قاطعتْه زوجته بلطفٍ وأخبرتْه بأنّ الأمور بخيرٍ طالما هو قد عادَ بالسلامة من سفره.

نظرَ الشيخ إلى أبنائه يسأل كلَّ واحدٍ عن أحواله، حتى جاء الدّور على صاحبنا، سأله والدُه عن أحواله، ردّ بلا رويّة: أنا بخيرٍ طالما أنتَ راضٍ عنّي يا أبي. ارتسمت على وجهِ الشيخ ابتسامةٌ لطيفة من جوابِ الفتى. طلبَ الشيخ من زوجتِه أن تُحضر الحقيبةَ والأكياسَ من الداخل، فتح الحقيبة.. وبدأ في توزيع الهدايا والعطايا عليهم؛ فهذه قطعةٌ من الحرير الأخضرِ وشالٌ كشمير أحمر لابنتِه خديجة، وهذا شالٌ أسود لزوجته، وهذه طاقيةٌ بيضاء وجلبابٌ أبيض للصغير محمّد، وهذه قطعةُ قماشٍ لابنة عمّه اليتيمة، ثمّ أخرج كيسًا أسودَ ومالَ إلى صاحبنا، وقال له : انظرْ ماذا أحضرتُ لك خصيصًا...

أخرجَ من الكيس مِسبحةً كبيرة، وجلبابًا أبيض، ونعلًا بلاستيكيًّا أزرقَ جميلًا، ثمّ مالَ عليْه وهمس في أذنِه: ولمْ أنسَ ما ألَححتَ عليّ لإحضاره.. وأخرجَ بعضَ الكتب الصغيرة من الحقيبة.

نظر الفتى بفرحٍ إلى هدية والده، وبدأ يقلّب فيها.. أمسكَ بالكُتب، إنّها أورادٌ جليلة جلبَها والدُه الشيخ من طنطا.

شكرَ والدَه مقبّلًا يده، ثمّ نظرَ إلى والدته، وقد ارْتسمت على ملامحِه الصغيرة تساؤلاتٌ عدّة، ورسائل يريدُ من أمّه أن تقرأها.. هزّت أمّه رأسها مُطمئنَةً فتاها الصغير، استوتِ الأمّ في جلستها، ومالتْ على الشيخ قائلةً له: خالد يريدُ الذّهاب عند الأفندي مِن بعْد إذنك. نظر الشيخ إلى ولدِه مرّة وإلى زوجته مرّة أخرى، وسكتَ لحظة، ثمّ قال: ليس هناك مانع، ولكنْ بشروط.. فرحَ الصبيّ بهذا الردّ، إلّا أنّ والده بادرَه بالشروط قائلًا: أنْ تلتزم الأدب، ولا تمتدّ يدُكَ إلى شيء من أغراضِ الأفندي، وألّا تضايقه أو تزعجه، وأنْ تذهب إليه مُنفردًا بلا رفقةٍ مِن أصحابه، وأنْ تستفيد من مكتبةِ الأفندي وخزانة كتبِه العتيقة؛ فهي المغزى من الذّهاب لبيت الأفندي.

تهلّل وجهُه، وقم يقبّل رأس أبيه ويده، مؤكّدًا سمعَه وطاعتَه لما اشترطَ عليه. أحضرت الزوجةُ صينية العشاء، وقد علاها ديكٌ روميّ قد أُعِدّ خصيصًا احتفاءً بعودة الشيخ، وبرامٌ من الأرز وأطباقٌ من البامية اللّذيذة.

التفّ الجميع حول العشاء، بدأ الشيخ يقصّ عليهم الغريبَ ممّا شاهده في المولد، وعاداتِ القوم في طنطا، وصداقتَه مع بعض أهلِ الطريق من الصوفيّة وزوّار المقام الأحمدي.. ساد جميعَ مَن على المائدة حالةٌ من الصمت، فالقوم في

تلهّف لما يقصّه الشيخ مِن أقاصيص الزّيارة، استغرق الشيخ في حديثِه وقد علتْ أساريرَه حالةٌ من الحنين، ثمّ وجّه كلامَه لزوجته: أتعلمين أنّ للسيد كراماتٍ وأحوالًا؟ فكيف لا يكون ذلك وهو مَن هو!! هو قطعةٌ من بيت النبي، عليه الصّلاة والسلام، جدّه الحسين وجدّته الزهراء بنت النبي، لقد عاينتُ كغيري بعضَ الكرامات الغريبة التي لا تحدثُ إلّا في حضرة البدوي، لقد تاهتْ من سيدةٍ ابنتُها الوحيدة التي جاءت بها للزّيارة كعادتها كلّ عام، وبعد أن أضناها البحثُ وأجهدَها البكاء؛ ذهبت إلى الضريح وبكتْ وبلّت المدامعُ ملابسها، وهي تصرخ وتقول: أيعقل أن تتوهَ ابنتي وقد جئتُ لزيارتك؟! وما هي إلّا لحظات وقد جاء أحدُ الباعة مُمسكًا الفتاة الصغيرة في يدِه، وعندما سألته: أين وجدتَها؟ قال: لقد أعطاني شيخٌ كبير هذه البنت، وقال لي اذهبْ فأمّها عند المقام تبكي. بدا الجميعُ مشدوهًا، لكنّ صاحبَنا كان في عالمٍ آخر؛ فقد نظر إلى والده الشيخ أثناءَ حديثه قائلًا له: هل حقيقيّ بيتُ الأفندي مسكون؟!!

كان حديثُ الجنّ والعفاريت يسيطر على كِيان الفتى، ويطلق لسانَه لاشعوريًّا، التفتَ الشيخ إليه مُستنكرًا هذه الخُرافات، فالعائلة لها عمرٌ طويل تسكن في هذا البيت بجوار بيت الأفندي حتى مِن قبل أن يسكنَه الأفندي الكبيرُ والدُه، ولم يرَ أحدٌ شيئًا من الخَيالات هذه..

– يا بني، إنّ المسلم طالما تمسّك بدينه وسنّة نبيّه؛ فلا خوف عليه مِن شيء بالمرّة، نعم هناك جنّ وشياطين ومَرَدة، ولكن.. لا سلطان لهم على أحدٍ إلّا مَن ضعُفَ إيمانُه وقلّ وازعُه.

أسندَ الشيخ رأسَه إلى الحائط، وتوقّف عن مضغِ ما تبقّى في فمِه من طعام، وقال للحضور: أذكرُ مرّة أنّ عمّي كان عائدًا من عند صديقٍ له في بلدٍ قريب مِن قريتنا، وقد سار وحيدًا تلك الليلة، وهو يركبُ حمارَه الأنيق على الجسر الترابي الطويل، وبدأ يردّد بعضَ أغانيه التي يقطع بها سكونَ الليل وسوادَه الموحِش، وبعد أنْ غاب في الظلام بعيدًا عن أنوارِ القرية– وقد قطعَ نصفَ المسافة– تعثّرت قدمُ الحمار القوي، وانكفأ هو وصاحبُه، طرح عمّي– وهو الشابّ الفتي– على الأرض، فكُسرت قدمُه تلك الليلة.. همّ بالرّكوب مرّةً أخرى لأنّ برودة الجوّ لم تشعره بالكسْر الموجود في قدمِه، وكلّما سار حمارُه بضعة أمتار تعثّر في مشيتِه حتى وصلَ مشارف القرية..

ولمّا رجع عمّي من مشواره كانت قدمُه تؤلِمُه، وبدا عليه الإعياءُ الشديد، سهر أبي قلقًا لتأخّره، حكى له الحكاية وقامَ والدي باللّازم لمُداواة قدمِه المكسورة، فقد كان لديه درايةٌ بالعلاج والمداواة..

وبعد أنِ استمع لمَا حدث معه، أوْصاه أن يقطع وحشةَ ليله بأورادٍ علّمه إيّاها، فهي المعطّلة لأفعال المَردة، والعفاريتُ لا يستطيعون معها سبيلًا.

ونحنُ كذلك يا ولدي، لدينا أورادُنا التي تعلّمناها مِن ديننا ومِن سنّة نبيّنا المختار، وورثناها بالتلقّي عن مشايخنا من الآباء والأجداد؛ وأنتَ- ولله الحمد- طلبتَ مني إحضار بعضِها لك.

أخذَ الشيخُ الوالدُ يعلّم فتاه، ويحفّظه بعضًا مِن تلك الأوراد والأحزاب التي يتّبعها عندما يمشي ليلَ نهار، سواء في القرية أو خارجها.

كان الشيخُ يريد مِن فتاه أن يتحلّى بالشجاعة والإقدام، وينفضَ عن عقله الصغيرِ وقلبِه النقيّ تلك الخيالاتِ والأوهامَ التي يسوقها العامّة في مجالس السمر، والتي لا دليلَ أو سند عليها، وما هي إلّا نوازعُ جبناء، وهزلُ الضعفاء من أصحاب الخيال الواسع والحسّ الفكاهي، خاصّة وأنّ الفتى مُقدمٌ على التردّد على بيت الأفندي، وذلك المتّسع الرّحب من الظلام والوحشة، موطن الحكايات، ومفرغ المجالس التي فاضت بالحديث عن شياطينه ومرَدَته العُتاة الذين اتّخذوا من هذا الفراغ سكنًا لهم، يهجعون إليه نهارًا، ثمّ يسرحون ليلًا في دروب القرية ونواصيها وأزقّتها يشاركون المارّة، ويتلاعبون بأصحاب القلوب الضعيفة الذين قتلتِ الحكاياتُ ما تبقّى من شجاعتهم مع هذا العالم الخرافي الموحِش.

مدّ الشيخ يدَه، وأخرج من جيبِه دفترًا مكسوًّا بالجلد الأحمر، ودفعه إلى ابنه، طالبًا منه البدء في القراءة..

همّ الفتى بالبدء في القراءةِ ولكنْ قاطعه والد قائلًا: هل تعلم ما هذا يا ولدي؟ هزّ الفتى رأسَه بالنفي، قال له: هذا الوردُ الذي وجدته مع جدّك الشيخ عوض عند تجريده مِن ملابسه ساعةَ غُسله وتكْفينه، وجدّك ورثَهُ عنْ أبيه، إنّه وردٌ عظيم، وسيفٌ صارم بتّار، يقرأه صاحبُ الحاجة، وطالبُ الرزق، وطالبُ الفهْم والعلم، وكذلك هو يحفظُ مَن يردّده مِن إيذاء الجنّ ومكْرِ الإنْس بإذن الله، إنّه شيء عظيم، وهو مِن المجرّبات التي عاينتها بنفسي، ولكنّ المهِمّ في الاعتقاد وإخلاصِ النّية.. وإنّي أظنّك جديرًا بحمْله، فحافظْ عليه ولا تترکْه أبدًا، ولا تهملْ قراءته ليلًا أو نهارًا.

قبّل الفتى عطيّةَ أبيه وسطَ ابتسامةٍ وغمزٍ من المجلس، الذين شعروا- مِن وقتها- بمكانةِ هذا الفتى الصغير، وأنه قد نالَ هذه الرّتبة والحظْوة العالية عند والدِه، وامتلك ميراثَ أجداده على عيْن أبيه، فالآن أصبح أعلى منهم رتبةً...

طلب الشيخُ من الحضور أنْ يذهب كلٌّ منهم إلى غرفة نومه؛ فقد حانَ وقتُ النوم.. وهو متعَب من سفره الطويل، وأيّام المولد الأحمدي التي لم ينَمْ طيلة نهارها وحتى في ليلِها.

مشى صاحبُنا إلى غرفةِ نومه التي يشاركه فيها ثلاثةٌ من إخوتِه الصّغار، استلقى الفتى على الحصير المفروش بجوار السرير النّحاسي الكبير الذي يتوسّط الغرفة، بدأ إخوتُه يغطّون في نوْمهم، وانتاب المكانَ سباتٌ عميق..

أمّا هو فقد ظلّ مُحتضنًا عطيّةَ أبيه يفتحُه بين الفينةِ والأخرى، يقرأ بعضَ أسطره على ضوءِ سهّارة من الكيروسين معلّقة على الحائط المقابل له، وهو يردّد في نفسه: أيُعقل أنْ يكون هذا الكتابُ الصغير سيفًا مسلّطًا على رقاب الشياطين والجنّ والمَرَدة الذين يتلاعبون بالنّاس في طرقات القرية بالليل!! إذًا، لقد امتلكتُ كنزًا ثمينًا، فلأحْرص عليه قدْرَ المُستطاع، لكنْ تُرى.. كمْ منْ هذه الكتب يمتلك الأفندي، وهو مَن يملك في بيتِه العزائم التي يسخّر بها مردتَهم، ويقهر سادتهم، ويضع يدَه على كنوزٍ لا حصر لها!؟ وبعد دقائق مِن التفكير والنّظر إلى الورد الأحمر.. أخيرًا غلبَه النوم ليسلمَ نفسه لسطوةِ عظيمٍ لا يستطيع معه الحِراك.

ترتيبٌ يفوق البَشَر..

كان تعلّق الفتى بالأفندي كبيرًا جدًّا، فلقدْ أضحى عنده بمنزلةِ المُلهم الذي يسعى إليه ليتعلّم منه الحياة، مثلَما يتعلّم في بيت والدِه الشيخ.. تعلّق الفتى به، ودعّم حديثُ والده الشيخِ هذا الارتباطَ وغذّاه بما قصّه عليه من أحاديثِ اللّيل الطويل عنْ أسرة الأفندي، وكيف كانت علاقتُه مع آبائه من رجالِ القرية الذين عاصروا أسرةَ الأفندي عند مقدِمِها للقرية.

كان والدُ الفتى يتلطّف مع ابنه في الحديث عنْ محاسن الأفندي، وأنّه رجلٌ طيّب القلب، مُستنير الفكر، واسعُ العلم، رحْبُ الثقافة، يحبّ الناس رغمَ عزلته شبْهِ الكاملة عنهم..

وزادَ مِن ارتباط الفتى بعالَمِ الأفندي السّحري حديثه عن أسرارِ بيته القديم، الذي امتلأت جدرانُه بالعديد من الألغاز والأسرار التي يجهلها أهلُ القرية جميعًا، وكيف أنّه وهو صبيّ كانت له رفقةٌ مع الأخ الأكبر للأفندي، ولكنّها لم تدُمْ فقد سافر لتلقّي العلم في البندر، وانقطعت الصّلة بينهما إلّا على فتراتٍ قصيرة مع مقدِمِ إجازة الصيف كلّ عام.

تحدّث الشيخ عن عالم الأفندي المَجْهول، وأفاضَ الحديثَ عنْ مكتبة الكتب العتيقةِ التي حوت نوادرَ المطبوعات، ونسخًا خطّيّة من مخطوطاتٍ

ونفائسَ من العلمِ ورثَها الأفندي مِن أجداده، لكنّها الآنَ حبيسةَ الصناديق، وبين أرففٍ من الخشب.. حسبَ ما يظنّ الوالد.

ولكنْ، هل يحتفظُ الأفندي بهذا الإرث حتى الآن؟ وهل لا تزالُ هذه الثّروة في عُهدة الأفندي كما يظنّ والدُه، أمْ بدّدها الزمن؟

بادر الفتى والدُه الشيخُ القول، ووجْهه يتلألأ بالأمْنيات أنّها لا تزال بالمكتبةِ موجودة؛ فقد رأيتُ الأفندي ذاتَ مرّة وهو يقرأ؟

هزّ الشيخ رأسَه، وهو يبتسم لابْنه لعلمِه بحالةِ الهيام التي تسيطر عليه، وتحفّزه الدخولَ إلى عالم الأفندي.

في صباح اليوم التالي، كان الجوّ صحوًّا بعضَ الشيء، توافد بعضُ نفرٍ من أهل القرية على دار الشيخ مُهنّئين إيّاه بسلامة العودة، كان الفتى قريبًا مِن باب الحجرة الرئيسة التي يستقبل فيه الوالدُ ضيوفَه ليقوم بواجبات الخدمة والضّيافة.

وبعد أنِ اسْتقرّ المجلس، طرق البابَ طارق، مناديًا بأعلى صوتِه طالبًا الإذنَ بالدخول.. يا الله! إنّه الأفندي. نعم، هو صاحبُ الهندام الجميل؛ المِعْطف الصوف الأسود الطويل، والجلباب الأزرق، والعصا الأنيق، والطربوش الأحمر الذي يحتفظ به مُعتنيًا به لزومَ الوجاهة.

هُرِع الفتى يفتحُ الباب، سلّم الأفندي عليه، ردّ الفتى التحية في أدبٍ محيِّيًا مقدمَه السعيد، تتسارع خطاه تسبق الأفندي إلى بابِ الحجرة التي استقرّ بها المجلس، رحّب الضيوف بالأفندي، سلّم على الشيخ متّخذًا مكانَه، رحّب الشيخ شاكرًا له هذه الزيارةَ هامسًا في أذنه بصوتٍ يملؤه الودّ: لقد دعوتُ لك في المقام الأحمدي. سُرّ وجْهُ الأفندي بهذا الحديث، وتنهّد تنهيدةً سمعها مَن في المجلس جميعًا، وكلّ واحدٍ منهم لسانُ حاله يردّد: تُرى.. ما سرّ نجوى الاثنين؟ ماذا أسرّ الشيخُ للأفندي؟!

أطرق الأفندي قليلًا، ثمّ قال: أتدري يا شيخُ إبراهيم، كمْ سنة مرّت على آخر زيارةٍ لي للسيد؟ عشرونَ سنةً كاملة، إيه ما أجملَها مِن ذكريات. ورغمَ مضَضِ ترك المكان.. أسرع الفتى ليحضر أكوابَ الشاي للضيوف، حملَ بين يديه صينيةً كبيرة عليها أكوابٌ من الزّجاج، وطبقٌ من النعناع الأخضر الجميل؛ فلم يغبْ عن باله أنّ الأفندي يحبّ النّعناع.

بدأ القوم في حكاياتهم المعتادة، دار الحديث عن أمورٍ حياتيّة مِن واقع القرية ومشاكل الفلاح، هذا يتحدّث عن أزمةِ الرّي وانقطاع المياه عن المحاصيل لفترات طويلة، وثانٍ أخذ الحديثَ جانبًا في أزمةِ السّماد ودور الجمعية الزراعية، وتلاعب التجار وجشع الخواجة "ملاك" في التّعامل بالربا مع الفلاحين، وثالثٌ حثّ القوم على جمْع توكيلاتٍ وتوقيعات لعمل شكاوى والذّهاب بها إلى المديرية لبناءِ مدرسةٍ تخدمُ أهلَ القرية، بدلًا عن الذهاب إلى

القرى المجاورة مُستعرضًا المتاعبَ والأهوال التي يتعرّض لها أبناءُ القرية... استحسنَ الحضور هذه الفكرةَ على أنْ يكلَّف الأفندي كتابةَ هذا الطلب، فهو يحتاج إلى شخصٍ متعلّم، وعلى درايةٍ بلغة المراسيم الحكوميّة، وعلى اطّلاع بمثل هذه المَضامين الحكومية من المُخاطبات.. استوى الأفندي في جِلسته، وهزّ عصاه في يديه.. مُبتلعًا ريقَه قائلًا بكلّ ثقةٍ: يقدّر اللهُ الخير، نفعل إنْ شاء الله. ثمّ دارت بعدَ ذلك أحاديثُ جانبية بين جماعات القوم.

خلا الشيخُ بالأفندي في حديثٍ باسم اطمأنّ فيه الأفندي على الشيخ، واستفسرَ منْه عن أحوال طنطا، والمشهدِ الأحمدي؛ فهو لم يزُرْ هذه الرّحاب منذُ زمن طويل، أشار الشيخُ إلى ابنه ليقترب مِنهما، تابعت عينُ الأفندي الصبيّ وهو مُقبلٌ عليهما يمشي على اسْتحياء، قد عَلَا وجنتيْه الخجل، وخالط وجهَه شيءٌ من الأدب وهدوءِ الطّبع. جلس بجانب والده، وأثنَى الأفندي على الفتى خيرًا؛ فهو فتى مُطيع، مُبديًا إعجابَه من تفوّقه الدراسي وتحصيله العلمي واجتهادِه في دروسه، وقد تمنّى له مستقبلًا زاهرًا. وبعد انصرافِ الفتي طلب– في همسٍ– من والده أنْ يعتني به؛ فإنّ المستقبل ينبئ له بأمورٍ تسرّ خاطره.

نظر الشيخُ إلى ابنه وابتسم، وقد ارتسمتْ على وجْهه علاماتُ الرّضا. نالتْ كلماتُ الأفندي، والتي صحبتْها عباراتُ الثناء محلّها من القبول في نفس الشيخ، واطمأنّ لذهاب الفتى هناك.. فمِن الآن عُدّ مِن أصحاب الحظْوة والقبول لدى الأفندي؛ فقد زكّاه في مجلس الشيخ.

وفي خضمّ الحديث، طلب الشيخُ من الأفندي أنْ يأذن لابْنه بزيارتِه بين الحين والآخر للاطْمئنان عليه، وقضاءِ بعض حاجاته، والسؤالِ عنه؛ فهُمْ جيرانٌ، ومِن واجبات الجيرة وصلُ الجارِ لجاره.. امتنّ الأفندي للشيخِ وأسرته هذا الشعورَ الطيب، مذكّرًا إيّاه بأيّام الصّبا وما كان بين والديْهما من محبّة وأخوّة وحسنِ جِوار.

همّ الأفندي مُستأذنًا، نشطَ الفتى من مكانه مُسرعًا يفتح البابَ له بكلّ همّة ونشاط، وقبْلَ أن يخرج الأفندي من باب المنزل حيّا الفتى الصغير، شاكرًا له إكرامَه وحسنَ اسْتقباله.. ردّ عليه الفتى التحيّة، وبعد أن اسْتدار الأفندي شيّعه بنظرةٍ طويلة امتدّت حتى دخل الأفندي من بوّابة بيته العالية. اطمئنّ الفتى لدخول الأفندي بيتَه، ليعود أدراجَه إلى مكانه بمجلس الشيخ الوالدِ يتابعُ– عن قرب– أحاديثَ القرية في حجرِ الشّيخ الحاني.

لاحظ الشيخ على فتاه قليلًا من الحيْرة والاضطراب، كان حالُه مختلفًا عن ذي قبْل، فها هو يفركُ– بسرعة– يديْه مرّات مُتتالية، يقضمُ أظافره مرّة أخرى، يزيغ بصرُه ثانية، قدِ ارْتسمت على حاجبيه خطوطُ القلق ليستقرّ أخيرًا بصرُه على والده. دعا الشيخُ ابنَه ليقترب، ضمّه إليه بعد أنْ قبّل جبينَه ليشعرَه بالاطمئنان قائلًا له: ما لَكَ يا بني؟!

سكتَ الصبي لحظات، ثمّ قال له: لا شيء يا والدي.

فطِنَ الشيخ لُمراد الصغير، لقد كان أمرُ الذهاب إلى بيت الأفندي يجولُ بخاطره، ولكنّه يستحي مِن والده، أدرك الشيخُ ذلك، ولكنّه لم يشأ أنْ يفاتح الصغير في الأمر، ويعلنه بنيّته.

نظرَ الشيخ في عيني ابْنه، وقد وضعَ يدَه على كتفه، وفي حنوٍّ قال له: اعلمْ يا بني أنّ مجالسةَ الرجال والشيوخ تختلف عن مُجالسة الصّبية والفتيان؛ فللرّجال آدابٌ، ولمجالستهم هيبةٌ ووقارٌ لا يقدرُ عليها إلّا مَن أوتي حظّه من الأدب ونصيبَه من التّربية، وأنتَ- والحمد لله- قد نشأتَ بين جدرانِ هذا البيت، فكان لك أوفرُ الحظّ والنصيب من التربية والأدب، يا بني.. إنِّي أعِدّك للأيام، ولخدمةِ الناس كما أعدّني جدُّك لهذا الأمر الجلَل، فاحرصْ على حُسن المعاشرة وأدبِ المخالطة، وأمانةِ المجلس، وضعْ نصبَ عينيك أنّك مِن بيت علمٍ وفضلٍ وأدب، ولك إرثٌ في الفضل، ومِن محبّة الناس.

قبّل الفتى الصغير يدَ والده ليطلب الإذنَ بعد ذلك منه في المرور على الأفندي، وافق الشيخُ من فوْره شريطةَ أن يعودَ بسرعة ولا يتأخّر.

حيّا الفتى والدَه وانصرف مسرعًا، يقفزُ في الهواء كالعصفور الصغير، لا تحملُه أقدامه، يكاد يطيرُ فرحًا وشوقًا وترقّبًا، فها هي الأيّام قد أذنتْ له- لأوّل مرّة- فأعطته سؤلَه، ووافاه حظّه أنْ يصبح مِن جلساء الأفندي، ومِن قصّاد واحتِه المجهولة، يطرق مسالكها؛ علّه يكون من مكتشفي كنوزها، ويحوزُ مفاتيح خزائن أسرار البيت العتيق.

وقف الفتى لحظاتٍ أمام المرآة يهندمُ نفسَه، تناول زجاجةً من العِطر، رشّ على ثيابه بعضَ قطرات منها.. احتذى نعلَه الجديد، ثمّ أمسك قلمًا ووضعَه في جيبه الصغير، مشى الفتى في خطواتٍ مُتأنّية تدفعُه عواطفه وأشواقه دفعًا، سار به الشوقُ وسار معَه.. بدتِ المسافة من بيتِهم إلى بيت الأفندي كألفِ ميل.. ما أصعبَ اللقاء الأوّل وما أمرّه!!

انتظرَ الفتى خارجَ منزل الأفندي يستجمعُ نفسَه ويرتبُ أوْلويّات الزيارة.. وأمامَ الباب الخشبي الكبير، أخذ الفتى نفسًا عميقًا، وأخرج زفيرَه، وجبينُه يتصبّب عرقًا وكأنّه يسبح في بحرٍ ليس له شاطئ، وأخيرًا وصلَ مُنتهاه. طرقَ الباب طرقاتٍ متتاليةً خفيفةً، ولحُسن المُصادفة كان الأفندي يديرُ طلمبة المياه الموجودة بالحديقة الأمامية من المنزل.. إنّه الوقت الذي خصّصه الأفندي لريّ المزروعات والشّتلات في الحديقة، تأكّد الأفندي من طرقات الباب أنّ القادمَ جارُهم الصغير، فتح له البابَ بكلّ ترحابٍ وودّ، ألقى التحيّة المعتادة على الأفندي، بعد أنْ أذنَ له بالدّخول.. يا لهوْل المفاجأة! حرّك بصره في المكان وكأنّما يراه للمرّة الأولى، شعرَ وكأنّه طائرٌ صغير قد خرج من عشّ أبويه لأوّل مرّة يستطلع المكان.. أليس ذلك هو المكان بعينه الذي طالعته مئاتِ المرّات من أعلى منزلنا؟!! أليسَ هو المكان الذي عاينَ بعضَه من يومٍ واحدٍ!! ولكنّ هذه المرّة المشاهدةُ عن قربٍ ولمْس أرضيّته، وتحسّس جدرانِه؛ لها مذاقٌ لا يقاوَم، طلب الفتى أن يساعدَ الأفندي في

عمله، شكرَ له الأفندي هذا التطوّع؛ فهو لا يريد أن يتعِبَ ضيفَه الصغير، خاصّة وأنّها المرّة الأولى التي يأتي إلى بيته زائرًا بلا ترتيبٍ مُسبق، ولكنّ الفتى ألحّ عليه في الطلب عارضًا خدماتِه فهو يستطيع أن يجدَ له دورًا في ريّ هذا المكان، فما المانع أن يجرّب مثلًا إدارةَ طلمبة المياه؟ وأمامَ إلحاح الصبيّ قبِلَ الأفندي.

بدأ صاحبنا عملَه بكلّ همّة ونشاط، يحاول أنْ يقدّم للأفندي عربونَ صداقةٍ جديد، يدفعُ به- باعتباره الطرفَ الأوّل- ما عليه في اتّفاق ودّ يدوم إلى ما شاء اللهُ له أنْ يدوم. امتلأت قنواتُ الحديقة ومجاريها الضيّقة بالماء الذي عمّ المكان، وهنا أشارَ الأفندي عليه بالتوقّف؛ فهذا القدرُ يكفي للريّ، وعليه أن يستريح.

كان الأفندي قد بدأ يغرسُ على جانبي المكان بعضَ شتْلات صغيرة.. سأل الفتى عنها قائلًا: ما هذه الشّتلات يا أفندي؟!

أجابه الأفندي: إنّها شتلات الفلفل والباذنجان جلبتُها من المشتل اليوم.

أشار الأفندي عليه أنْ يشاركه عمليّة الغرس، همّ الفتى مسرورًا فرحًا، فهذه بدايةٌ مبشّرة وتدريبٌ جيّد آخر يحاول أن يُثبت مِن خلاله للأفندي مدى الألفة به، وتجربة مفاجئة يتكشّف منها الأفندي عن قُرب..

انتهى الغرس، طلب الأفندي من الصّبي أن يذهب ناحيةَ المقعد الموجود بصالةِ المنزل تفاديًا لبرودة الجوّ، وأنْ ينتظره حتى يعود.

ذهب الفتى وجلسَ في مكانه.. لمْ يحرّك ساكنًا، لكنّه- وبعد أن طالَ به المقام- رفع رأسَه ناحية السقف العالي في البهْو الأمامي من الصالة، أعجبَ الفتى دقّةُ تصميمه.. سقفٌ ارتفع لدرجةٍ أذهلته، اجتمعت فيه كمّيات كبيرة من الألواحِ الخشبية القديمة كبيرة الحجم، إلى جانب مدّادات خشبية ضخمة، وفواصلَ وقواطع كبيرة جدًّا، لم يرَ مثيلًا لها بهذا الحجْم. شرع الفتى في عدّ هذه الألواح.. دفعه فضولُه أن يركّز نظرَه أكثرَ؛ علّه ينجح في العدّ، أجهدَ ذهنَه أكثر، إلّا أنّ صوت الأفندي القادم من الخارج قطعَ عليه تركيزَه؛ فها هو يعاودُ التّرحيب به مجدّدًا. استأذن منه لحظاتٍ يغيّر فيها ملابسَه التي ابتلّت أثناء الري، دخل الأفندي حجرةً جانبيّة، وأغلق عليه بابَها من الداخل، إنّها فرصةٌ مِثالية ليستكملَ الفتى العدّ، عاود من جديد يمرّر بصرَه على أخشاب سقفِ الصالة، إلّا أنّه توقّف فجأة؛ ففي المكان ما هو أوْلى بالمشاهدة، فكلّ مُحتويات المكان المُتناثرة مِن حوله تثير فيه الاهتمام؛ هذه الساعةُ الخشبيّة الكبيرة التي ثبّتت بإحْكام في الحائط الغربي، وهذه اللّوحةُ المصْنوعة مِن القماش المصبوغ بألوانها الجميلة الزّاهية، وأخرى رُسمَت بأعواد القمح على ما يبدو، وبجوارها صورةٌ كبيرة فيما يبدو أنّها قديمة فهي لأناسٍ يلبسون لباسًا من الماضي، وقدْ وضع مَن في الصورة مِن الرجال فوق رؤوسهم الطربوشَ الأحمر الجميل.

وعلى مدّ البصر، تناثرتْ في المكان طاولاتٌ خشبية صغيرةٌ تحمل أواني مِن الخزف وأخرى من الخشب، وجِفانٍ من الزجاج الملوّن، وهذه سجّادة طويلة ذاتُ نقوش مُزركشة اللّون قد تمدّدت وسط أرضية الصالة، وعند طرفها استقرّت مائدةٌ كبيرة من الخشب ذاتُ طلاء بنيّ، التفّ حولها ستّةُ مقاعد أنيقة من الخيزران..

وفي مدخل الصالة، ثُبّتتْ مرآة دائريةٌ كبيرة، يحفّها إطارٌ من الخشب الملوّن، يتوسّط الصالة ممرٌّ طويل ممتدٌّ نحو الجنوب، لكنّه مُظلمٌ بعضَ الشيء، ويفتح في الصالة عددٌ مِن الحجرات؛ منها الغرفة التي دخلَها الأفندي.

استوى الفتى في جِلسته على الكنبة المتصدّرة للصالة التي لازمَها منذُ وقتٍ ليس بالقصير، بدأ يتحسّس فرشَها، ويقلّب في وسائدها، حرّك قدمه في الهواء، ثمّ أخذ نفسًا عميقًا، وأخرجه متقطّعًا.

مدّ الفتى بصرَه ثانيةً ناحيةَ الجدار المقابل، تعلّق بصرُه بكتابٍ قديم كبير الحجمِ وضِعَ على طاولة منتصف الصالة، وبجواره قلمٌ وورقةٌ بيضاء، تحرّك ناحية الكتاب، وبدأ يقلّب صفحاتِه الصفراء. كان الفتى منتشيًا، وقد بدتْ على ملامحِه الصغيرة أماراتُ الفرح والسرور؛ فهذا الكتاب أوّلُ الغيث، إنّه بوادرُ الوصْل بينه وبين العالم المسحورِ الذي ارتضى أن يدخل إليه راضيًا مُقتنعًا.

ما إنْ فتح الكتاب حتى عاودته الأسئلة من جديدٍ.. وبدأ- رغماً عنه- صراع داخليّ.. هل الأفندي يملك كنزًا كبيرًا داخل هذا البيت كما يقول النّاس؟ وهل الأفندي على صلةٍ بالجان والمَرَدة يسخّرهم لخدمته؟ وهل يمتلك مِن الطلاسم ومِن القوى والمَلَكات ما يؤهّله لذلك؟ وأين هذه الكتب التي يستعينُ بها الأفندي في حيلِه لتحضير هذه المخلوقات؟...

كدّ الصبيّ ذهنَه مِن التفكير يحاول أن يجدَ إجاباتٍ مُقنعةً لما يدور في رأسه.

عادَ ثانية إلى الكتاب يقلّبُه بين يديه باهتمام؛ علّه يظفر بهذا الطّلسم السّحري الذي يجلب له الحظّ، ويمكّنه من فكّ أسرارِ ورموز هذا المكان المكتظّ بالغموض.

خرج الأفندي من غرفتِه، ولاحظَ على الفتى شغفَه الشديد بالكتاب، هزّ رأسَه هزّات خفيفة راضيًا هذا الصّنيع. بدأ الأفندي يطرحُ عليه بعضَ الأسئلة التي قد تساعده- فيما بعد- في اكتشاف ميول الفتى واهتماماتِه، ومِن ثمّ تتّضح له جوانبُ شخصيته، ويدرك قدراتِه، قال الأفندي دفعةً واحدة:

- هل أعجبك هذا الكتاب؟

ردّ الفتى: طبعًا أعجبني، فهو كتابٌ في الأدب العربي.

- هل تحبّ القراءة؟ وكمْ تقرأ في اليوم؟ ولِمَن تحبّ أن تقرأ؟

لاحظَ الفتى من تدافعِ أسئلة الأفندي أنّه بدا وكأنّه يودّ الاقتراب منه، ولكنّه يمارس ذلك بحذرٍ شديد، وأنّ إجاباته المقتضبة تتوافق مع هواه..

أخذ الفتى يقرأ بصوتٍ عالٍ في نبرةٍ واضحة، وقراءةٍ سليمة خاليةٍ من الأخطاء، متفاعلًا مع بعض الأبيات الشعريّة، وقد تأثّر بمضمونها فيما يبدو، فهو يشير بيدِه تارة، ويغيّر نبرةَ صوته تارةً أخرى.

أعجِب الأفندي بالفتى بقراءةِ أيّما إعجاب، لقد استطاع الصغيرُ إبْهارَ الأفندي بعد أنْ زالت عنه رهبةُ المكان، وكأنّه يألفه طوالَ حياته.

طلب الأفندي مِن الصغير أن يستمرّ في قراءته، جرّ كرسيّه الخيزران الأصفر ناحيةَ الفتى، ثمّ جلس مشدودَ النّظر إليه، يهزّ رأسه متأثرًا بإلقاء الصبي.. تقمّص الفتى دورَه وكأنّه يؤدّي وصْلَته الأولى بمهارةٍ واقتدار أمامَ الأفندي. حرص أن تكونَ نسبةُ النجاح مائةً بالمائة.. كان الفتى ذكيًّا، فقد استرجعَ لوقته أحاديثَ والده أنّ الأفندي محبٌّ للقراءة، شغوفٌ بالأدب؛ شعرِه ونثْره.. مطّلعًا على كتبِ التراث بالجُملة.

وكأنّ الصبي هو مَن أعاد اكتشافَ الأفندي مِن جديد، جرّه تجاهه برغبتِه، فهو مؤشّره الوحيد الذي يستطيع مِن خلالِه قراءة معدّل القبول والرّضا تجاهه، كانت الأمورُ تجري وفقَ مُراده، ولمْ يكنْ يدرِ حينها أنّها على هوى الأفندي أيضًا...

يبدو أنّ الأفندي- هو الآخر- قدْ راهن على ذكاءِ وفِطنة هذا الفتى الصّغير، وأنّ ما أشيعَ عنْه من قصص سمعها في طرقاتِ القرية تتحدّث عنْ نبوغه وفراستِه وسعةِ اطّلاعه كانت حقيقةً.. كيف لا وهو مِن أسرةٍ عريقة قد اتّصفت بالفضل والعلم والحكمة والنّزاهة والشّرف، ورث فتاها عن أجدادِه هذه السّمات الطيّبة، فكان خيرَ خلفٍ لخير سلف.

طلب الأفندي مِن الفتى أن يتوقّف عند هذا الحدّ، مُثنيًا على قراءته وأدائه الرّائع. انشرح صدرُ الفتى مِن عبارات المدْح الجميل التي قالها الأفندي.. شعر بأنّ اختبار القبول قد اجتازَه بتفوّق ونجاح.

دخل الأفندي إلى حجرةٍ صغيرة، يُفتح بابُها في نهاية الصّالة، وقد غاب لبعضِ الوقت، ليعود حاملًا بين يديه صينيتَه النحاسيّة الأنيقة، وعليها أكوابُ الشاي، وبعضُ أعوادِ النّعناع الأخضر الجميل.

أدركَ الفتى مِن حماس الأفندي، وتتابعِ خطواته أنّه حازَ رضاه، ووجدَ عنده الحظْوة. تقدّم الفتى مسرعًا ناحيةَ الأفندي يحاول أنْ يحمل عنه الصينيّة، لكنّ الأفندي اعتذر له مُتعلّلًا بأنّه ضيفُه، وخدمتُه واجبة، وأنّه معتادٌ على مثل هذه الأمور بحُكْم حياته الخاصّة؛ فلا غضاضة فيها.

وضع الأفندي الصينيّةَ فوق الطاولة الصغيرة، وجلس بعد أنّ هيّأ الصغير كرسيًّا بمحاذاة كرسي الأفندي. جلس الاثنان وكلٌّ منهما يبدي لصاحبه رضاه التّام وقبولَه لأنْ يكون رفيقَه وسميرَه.

بدأ الأفندي في صبّ الشاي من الإبريقِ الأبيض، وفتاهُ يقلّب بملعقتِه السّكر داخلَ أكواب الشاي، وهو يختلس النظرةَ تلْو الأخرى، يحاول أنْ يطمئنّ لبقاء ابتسامة الأفندي. هزّ الأفندي رأسَه مُعاودًا التّرحاب بضيفه العزيز، والفتى يرشفُ رشفاتٍ خفيفةً مُتتابعة من كوبِه، فمِن حقّه أن يفخر بهذا الإنْجاز، فسوف يعودُ بعد قليل يزفّ لوالده بُشرى القبول، حاملًا تصريحًا بالدّخول إلى عالم الأفندي، ولكنْ هذه المرّةَ مِن أوْسع أبوابه.

في مجْلسِ الشيخِ الوالد

تتابعتْ أنفاسُه تسبق خطواتِه، يكاد يطيرُ في الهواء، اقتربَ مِن الدّار، لمحَ بعضَ الدّواب وقد ربطت على مقربةٍ مِن شجرةِ الجمّيز الكبيرة الملاصقة لنافذةِ غرفته، لم يعبأ لِمَن تكون..

دخل مُسرعًا مِن باب البيت، يحاول أن يستجمعَ كلماتِه قبْل أن تتبخّر مِن رأسه، يرتّب فيها ويؤلّف بينها، يزفّها على مسامع والده. تنبّه لوجود بعضِ الأصوات الغريبة داخل غرفة المقْعد الكبير الذي تُستقبَلُ فيه الضيوف.

لمح أثناء مرورِه السريع ناحيةَ الباب والدَه الشيخ يتوسّط الجالسين، ومعه بعضُ نفرٍ تبدو عليهم ملامحُ الغضب والثّورة، إلّا أنّ الشيخ يطيّب خاطرهم، ويعدُهم بحلّ هذا الموضوع في أقربِ وقت، والقوم بين غاضبٍ وموْتور.. وبعد طولِ مُداولة اتّفق المجتمعون على معاودة اللّقاء مرّة ثانية.

همّ الحضورُ بالانصراف، وعند خروجهم من باب الغرفة، التصقَ صاحبُنا جانبَ الحائط المقابل لواجهة الباب، يستعلم هويّة القوم، فيما يبدو أنّهم ليسوا مِن أبناء القرية.

أمسك الشيخ بعصاه، وخرج من باب البيت في وداعِ القوم، وعند البوّابة الرئيسةِ للمنزل، أصرّ القوم أن يكتفي بهذا الحدّ ويعود للداخل، إلّا أنّه قد

سبقَهم إلى الخارج. ركب الغرباءُ دوابّهم، وانطلقوا وسطَ تلويح الشيخ بالسلام، وتطْميناته بقضاءِ حاجتهم، على أنْ يعاودوا الزّيارة قريبًا.

خرج الفتى في إثْر والده ناحيةَ الباب، وبعد أنْ غاب القوم عن الأنظار عادَ الشيخ وولدُه إلى داخل الدار، والشيخ تبدو عليه بقايا مِن التّعب ليعاود التفكير من جديد.

بادر الصبي والدَه بالسؤال: مَن هؤلاء يا أبي؟

لم يتلقّ إجابةً من والده الشيخ، فالشيخُ لا يزال أسيرَ فكْرِه وشرودِه المتواصل، حرّك الشيخ يدَه مرّات متتالية، ظهرَ وكأنّه يؤشّر إلى شخصٍ أمامه، خرجت من فمِه بضعُ كلماتٍ غير مفهومةٍ للصبي، إلّا أنّه استوثق من كلمةٍ واحدة، "ازّاي"؟!! والشيخ غارقٌ في تأمّله.. دخلت زوجته الغرفة، سألته في عُجالة: ما الأمْر؟

ردّ عليها الشيخ بأنّ الأمرَ جدٌّ كارثيّ وخطير؛ فالقومُ جاؤوا من بلدةٍ مُجاورة لقريتهم، وقد سطا عليهم أبناءُ اللّيل وسرقوا مَزروعاتهم بعد أنْ نضج المحصول.. وبعد التقصّي تبيّنوا أمرَهم، واتّضح أنّ مِن بين اللصوص نفرًا مِن أهل القرية الذين اعتادوا سرقةَ المزروعات.

صكّت الزوجة صدرَها، بعد أنْ فتحت عينيها في ذهول وحيْرة، كيف ذلك! فأهلُ قريتنا من أطيبِ النّاس، والقرية لم تعتَدْ مثلَ هذا الصّنف من

المجرمين، كما أنّ أحوال الناس ومعايشهم لا تسمحُ بهذا الإجرام الذي لم نعهدْه مِن قبل، لا بدّ أنّ في الموضوع لبسًا أو ما شابه..

قاطعها الشيخُ بأنّ الموضوع حقيقي، فقد استعلمَ مِن بعض عيونِه بالقرية عنِ الحقيقة، وهو بصددِ إحضار هؤلاء النّفر واستجوابِهم ومعرفةِ القصّة بكاملها منْهم.

وبعد ساعة، طرق الباب.. خرج الفتى مسرعًا ليفتح الباب، سأل الطارقُ عن الشيخ طالبًا منه الإذنَ بالدخول، أخبر الفتى والدَه بحضور القوم..

دخل الجميعُ غرفةَ الشيخ الذي أكمل ارتداءَ ملابسه، وأخذ مكانَه في صدارةِ المجلس، وعيناه تقدح بالشّرر، وبيده مسبحتُه الطويلة، والتي كانت تخفي توترَه وعصبيّته التي بدتْ ظاهرة في حركات التّسبيح، والسرعةِ في تمرير حبّاتها بين يديه، وصوتِها المسموع من احْتكاك حبّاتها المَمرّرة بعُجالة. بات جميعُ مَن في البيت على دِرايةٍ بحال الشيخ، وأنّها علامة من علاماتِ غضبه.

بادر الشيخُ مِن فوْره بإلقاء اللّوم على بعضِ مَن حضر مِن القوم موبّخًا إيّاهم على هذا التصرّف المُشين، مذكّرًا بمآثر أجدادهم ووالديهم الذين كانوا مثالًا للشّرف والنزاهة وطهارةِ اليد، وأنّ أفعالًا كهذه لا يمكن أن تُحسَب على أهل القرية الطيّبين..

مِن البداية، لم ينكر أحدٌ منهم التّهمة التي أضحت حديثَ القرية، ولمْ يتنكّروا لفعْلتهم تلك، بل نكّسوا رؤوسهم، وبدأت حالةٌ من الصمت الطويل تعمّ المكان. نظرَ الشيخ إليهم، وقد بدتْ عليه علاماتُ الاندهاش قائلًا لهم:

- مَن كان وراء هذه السّرقة؟ ومَن المحرّض لكم؟

وقبلَ أن يجيب أحدُهم على الشيخ، استكمل قولَه:

- أين المسروقات؟!

ردّ القوم بصوتٍ واحد، وقد أفصَحوا للشيخ عن أسماء بعضِ الأشقياء الذين شاركوهم هذا السّطو، مُتقاسمين الغنيمة..

كان الشيخ يستمعُ إلى كلامهم وهو في امْتعاض شديد.. ألهذا الحدّ وصلَ الفسادُ بالعباد.. نادبًا حظّه العَثِر الذي أوْصله حتى يرى بعينه أبناءَ قريته في عِداد اللّصوص.

نكّسَ الشيخ رأسَه في الأرض، صمتَ للَحظات.. ثمّ رفعَ وجهَه تجاه القوم، وقال بلهجةٍ حاسمةٍ تبدو عليها أماراتُ الغضب والحزم: هذه المسروقاتُ لا بدّ أنْ ترجع إلى أصحابها بأيّة طريقة كانت.

نظر القومُ فيما بينهم، ولسانُ حالهم يقول: ولكنْ، كيف ذلك؟!

استدعى الشيخُ ابنَه الصغير، حضر الفتى، أسرّ إليه ببعضِ كلماتٍ في أذنه، ثمّ خرج يعدو مُسرعًا خارج الغرفة، ليغيب برهةً من الوقت، ويعود يحملُ بين يديه صرّةً دفعَ بها إلى والده الشيخ. أخذَ الشيخُ الصّرّة، فتحها فإذا هي أوراقُ نقديّة من فئة العشرةِ جنيهات، عرض الشيخ على الحضور حلًّا لهذه المُعْضلة التي أوقعت أهلَ القرية جميعًا في مأزق، وجلبت عليهم العارَ والشّؤمَ بين أبناء القرى المجاورة في الزّمام كلّه.

تكفّل الشيخ بدفعِ قيمة مسروقاتِهم، على أنْ يأخذ عليهم المواثيقَ والضّمانات اللازمة، وبشهادة الشهود الموجودين بالمجلس. وافق القومُ بعد أنْ أبدوا ندمَهم على هذه الفعْلة المُشينة، وأنّهم لن يعودوا إليها ثانية.

أخرج الشيخُ من تحت مسندِه حافظةَ أوراق بيضاء وقلمًا، وبدأ يخطّ بيدِه، وبعد أن انْتهى قرأ على الحضور صيغةَ التعهّد، ثمّ طلب من الحضور التوقيعَ على محتواها الذي وافقوا- دونَ تردّد- عليه.

أخبر الشيخُ الحضورَ أنّ يوم الجمعة القادم موعدُهم جميعًا مِن بعد صلاة الظّهر لحضور مجلسٍ عامّ يجمعهم وأصحابِ السّرقات لإتمام إجراءات الصّلح والعفو، وتصفيةِ هذا الإشْكال، والتّعهّد بعدم الرجوع إليه. وافق القومُ طالبين الإذنَ بالانصراف، شيّعهم الشيخ- بنظراتِ السّخط والاشْمئزاز- حتى خرجوا رافعًا يدَه إلى السّماء أنْ يتمّ هذا الأمرُ على خيرٍ حتى النهاية، وأنْ يغلق هذا الباب الذي لن يجني مِن ورائه أهلُ القرية سوى العار، ويجرّ عليهم ويلاتِ الخراب.

أسند الشيخ رأسَه وهو يمرّر يدَه بسرعة على جبهته، مستغفرًا الله مستعيذًا به مِن الشيطان الرجيم..

عاد الفتى مرّةً أخرى إلى مجلس الشيخ الوالد، ولكنْ هذه المرّة دونَ أنْ يتكلّم، انتبَه إليه والدُه، مدّ إليه يدَه مُحتضنًا إيّاه مقبّلًا وجنتيه وجبينَه. نظر الشيخُ إليه وقال له بنبرةٍ يملؤها الحماس: يا بني، إنّ أغلى ما يملكه الإنسان منّا في حياته هو شرفُه وعرضه ودينُه، ولقد عشنا بين الناس منذ قديمِ الزمان مُتمسكين بهذه المبادئ، فلم نحِدْ عنها طيلةَ حياتنا، فاحترمَنا الناس وأجَلّنا الصغيرُ منهم قبلَ الكبير، فإيّاك أن تحيدَ عن الطريق، إنّني أوصيك يا بنيّ بوصيتي هذه فلعلّي لا أوصيك أخرى.

قبّل الفتى يدَ أبيه متمنيًا له طولَ العمر والسلامة من كلّ شرّ.

دخلت الزوجةُ عليهما وهي تحملُ بين يديها صينيّةَ العشاء فقد تأخّر الوقت، وانشغل الشيخُ بضيوفه ونسي عشاءه، سأل الشيخُ عن بقيّة الأبناء، ردّت عليه الزوجة بأنّهم تناولوا عشاءهم، وخلدوا إلى النوم مبكرًا.

تحلّق ثلاثتُهم حول عشائهم، وبعد أن فرغوا منه سأل الشيخُ ابنَه عن أحواله مُستفسرًا عن آخر أخباره مع الأفندي، وهل هناك مِن جديد؟!

ردّ عليه الفتى بما دار بينه وبين الأفندي اليوم، سُرّ الشيخ كثيرًا وقد انفرجت أساريرُه وهو يسمعُ هذه الأخبار، أوضحَ لابنه أنّ سببَ موافقته

من البداية أنْ يتردّد على منزل الأفندي ثقتُه في قلب الأفندي ومراعاته لأدبِ الجيرة، وصيانته العهد الذي بينهم، وأنّه لن يبخلَ على ابنه بما ينفعه.

كان الشيخُ يعلم شغفَ ابنه بالكتب والمطالعة وحبّ اقتنائها.. وفي أثناء حديثهما، وعدَ الشيخُ أن يصطحبه معه عندَ زيارته إلى المدينة، ووعده أن يشتريَ له بعض الكتب والتي ستكون نواةَ مكتبتِه الخاصّة إن شاء الله. سُرّ الفتى بهذا الخبر، وقبّل يدَ أبيه ورأسَه.. وبين فرحِ الابن وسعادة الأمّ، ذكّر الشيخُ ابنَه بضرورة أنْ يتخلّق بأحسن الأخلاق وأطيبها، وأن يكون في عوْن الأفندي وخدمته قدرَ المُستطاع، وأن يستفيدَ من وجوده بقربه.. وعدَ الفتى والدَه بأن يكونَ عند حُسن ظنّه.

وبعد تناول الشاي، ذهب إلى غرفته، ليغيب الجميعُ في نومٍ عميق، ولم يستيقظ في المكان إلّا الدّيكة، والقطط التي تنتقل بين الأسطحِ باحثةً عن بقايا أكل أو فضْلَة طعام.

كهْف الأسْرار

غاص الفتى في مرقدِه، فقد هدأت نفسُه، واستقرّت روحُه، واطمأنّ؛ فكلّ ما رتّب له يجري وفْق مراده، وها هو الآن أصبح نديمَ الأفندي والأقربَ إليه، خاصّة وأنها تتلاقى مع رغبةِ والده الذي يرعى هذا القُربَ ويشهد عليه، ويحثّ الفتى أن يزدادَ قربًا للأفندي. أغمض الفتى عينيَه كلّما سمع دَبيبًا بالبيت مَخافةَ أن يوقظه شيءٌ من أحلامه التي استغرقَ فيها، احتضن وسادتَه، والتَحفَ بلحافه، برَمَ نفسَه برمًا مُحكمًا، حتى ظهرَ وكأنّه لن يستيقظَ من سُباته مرّة أخرى.

استجابَ الفتى- أخيرًا- لحرارة الشمس التي اخترقتْ أشعتُها نافذةَ غرفته، فهي الوحيدةُ القادرة على جعله يتحرّك من مكانه. جلس الفتى وهو ينصتُ باهتمامٍ يستطلعُ أصوات مَن في البيت قبلَ خروجه إلى الصالة. عدّل ملابسَ نومه وانتعل نعلَه البلاستيكي، خرج ليجدَ والدَه وقد أخذ جلسته الصباحيّة المعتادة على كنبتِه في صالة المنزل، ألقى عليه تحيةَ الصباح بعْدَ أن قبّل يدَه. كان الوالد مُنشغلًا بمطالعة أحدِ كتبه، اقترب الفتى مِن والده حتى استطاعَ أن يشاركه القراءة، ابتسمَ الشيخُ في وقارٍ لهذا الفضول.. أعطى الشيخ كتابَه للفتى طالبًا منه أنْ يقرأ له بصوتٍ عالٍ بعضَ الصفحات،

استغرب الفتى من تصرّف والده غيرِ المعتاد، شعر وكأنّ الجميع يختبرونَه؛ الوالدُ الشيخ، والأفندي، الجميعُ يتصرّف معه بهذا الشكل.

كتمَ الفتى هذا الإحساسَ في نفسه، بدأ الصغيرُ القراءة بصوتٍ عال، قراءة صحيحة وبنفسِ الحماس الذي أظهره في وصْلة القراءةِ عند الأفندي، أعجب الشيخُ بابنِه، وزاد يقينُه بأنّ ملازمته بيتَ الأفندي والتردّد على كتبه أصبح شيئًا ضروريًا، خاصّة وأنّ الفتى قد تعلّق قلبُه طواعيةً بهذا العالم الذي أحبّه وتغلغل في ذاته.

فرغ الفتى مِن القراءة.. احتضن الكتابَ بين يديه.. نظر إلى والدِه وكأنّه يراه للمرّة الأولى؛ فقد ارْتسمت على وجْهِ الشيخ ملامحُ القبول لهذا الصغير الباحثِ عن المعرفة. شعر الشيخُ بالخوف الشديد على فتاه كلّما تذكّر أنّ يومًا ما سيفترقان، سيخطفه الموتُ منه، سيحرمه مِن حنانه وأبوّته وقربه الذي تعوّده، لكنّ الشيخ كان يحدّث نفسه بين الحين والآخر بأنّ ثقتَه في ابنه وقدراتِه ستبدّد كلّ هذه المخاوف، وتعيد إليه أمْنياته التي تمنّاها، ويثبت ابنُه صدقَ ظنّه فيه، ساعتها يحقّ أن يطمئنّ أنّ ثقته به لم تضعْ، ويتفاخر به.

همس الفتي في أذنِ والده بصوتٍ خافت متردّد، يستأذنه الذهابَ لمنزل الأفندي؛ فقد وعدَه أمس أنْ يزوره في نفس الموْعد، أذن الشيخُ لابنه بالذّهاب بعدَ أنْ حمّله السلام والتحيةَ للأفندي.

غادر الفتى البيتَ مُسرعًا يحْدوه الشوقُ أن يجدَ لدى الأفندي في هذه المرّة مِن الحظْوة والمكانةِ ما يقرّبه خطوةً أكثرَ من حلمه الذي قطعَ على نفسه العهودَ أن يبحث عنه، فلا مناصَ من خوْض هذه التجربة؛ ليقف- بنفسِه- على عالمِ الأفندي الغامض، وأسرار بيته المجهولة.

شيّع الشيخُ ابنَه بنظرةٍ طويلة يملؤها الرضا بسعي ولده، والخوف والفزع ألّا يمهله القدرُ الوقتَ الكافي لينعمَ بقربه، وأن يحولَ الموتُ دون أن يرى هذه الثمرةَ وقد أينعت.

عاد إلى صفحات كتابِه يقلّبها مرّة ثانية. كان الفتى يشغل بالَه، ويعمل فكْرَه فيما يسمعه ممّن حوله مِن حكاياتٍ وأقاويلَ عن الأفندي، وبيتِه الغامض، ولكنّه يدرك- في قرارةِ نفسه بعد حديثه مع الشيخ الوالد- بأنّ أغلب أحاديث الناس لا تخلو مِن تهويلٍ أو مبالغة، فمنذ أنْ وطأت قدمُه هذا المكانَ وكلّ ما حوله يبدو طبيعيًّا، والرجلُ بعيدٌ كلَّ البعد عن كلّ ريبة، هو بشرٌ ككلّ البشر، إلّا أنّه آثر العزلة وانفرد بنفسه بعيدًا عن صخبِ الحياة، وتناحُرِ الخلْق وصراعاتهم..

كان الأفندي يطمئنّ لطبائع الفتى، فهو راضٍ عن أحواله؛ فهي تتلاقى مع طباعِه في تفاصيلَ كثيرةٍ ومُنحنياتٍ نفسيّة وخُلقية، فالفتى ليس كغيرِه من الفتيان، وحبُّه للمعرفة، وقابليتُه للتعلّم أكسبتاه الحظْوة لدى الأفندي، وأصبح له في نفسِه القبولُ، ويبدو أنه تعوّد على رؤيته هو الآخر...

حدّث الأفندي نفسَه مرارًا: كيف لهذا الفتى الصغير أنْ يلفت انتباهي؟! كيف لصبيّ في عمْر أحفادي أن يقتحمَ عليّ عالمي الخاص، وأنْ تجد أقدامُه طريقَها إلى خلوتي التي أمضيت عمري راهبًا في جنباتها؛ فرارًا مِن أعباء المادّة وهوَسِ البشر؟! هل هو ذكاءُ الفتى الذي أوْصله، وقدرتُه على الإقناع والتأثير، أم هو ميلٌ منّي وفضولٌ أنْ يكون في حياتي الخاصّة ما يملؤها؟! أمْ أنّه آنَ الأوان أن يُكسرَ هذا القفلُ الذي أغْلقَ به بابُ قلبي، وعقلي، وجعل بيني وبين النّاس متاريسَ تخفيها جدرانُ هذا البيت الكبير..؟!

كان الأفندي ذا طباع تبدو- في بادئ الأمر لَمن يجْهلها- حادّةً ومِزاجية، محتملٌ أن يكون جهلُ مَن حوله به هو الذي كرّس هذا الانطباع وزكّاه عندهُم؛ فهُم لا يرون الأفندي إلّا على فتراتٍ لا تتجاوز بضعَ دقائق، كأنْ يكون ماشيًا في الدّرب لقضاء بعض الحاجات الضرورية، أو ذاهبًا لزيارة صديقٍ وهي نادرًا ما يفعلها، فليس للأفندي أصدقاء بالمرّة مِن بين سكّان القرية ولا أقرباء ولا خُلطاء، فعائلته ليسوا مِن أهل القرية، وبسبب حالته المزاجية التي تميلُ إلى العزلةِ والانقطاع؛ لم يبقَ للأفندي مَن يجالسه أو يتردّد عليه إلّا الشيخ إبراهيم والدُ الفتى، فهو الأقربُ إليه، يميل إليه ويأنسُ به.

والشيخُ يعتبر الأفندي في عدادِ الأقارب، يودّه ويصلُه باستمرار، والأفندي يقدّر هذا الشعور ويحرصُ على زيارة الشيخ كلّما سنحت الفرصة..

كان الأفندي يدرك- في قرارة نفسِه- أنّ لهذا الفعل تبعاتِه، وأنّ الغيب يخبّئ له مفاجأة خاصّة، وأنّ جليسه الجديد حديثُ العهد بمجالس الكبار، علاوةً على حداثة سنّه، بدا قليلَ الخبرة بطباع الناس، قليلَ المخالطة، إضافةً إلى أنّ للأفندي طباعه الخاصّة التي يلزمُ التعامل معها بحذرٍ وحيطة..

لم يكنْ من بين سكّان القرية يعرف طبيعةَ الأفندي إلّا بعضُ نفرٍ من معمّري القرية لا يتجاوز عددُهم أصابعَ اليد الواحدة؛ فالأفندي لا يسمحُ لأحدٍ بالاقتراب من صومعته، أو الدّنّو من خلوتِه هذه إلّا بالقدر الذي يحدّده هو، ويرتضيه لَمن شاء، وإلّا فإنّ للأفندي ثورةً عارمة لا يقبلُ معها المساومةَ أو المفاوضة، ومَن ذا الذي يستطيع أن يغضبَه!؛ فالجميع يحبّونه ويقدّرون له هذه العزلة، فمقياس الخيريةِ الوحيد عندهم التزامُ الشخص السّلامةَ والبعد عن إيذاء الناس، كوْنهم لا يشعرون به من شدّة انعزاله عنهم، وكانت الظروفُ مواتيةً للأفندي ليبتعدَ عن حياتهم وعدمِ ظهوره إلّا قليلًا، وهذا ما روّج لأفكارهم التي اكتنفَها الغموض والسّذاجة، حتى أنّ بعضَهم لا يعرف اسمَه، خاصّة صغار السنّ منهم، والبعضَ لطولِ غيابه يظنّ في عداد الموتى، أو حدثَ له حادث..

كان البيتُ القديم هو عالَمه ودنياه، فمنذ أن ماتت أمّه وأبوه، وتزوّجت أخواتُه البنات بعيدًا عن القرية، وسافر أخوه الأكبرُ إلى القاهرة للعمل، ومِن ثمّ الإقامة هناك منذ عشرات السنين، لقد صرعتِ الدنيا الجميعَ وأبعدتهم

عنه، حتى أنّه اعتبر نفسَه طيّ النسيان، ولم يعدْ له وجودٌ في حياتهم، فلا يزوره أحدٌ منهم إلّا بعض مرّات متقطّعة، خاصّة في المناسبات والأعياد.. أصبح الأفندي يجهلُ أحوالَهم بالمرّة، ولم يعدْ لديه أملٌ في الاجتماع بهم مرّة أخرى.

حقيقة.. فقد ترك هذا في شخصيّة الأفندي أثرَه السيئ، وحوّله إلى عزلته التي أنْهكته، وبنَتْ حوْله أسوارًا عالية من الشكّ والرّيبة في كلّ مَن حوله، إنّه ضحية هجْر الأهل، وقسوةِ الأيام.

كان الأفندي في الماضي صاحبَ شخصية مُتفائلة، اتّسمت المراحلُ المتقدمة منها بالطموح والأمل، أقبلَ الأفندي على الدنيا وأقبلتْ عليه، عانق أحلامَه الصغيرة التي زيّنت جدرانَ بيتهم العتيق.. شبّ في حجْر أبويه.. كانت أمُّه سيدةَ بيتٍ من الطّراز الأوّل، امتلكت مجدَ أبيها، وسمعةَ عائلتها ذاتِ الأصول العريقة، والتي كان أغلبُ أفرادها مِن علماء الأزهر الشريف، وكتّابِ الدوائر الحكومية وموظّفيها، أصحابِ المكانة المرموقة.. إلّا أنّ الزمانَ قد دار دورتَه، وانفضّت أبّهة العائلة، وخَبا نجمُها، ومات والدُها حسرةً بعد أنْ خسر جميعَ أمواله، ورهنَ البقيّة الباقيةَ مِن أطيانه، إنّها لعبة البورصة اللّعينة، التي حوّلت عائلة والدتِه إلى أنقاض، وأظلمت الدّنيا، وأغلق السّتار عن حياةِ الجاه والعزّ والثروة داخلَ هذا البيت الذي لَطالما أحاطَ به شرفُ المكانة وعظمةُ الجاه.

كان للأفندي سرُّه المحجوب، وألمُه العميق الناشبُ في صدره وبيْن ضلوعه، وجرحُه التي تسبّبت فيه الأيام حكرًا عليه وحدَه ينكأه وحده.

اعتاد الأفندي دفنَ أسراره عن الجميع، فلا يبدي أحزانَه إلّا لوالد الصبيّ الشيخ إبراهيم؛ فهو بمنزلة الأخ والصّديق والجارِ المقرّب. كان الشيخ يودّه قدرَ طاقته، يدعوه دائمًا لزيارته بيْن الحين والآخر، ويوصله بالعطايا والهدايا، والتي لا تتوقّف أبدًا؛ فالجودُ بالموجود.. وكان هذا شعورَ الأفندي المتبادل بينهما؛ فقد كان الأفندي لا يقبل هدايا من أحدٍ سوى التي تردُ إليه من بيتِ الشيخ؛ فقد كان عزيزَ النفس مستورَ الحال، لا يُشعر أحدًا- مهْما كان- بتفاصيل معيشتِه. كان كلّ شيء يكتنفُه الغموض بدءًا مِن المنزل القديم المهجور، وحتى صاحبه الذي كانت حياتُه والاقترابُ من تفاصيلها مجرّدَ سرابٍ يسعى وراءه أهلُ القرية.

كان الأفندي لا يسمح لأحدٍ بالاقتراب من عالمه، أو مجرّد التفكير في ذلك، تعايش أهلُ القرية مع وضعِه القائم فاعتادوا عزلتَه، وتأقلمَ هو معها.

أخذ الفتى مكانَه المعْتاد، استوى في جلسته فوقَ كنبةِ الأفندي التي تتوسّط الصالة. نظر حوله يمنةً ويسْرة، تواردتْ عليه الخواطر، وعلتْ رأسَه الهواجسُ، وعاودَه سيلٌ جرّار من التّساؤلات.. تحدّث الفتي بها هامسًا: هل حقيقيّ ما يقوله الناسُ عن هذا البيت؟!!

كان الفضول يحرقه حرقًا، نازعتْه نفسُه لمرّات عديدة أنْ يهمّ مِن مجلسه، والدخول لكلّ شبرٍ في هذا البيت، يريد أنْ يقتحم كلّ بابٍ ليشاهد ما وراءه مِن أسرار، لقد تمنّى أنْ تشخصَ له شياطينُ المكان وعمّارُ البيت مِن الجنّ فيراهم ويحاكيهم حتى يستريحَ ويهدأ، إنّه بين نار السؤال وهوَسِ الإجابة...

كان الفتى مُرتابًا- في أول أمرِه- بالطريقة التي يتعامل بها الأفندي معه، ربّما كان دافعُه إليها جهلًا أو سوءَ تقدير، أو لعلّ مظاهرَ الحيرة والشكّ التي يخفيها مخافةَ أنْ يفشل في الاستمرارِ مع هذا الشيخ العجوز الذي ارْتضى له أن يدخلَ عالَمه لأجْلِ والده الشيخ، فهل يستطيع أن يمتلكَ مِن الأسباب التي تمنّاها للوصول لقلب الأفندي؟!

أسئلةٌ كثيرة جالت برأسِه، وكأنها تحلّق من حوله تطلّ عليه مِن فوق رأسه ملاصقةً للسقف الخشبي العالي الذي يلفّه الغموض، يشخص أمامَه ليحكي حكايات الماضي الجميل، ويزيد من حيرته..

كان الصبي يصبّر نفسَه ويمنّيها بأنّ الأفندي مقتنعٌ به، ولا يمكنُ أن يردّه خالي الوِفاض، صفْرَ اليدين، كيف ذلك وقد ابتسمتْ له الحياة، ووجد طريقَه بالقرب من كهْف الأسرار الذي منّى نفسَه الاقترابَ منه لسنوات؟!!

شعرَ الفتى أنّه يخطو أولى خطواته صوْبَ البلّورة السحرية التي يكفيه مجرّد النظر إليها، وفكّ طلاسمِ هذا المكان، وأنْ يحوز السبقَ مِن بين أقرانه.. بل، وربّما يواتيه حظّه ويكون صاحبَ الكنز الذي سمع قصّته تتحاكى بها القرية، أو قد يمتلكُ يومًا العزائم والطّلاسم التي تمكّنه من بسْط سلطانه على شياطين المكان مِن مَرَدة الجنّ الذين يسخّرهم ويأمرُهم– وهو السيّد عليهم– ليجلبوا له السّعادةَ والمال والقوّة، تمامٌ كما سمعَ في جلسات بعض زوّار والده من عجائز القرية..

ظنّ الفتى أنّ الأفندي ذو طبيعةٍ مُغايرة لطبيعة البشر مِن حوْله، فبحُكم خلْوته تلك قدْ نُسجت حولَه الأقاويل أنّه مِن أصحاب الخوارق، وأضْفَت عليه خيالاتُ العامّة شيئًا مِن الخرافة حتى أصبحَ مُتحكّمًا في الجان، يسخّرهم وهُمْ طوْعُ أمره..

كان يتعامل بحذرٍ شديد عند دخوله منزل الأفندي، يشعرُ وكأنّه مُراقَب في المكان، هناك مَن يراه ويراقبُه مِن بعيد، يشكّ في نظراتِ الأفندي ويرتابُ منها، فكيف يجهل فضولَه وهو مَن يضعُ العيونَ تترصّد همساته، وحتى خفقات قلبِه، فمِن حوْله مَن يتتبّع خطواته ويحسبُ عليه أنفاسَه، كان الفتى يظنّ أنّ حجرة الأفندي حصنٌ مَنيع، لا يستطيع أحدٌ الاقترابَ منها، أو لمس بابِها، أو حتى جدرانِها، كان بابُها ذا ضلفتين؛ فكان يحجبُ الرؤيةَ عن مَن يجلس بالصّالة، ويحول دونَ معرفة ما يدور داخلها، وهذا

ما لفّها بحالةٍ من الغموض الذي استقرّ في خيال الفتى، وجعله على قناعةٍ بأنّ الحجرة قد امتلأت بسلاطين الجان، وعُتاة المَردة.. ورغم ذلك، فصوتُ والدِه يجلجل في مسامعه، يطمئنُه بين الفيْنة والأخرى بأنّ للمؤمن قوّةً، وإنْ لم يمتلك الطلاسم والعزائمَ التي تمكّنه مِن إخضاعهم؛ فلديْه من كتابِ ربّه وآياتِه المُحكَمات ما يحول دونَ وصولهم إليه أو أذيّته. أخرج صاحبُنا من جيبِه الصغير الوردَ الذي أعطاه والدُه لدى عودته مِن مولد السيد البدوي، وبدأ يقلّب صفحاته، كانت هذه هي المرّةَ الوحيدة– منذ أنْ أعطاه إيّاه– التي يقلّب فيها أوراقَ هذا الورْد الثمين.

استوقفَ الفتى بعضُ الأذكار والأوْراد والأدعية، التي بدأ يردّدها بصوتٍ عال، إنّها صلوات وتحْصينات تقي مِن مَرَدة الجان وكيدِ الشيطان، اطمئنّ الفتى شيئًا فشيئًا، وبدأت ثقتُه في نفسه تعودُ إليه مِن جديد. شعر وكأنّ هذه الأدعية والآياتِ خلّصته من عيْن الرّقيب الذي كان مُسلطًا عليه يراقب أنفاسَه وخفقاتِ قلبه، همسَ بصوتٍ خفي: الآن، أستطيع الاستمتاعَ بعيدًا عن سطوتكم..

خيّم على المكان سكونٌ غريب، شعرَ بالملل يتسلّل إليه؛ فلا أحدٌ سواه، وذلك العجوز المتواجد داخلَ غرفته التي لم يخرجْ منها حتى الآن، تُرى ماذا حدثَ له؟!!

وبينما هو مُنهمكٌ في قراءاته التي يعلو صوتُه فيها تارة وينخفضُ أخرى، خرج عليه الأفندي مِن غرفته، وقد أمسك بيْن يديه مجموعةً من الكتب القديمة.. سكتَ الفتى عن القراءة تدريجيًّا.. وضع الوِرْد في جيبه.. أقبلَ على الأفندي.. شعرَ وكأنّه يعرف ما يدور برأسه.

كان الأفندي يستمعُ إلى أدعية الفتى وأوْرادِه المتلوّة مِن خلف الباب، لم يشأ أنْ يقطع عليه قراءته، وقعتْ هذه القراءة موقعَ الرّضا والقَبول من نفس الأفندي.

وضع الأفندي ما بيده مِن كتبٍ أمامَ الفتى، ثمّ جلس على كرسيّه الخيزران كعادتِه، طلبَ من الفتى أن يختارَ لهما كتابًا يرشّحه للقراءة، هذه المرّة تركَ له حريةَ الاختبار. كان الترقّبُ يلهبُ قلبَ الصغير، امتدّت يدُه تسابق عينَه إلى الكتبِ الموجودة على الطاولة الصغيرة المُستقرّة ما بينه وبين الأفندي.

تناول كتابًا متوسطَ الصفحات، وما أنْ وقعت عينُه على صفحاتِه الصفراء المُهترئة، ولامستْ أسطرَه التي كتبت بطريقةٍ غريبة تغايرُ ما تعوّده؛ خفق قلبُه خفقاتٍ سريعةً متتالية، شعر وكأنّ قلبَه يخرقُ الضلوع ويقفز خارجًا.. ابتلع ريقَه بصعوبةٍ بالغة، لكنّه طمْأن نفسَه راجيًا منها أن تلزمَ السكون؛ إنّه يقترب من مُراده، فهذه بدايةٌ لا بأس بها، وبادرةٌ من الأفندي تجدّد ما بينها مِن عهود ومواثيق، ها قد بدأ حلمُه يقترب منه، ومَن يدري.. فربّما في المرّات

القادمة تتكشّف أمامه بعضُ أسرار مغارة الأفندي السّحرية، ويطرق كهفَ هذا الأفندي الغامض، يستطلعُ بين جدرانه القوّةَ الخفيّة التي سيطرت عليه وملكتْ كلّ فضوله.

بدأ الفتى في قراءة الأسْطر الأولى من الكتاب، كان كتابًا في الأدب العربي، لاحظَ على الأفندي تأثرًا بما يقرأ؛ فهو مُطرقٌ لا يتحرّك، فعلى ما يبدو أنّ الأفندي محبٌّ للأدب وفنونه.

أرادَ الأفندي أن يلقّن فتاه درسًا في الصّبر وعدمِ الاستعجال، فلكلّ خطوة أوانُها ووقتها. وقف الفتى مِن مكانه وسار بضعَ خطوات وهو ممسكٌ بالكتاب، وبدأ يقرأ.. ويقرأ.. ويقرأ.. وضعَ الأفندي يدَه على خدّه، وألقى نظرةَ إعجاب مِن صنيع الفتى؛ فقد تعوّد أن يبهرَه في كلّ زيارة، وعاد إلى رأسه السؤالُ مجدّدًا، وصارَ يهمسُ به في قرارة نفسه: كيف استطاع هذا الصبيّ- رغم حداثته- مِن لفت انتباهي ونيل إعجابي، وأن تكون له هذه الحظْوةُ والقبول دونًا عن أهل القرية!؟ كيف ارتبطتُ به لدرجةٍ جعلتني أنتظرُ مقدمَه كلّ يوم، أترقّب طرَقاتِه على الباب الرئيسي من شبّاك غرفتي المطلّ على الحديقة الأمامية كلّ دقيقة؟! ما السّرّ في انجذابي إليه بهذه الطريقة؟!

هزّ الأفندي رأسَه قليلًا، حاول أن يستعيدَ وعيَه، وأن يعود إلى متابعةِ القراءة، والفتى الذي شعرَ- هو الآخر- بأنّ الأفندي غلبَه تفكيرُه، وغفلَ

عن متابعته؛ توقّف فجأة عن القراءة ظنًّا منه أنّ الأفندي غيرُ مُنتبهٍ لقراءته.. أشار عليه الأفندي أن يستمرّ في القراءة، سُرّ الفتى بهذا الأمر كثيرًا.. أخذ الفتى يستعرض مواهبَه في القراءة؛ فزادَ مِن حدّة صوته، وبدأت يدُه تتحرّك؛ تعلو وتهبط كلّما أعْجبَ بفقرةٍ مِن نثرٍ أو بيتٍ من شِعْر، وبيْن حماسته التي استولتْ عليه وإعجاب الأفندي به.

وإذْ بطارقٍ يطرق البابَ الرئيس للمنزل، توقّف الفتى عن وصلةِ القراءة؛ يستطلعُ هويّة القادم. طلب الفتى إذنَ الأفندي ليفتحَ الباب.

فكانت المفاجأة، إنّه الشيخ إبراهيم والدُ الصبي مَن يطرق الباب، تهلّل وجْه الأفندي لهذا المقْدَم السعيد، حيّاه مرحّبًا به، قبّل الفتى يدَ والده.. وبعد تقديم واجبِ الضيافة، وبعد أنِ استقرّ المجلس بالحضور، طلب الأفندي مِن الشيخ أنْ يؤنسَ جلستهم ببعض القصص والحكايات الغريبة التي حدثتْ له في الماضي، وعنْ تجربته أثناءَ عمله في تفتيش الرّي بأسيوط عندما كانَ موظّفًا هناك.

ضحكَ الشيخ، وقد أخفى ابتسامتَه التي بدتْ على وجهه بطرفِ عباءته، قائلًا للأفندي:

– ألَا زلتَ تذكر حكاياتي لك يا أفندي؟ إنّها منذ زمنٍ بعيد!! حقًّا كانت أيام.

نظرَ الفتى إلى الأفندي الذي بادرَ بالقول:

– لا تستغربْ؛ فوالدُك صاحبُ صوَلاتٍ وجَوَلاتٍ تسوّدُ صفحاتِ كتابٍ مثل الذي تقرأ، لقد ترك والدُك أثرًا طيبًا أثناءَ خدمته بأسيوط، هل تذكُر يا شيخُ إبراهيم حكايةَ الفتاة التي ألقت نفسَها في النيل؟!

صمتَ الشيخ قليلًا، ثمّ قال:

– نعمْ أذكُرها، لقد أدمتْ قلبي هذه الفتاة، فقد كانت في عُمر الزّهور، ولكنّ التقاليد الظّالمة غير العادلة وتسلّط الأهل قد تتسبّبا أحيانًا في تعاسة الأبناء، وجرّتْ على البيوت الخَراب.

اندهش الفتى مِن كلمات والده؛ فهي غريبةٌ عنه لم يألفها من والده قبلَ ذلك.. اقترب الفتي مِن والده قائلًا، وقد أخذ الفضولُ منه كلَّ مأخَذ:

– ما قصّة هذه الفتاة يا أبي؟

قال الشيخ:

– هي قصّةٌ قديمة يا ولدي، لكنّها مليئة بالدّروس والعِبر، فقد كنتُ أمرّ ذاتَ مرّة أفتّش على القناطر والسدود الموجودة على بعض الترع كعادتي كلّ صباح، وفي أثناء مروري بجوار إحدى القناطر الموجودة على بعض الترع ببعض المناطق المهجورة لفَتَ انتباهي وجودُ فتاةٍ صغيرة تصارع أمواجَ النيل، تحاول التشبّث بالحياة ولكنْ دونَ جدوى؛ فقد كان الموج عاليًا،

والفتاة توشكُ على الغرق، ودونَ تردّد منّي خلعتُ ملابسي وقفزتُ إلى المياه من بيْن رفاقي، وعندما وصلتُ إلى الفتاة وما أنْ رأتني حتّى صرخت بصوتٍ عالٍ وهي تقول:

– اتركني، أريد أنْ أموتَ ليستريحوا منّي.

ولكنّي أمْسكتُ بها، جررْتها ناحيةَ الشاطئ حتى أنقذها، وبعد أنْ أفاقت من إغمائها، حاولت أنْ أسْتعلمَ عن هويّتها، فما كان منها إلّا البكاء والعويل بصوتٍ مرتفع يفتّت الكبِد، نادبةً حظّها التّعِس، سألتها عن اسمِها وبلدها وحكايتها، تبيّن أنّها من سكّان القرية المجاورة لمكان عملنا، وأنّ أهلها حاولوا إرغامَها على الزّواج من رجلٍ كبيرِ السنّ، لكنّه ثريّ وصاحبُ أطْيان، لقد فضّل الأهل المالَ على السعادة؛ لا يهمّهم سوى الجاه.. لكنّ الفتاة لا ترغب في الزّواج منه؛ فقد تعلّق قلبُها بشابٍّ فقير من سكّان القرية، تعاهدا على الحبّ منذ طفولتهما، اصْطحبنا الفتاة إلى بيتِ أبيها، فقد كانوا يبحثون عنها في كلّ مكان.. أصرّ القومُ على ضيافتنا عندما علموا أنّنا مِن موظّفي دائرة التفتيش والرّي، وفي هذه الأثناء كانت الفتاة قد قصّت عليهم القصّة، وكيف أنقذتُها مِن الغرق، امْتنّ الجميع لنا، وشكروا لي معروفي هذا.. ومِن يومها، توثّقت علاقتي بهم، ولم تنقطعْ مع مرورِ الأيّام، فقد اعتدتُ المرورَ على بيتهم والاطمئنانَ على صحّة الفتاة، وبعدَ أن شعرتُ بصداقة القوم وتودّدهم إليّ، اجتهدتُ أنْ أثنيهم عن قرار زواجها التعِس مِن العجوز الثري، وشرحت

لهم أنّ السعادة ليست في جمْع المال، ولكنّ السعادة في راحةِ البال، وأنّ هذه الزيجة ربّما جرّت ابنتَهم مرّة ثانية إلى حتْفها، وهُم- ولله الحمد- مسْتورو الحال، وقد كان- ولله الحمد-.. وبعد محاولات منّي وافقَ الأهل أن يزوّجوها من الشابّ الفقير بعد أن دبّرتُ له وظيفةً بالمصلحة.

كان الشيخ يحكي القصّة، والفتى بين ذهولٍ وإعجاب من شجاعةِ والده، ولسانُ حاله يقول إنّه أبي، كم هو جديرٌ بالاحترام، لقد زادت هذه القصّة من سعادته؛ شعر بالفخْر والاعتزاز بوالده الشيخ.

كان الأفندي يقدّر الشيخ غايةَ التقدير، ويكنّ له من الحبّ الذي جعله في مكانةٍ هو وأهلُ بيته لم يبلغها أحدٌ من أهل القرية، لم يكنْ يخفي عنه شيئًا مِن أسراره، أو مشاكله.. كان الشيخ قريبًا منه أكثرَ من أهله في أحيانٍ كثيرة.

نظرَ الشيخ إلى الصبي موجّهًا حديثه للأفندي:

- كيف حال صاحبِك؟

قال الأفندي:

- لا تقلقْ عليه، فهو يتقدّم يومًا بعد يوم، وإنْ شاء الله لا ترى منه إلّا ما يسرّك.

انتهز الشيخُ الفرصة، وقال للفتى:

- عليك أن تنظّم وقتك خلالَ الفترة القادمة، فعطلةُ مُنتصف العام قد شارفت على الانتهاء، على أن تكون زيارةُ الأفندي اليوميّة بعد انْتهاء دروسك، إيّاك أنْ تقصّر في الزيارة.

هزّ الفتى رأسَه قائلًا:

- لا تقلقْ يا أبي.

لاحظَ الشيخُ أنّ الفتى لا يزال مُمسكًا بكتابه بين يديْه، ارتسمت على محيّاه ابتسامةٌ عريضة أظهرت حالةً من الرّضا عن ابنه الذي عرف طريقَه إلى عالم الكبار، والأفندي يتابع ما دارَ ويدور بينهما في صمت..

طلب الشيخُ الإذنَ بالانصراف.. خرج الأفندي مودّعًا إيّاه حتى الباب الخارجي للمنزل، وبعد أن خرج الشيخُ ألقى بصرَه ناحية الباب، ثمّ أخذ نفسًا عميقًا وأخرج زفيرَه، وانحرفَ في الدّرب تجاه بيته.

ثقة

شغل الأفندي خيالَ الفتى، وملَكَ عليه مسالكَ فكْره، بدأت التساؤلات التي لا يجدُ لها إجابةً تنهال على عقله، وعلى مخيّلته الصغيرة: كيف استطاع الأفندي تحصيلَ كلّ هذه العلوم؟ ومتى؟ هل كان للأفندي حظُّه من التعليم؟ وكيف ذلك؛ فالأفندي لا يحمل أيّة شهادات دراسية، ولم يكنْ من شريحة الموظّفين الكبار، تمامًا مثلما كان والده؟

اعتاد الفتى نظراتٍ يختلسها من فوْق سطح بيته، يلاحظ صاحبَه، وقد أخذ مجلسه مُمسكًا بكتابه يتصفّحه، سواء في الصيف أو الشتاء، ولكنّه حتى الآن لا يدرك حقيقةَ العلاقة بيْن الأفندي والتعليم!!

كان الفتى يقوم بخدمةٍ جليلة أغناه فيها عن تكبّد عناءَ القراءة ومشقّة المطالعة التي كانت تمثّل للأفندي عبئًا مُضاعفًا، فقد أصبح- بحُكم تقدّم سنّه- لا يقوى على مواصلة القراءة لفتراتٍ طويلة كما كان يفعلُ في السابق، وهذا الشيء قد تسبّب في هجرته لمكتبتِه تدريجيًّا لفتراتٍ مُتباعدة قد تطولُ وقد تقصر. كان الفتى يقرأ للأفندي بعضَ مُختاراته، ولكنّه حتى السّاعة.. لم تطأ قدمُه مكتبة الأفندي، فهو يجهلُ مكانَ تواجدها في هذا البيت الواسع

المُمتدّ، تُرى أينَ مكانها؟ أين يُخفيها الأفندي؟ هل حقيقيّ أنّه يحتفظُ فيها بجميعِ ما يمتلك من مطبوعات ورثَها عن أسلافه؟ لم يشغل بالَه كثيرًا؛ فالأيام كفيلةٌ أن تجيب عن تساؤلاته.

كان الأفندي يختارُ الكتابَ بنفسه، ويطلبُ منه البدء في القراءة بصوتٍ يستطيع أن يتحقّق منه. كان الفتى يتحرّك أثناء القراءة كما عوّد نفسَه، يأتي ويذهب هنا وهناك، يتجوّل وراء الأفندي داخل البيت؛ فمرّةً يقرأ له وهو يتفحّص أزهارَه المنتشرة في الحديقة، أو أثناء تسميدِ شجَيْرات الباذنجان والطماطم وإعداد الحديقة للرّي، أو أثناء تهيئتِه لوجبة الغداء، وحتى وهو يغسل ملابسَه.. لقد اعتاد الأفندي أنْ يسمعه، كانت عملية السّماع تتمّ دونَ أدنى معوّقات، الفتى يقرأ والأفندي يستمع...

كانت الوقفاتُ قليلةً بعضَ الشيء، فالفتى يقرأ بصوتٍ مَسموع، وبلَكْنةٍ واضحة، وبأسلوبٍ يجذب السامع، يستعمل نبراتِ صوتِه، وطبقاتُها يغيّرها، وينوّع فيها كيفَ يشاء تماشيًا مع كلّ فقرةٍ وحالةِ الأفندي المزاجية التي يلحَظها أثناء التّرداد.

كلّما انتهى الفتى من القراءة يخيّل إليه أنّ المرّة القادمة هو مَن سيختار الكتابَ الذي يقرأه، وأنّ الأفندي سيفوّضه بالدّخول إلى المكتبة ليحضره بنفسه.. لكنّ شيئًا من هذا لم يحدثْ، يا تُرى متى سيتحقّق هذا الحلم؟!!

كان الأفندي يدرك هذا الحماسَ البادي في عيْن فتاه الصغير، لكنّه يعلم أنّ الوقت لم يحنْ بعد.. ظلّ الفتى ينتظرُ الفرصة تواتيه حتى جاء اليوم الذي شعرَ فيه أنّ الحظّ حالفه، أخيرًا.. سمح له الأفندي أنْ يختار كتابًا للقراءة في أحدِ الأيام. ومِن فوْره هَرْول الفتى ناحيةَ غرفةٍ من الغرف كان قد توقّعها في السابق مَحْضنًا للمكتبة، ابتسم الأفندي لفعل الفتى العفويّ، لكنّه شعر بأنّ ما يعطيه للفتى من اهتمامٍ هو جزءٌ يسير يردّ مِن خلاله الجميلَ لوالده الشيخ الذي طالما تفضّل عليه وأكرمه.

لم يكنِ الفتى يتوقّع ما رآه، لم تكنِ الدنيا بأكملها تتّسع لفرْحته، يا لهَوْل المفاجأة التي نزلتْ به!! تقدّم ناحيةَ الباب، أمسكَ بمقبضه النّحاسي الكبير، وما أنِ اقترب ليفتحَه إلّا ورائحةٌ غريبة نفّاذة- لكنّها مقبولةٌ- تزكمُ أنفَه الصغير، فتح البابَ ومدّ قدمَه يخطو أولى خطواته في عالم الأفندي السّحري لتصطدمَ عيناه بجدران غريبة، وخليطٍ مِن الرّوائح الغريبة، قال بصوتٍ اخْتلط بالسرور:

- ما هذه الرائحة الغريبة؟!!

إنّها أقربُ لرائحة الخشب، وقف متسمّرًا في محلّه؛ فالحجرة التي كسيتْ أرضيّتُها بالأخشاب امتلأت بأرففٍ خشبيّة واسعة اكتست بها الجدران من خشب بنيٍّ عتيق، تحيطُ بها شبابيكُ عاليةٌ مُشرَعة ذاتُ ستائر خضراء زاهية اللّون، وقد فاضت بالكتب من كلّ الأحجام.. كشجرة البرتقال المُثمرة

توشكُ أن تنتفض، هذه أريكةٌ كبيرة، وهذا مكتبٌ متوسّط يقف خلفَه كرسيٌّ خشبي أنيق، وأمامَ المكتب طاولتان كبيرتان تكدّست عليهما كتبٌ وصحف ومجلات قديمة..

مدّ الفتى يدَه يقلّب ما يصادفه على الطاولات الخشبية، لفتَ انتباهَه بعضُ الكتب الموجودة، إنّها ذات طبقات قديمة جدًّا، ولكنّها لا تزال أنيقةً وسليمة، وكأنّها خرجت لتوّها من المطْبعة، قلّب صفحاتِ أحدِ الكتب، استوقفه الغلافُ الخارجي الذي سُطّرت عليه عبارةٌ مكتوبة بخطّ حَسَن جميلٍ لم يخلُ مِن فخامةٍ وذوق، يدلّ على أنّ لصاحبه إحساسًا يقدّر لهذا الشيء قدْرَه، ويعرف قيمتَه حقّ المعرفة، يريد توصيلَ رسالة لَمن بعده، استوقفته العبارةُ وروعتُها وجمالُ الخطّ ودقّتُه: "وقفٌ خاصّ؛ لا يُباع ولا يُهدى".

بداية، لم يعرف معنى كلمةِ وقْف، ولكنّه أدرك بفطرته مدلولَ هذه العبارة، وكأنّ صاحبَه يحذّر الاقترابَ من بيعه أو القيام بإهدائه.

جلس إلى أحدِ المقاعد الموجودة بالمكان، بدأ يقلّب الكتبَ في نهَمٍ شديد وشغَفٍ مَلحوظ، وكأنّه لم يقرأ مِن قبل، لم تغبْ عنه ابتسامتُه المعهودة، يقرأ.. ويقرأ.. ثمّ يغلق الكتاب، ويلمسُه من الخارج، يقلّب صفحاته بسرعةٍ كبيرة، ويقرّب أنفَه منه، يشمّ رائحتَه مرّة ومرّة، إنّها رائحةُ الورق القديم، ما أطيبَها مِن رائحةٍ وأحبَّها إلى قلبه!!

احتضن الكتابَ وهو يمرّر يدَه سريعًا عليه.. استغرق الفتى في قراءتِه، وكأنّه في جزيرةٍ معزولة، ولكنّه ظلّ مشغولًا يستطلعُ محتوياتِ المكان، ينظر هنا مرّة وهناك أخرى، هذا كتابٌ في الفقه، وهذا في التاريخ، وآخرُ في الآدب، وغيره في الجغرافيا.. وقف الفتى مُنبهرًا أمامَ هذا الميراث الثقافي الكبير، علتْ ضحكاتُه وتردّدت أصداؤها في جَنَبات المكان مُتتابعة، لكنّه انتبه مؤخّرًا، وعاد إليه رشدُه؛ فلربّما يسمعه الأفندي من الخارج!

مرّر يدَه على أرففِ المكتبة يتحسّس خشبَها البنيّ العتيق، يقرأ عناوينها، لكنّه لم يستقرّ على عنوانٍ بعينه؛ فجميعُ مصادرها غريبةٌ عنه، فمكتبةُ والده صغيرةٌ مقارنةً بهذا الكنزِ الكبير، لم يكنْ والده معنيًّا بتكْوين مثلِ هذه التّلال من المراجع والكتب.

بدأ الصبي يتعامل مع المكان وكأنّه يعرفه منذُ سنوات طويلة، علتْ أرفف المكتبة الأتربة وكساها الغبار، نظرَ الفتى مِن حوله يبحث عنْ شيء يزيلُ به ما خلّفه الزمن من غبارٍ تكدّس بين الكتب فلم يجدْ، وأخيرًا اهتدى إلى خرقةٍ بالية كان الأفندي قد أعدّها لتنظيف المكتب، خلع الفتى الصغيرُ جلبابه، وشرع في إخراج مُحتويات الأرفُف، يمسح أخشابَها وينفض كتبَها..

دخل عليه الأفندي- فجأةً- المكان، لم ينتبه الفتى لمَقْدمه؛ كوْنه مشى في خطواتٍ خفيفة لم تُحدِث أثرًا، لكنّه أيقنَ في قرارةِ نفسِه فطنةَ الفتى وذكاءَه المبكّر.. يقدّر العلم، ويقدّس الكتاب ويعرف قيمتَه، سيكون لهذا الغلامِ

شأنٌ كبير في مُستقبل أيّامه؛ فهذه الصّفات تخفي للأيّام موهبة تمنّى من الله أنْ يكتب لها التوفيق.

عرضَ عليه الأفندي المساعدة، لكنّه أصرّ على العمل بمفرده. جلس الأفندي على الأريكة القريبة مِن المكتب القديم، وبدأ يفكّر في شريكِه الجديد، يبدو أنّ ميولَهما قريبة بعضَ الشيء، وأنّه شخصٌ جدير بأنْ يُعتمد عليه بالرغم من حَداثة سنّه.

أراد الأفندي أنْ يستميل الفتى ويقطع سكونَ المكان، فلم يجدْ من أمامه إلّا صندوقَ الحكايات والقصص، فربما يستطيعُ تسلية فتاه الصغير الذي انْهمك في العمل بجديّة. أخذ الأفندي يسردُ وكأنّه وجدَ ضالّته، لقد عثر أخيرًا على الشّخص الذي يستحقّ أن يبوحَ له بحكايات وجراحات الأيام، لربّما تكشف الأيام عن معْدن الفتى الطيّب ليصبح صديقَه الوحيد الذي يجدُ فيه الثقة والاطْمئنان والتكتّم..

بدأ الأفندي يسترسل في القصص، ويستعرض حكاياته، قال الأفندي بعد أنْ ربّع رجليْه على الأريكة يمرّر يدَه فوق فخذيه:

– هذا المكان شهدَ أجملَ أيّام حياتي، لقد عشت أيامًا طويلة في كنَفِ جدّي، كان رجلًا سمْحًا طيّبًا، أحببته كثيرًا ولا تزال وصيّتُه عالقةً في ذهني حتى الآن، كان يمكثُ طيلةَ نهاره وليله على هذا المكتب يُطالع ويكتب.. كمْ

جمعتني وجَدّي لحظاتٌ سعيدة امتدّت من اللّعب والمرح؛ هنا جلس جدّي، وهنا قرأ عليّ أوراقًا من كُتب الحكايات، هنا كان مجلسُنا اليومي المعتاد، هنا حكى الجدّ حكايات عمرِه المُنقضية وأيّامَ طفولته وشبابه، كيف عاش.. وكيف.. وكيف.. وكيف..

كان الأفندي يحكي للفتى حكاياتِه، وشريطُ الذكريات يمرّ مِن أمامه بمواقفه وشخوصِه، تراءت له أثناءها أمّه تجلس على أريكتها داخلَ حجرة نومها تردّد أورادَها اليومية وهي تبتهلُ إلى الله القدير أنْ يحفظ عليها زوجَها وأبناءَها؛ كلّ واحدٍ باسمه.

يراها حين تتحرّك ذهابًا وإيابًا في البيت، حين تناديه ليُحضرَ لها بعضَ أغراضها، حين ينام في حجرها مساءً مُحتضنًا قطّته الصغيرة يداعب ذيلها، حين تُرضيه بعد حزن، وتُضاحكه بعد بكاء، حين تفصلُ بينه وبين إخوته، ساعات اللّعب والمشاكسة، ساعات اللّهو والتّشاكي، حبّات الحلوى يتقاذفونها فيما بينهم، كيف تسلّقوا أشجار الرّمان، وقطعوا مِن ثمار البرتقال، كيف صعدوا أعالي النّخلة المُلاصقة للسّور الأمامي للبيت.. ساعاتُ الترقّب والمغامرة، وتسابقهم في جنْي حبّات اللّيمون من شجرتها العتيقة المُلاصقة لشجرةِ الحنّاء الباسقة، كيف اعتنى بتنظيفِ أحواض الزّهور وريّها كلّ صباح، عنايته بشجرة الحنّاء.

أسند الأفندي رأسَه بين يديه، وأسلم نفسَه لسلطان الصّمت الطويل، جلس الفتى بجواره وقد بدتْ عليه علاماتُ التأثّر والشفقة، قال في سرّه: يا للأفندي المسكين! أيُخفي كلّ هذه الشكوى في صدْره، إنّ الذّكرى وألَمها يعتصرانه عصرًا!! أهذا هو العجوزُ الغامض والساحرُ العظيم الذي يستخدم مَرَدة الجنّ وعُتاة الشياطين لسطوته كما يقول الناس، أمْ هو شخصٌ آخر غيره؟!!

شعرَ الأفندي أنّه بحاجةٍ ماسّة لَمن يسمعه، لَمن يُسمِعُه هو شكواه؛ فالفضفضة تزيحُ عن صدره همًّه الجاثم عليه القابضَ على أنفاسه منذُ سنين، آنَ لهذا الهَمّ أن يجدَ مخرجَه..

كانت زفراتُ صدْره المكتومة تزيدُ من فضول الفتى، وتقرّب ما بينهما من مسافات، وتكسرُ جدارَ العزلة الذي فرضَه الأفندي على نفسِه وأسرارِه عقودًا طوالا..

شعرَ وكأنّه يعرف الأفندي منذ زمنٍ بعيد، تكشّفت أمامه بوضوحٍ جوانبُ وزوايا كثيرة كانت غائبةً عنه من شخصية الأفندي، عاوده السؤال مرّةً ثانية: أحقًّا هذا هو الأفندي، بطلُ الأساطير التي يردّدها العامّة في مجالسهم ووسط حقولهم، أحقًّا هو أمْ أنّه شخص آخر؟!!

عاد إليه صوتٌ من بعيد ليخبرَه أنّ العجوز الذي أمامه رجلٌ قد أنهكته الأيام، وأخذت منه حوادثُ الدهرِ ما أخذت، شاخَ في أحزانه، وشاختْ

معه أحلامُه لم يتبقّ له إلّا بقيةٌ مِن أملٍ، تتجدّد حين تشرقُ الشمس مطلعَ كلّ صباح، ثمّ تغيبُ عنه مع أشعّتها كلّ مساء.. فرفقًا به أيّها الفتى.

التصق الفتى بالعجوزِ البائس أكثر، أحسّ أنّ ملازمتَه أصبحت أمرًا لا فِكاكَ منه، كيف يتركُه فريسةً لأحزانه؟ صريعَ الذّكريات التي توشكُ أن تهلكَه وتقضي على البقيّة الباقية منه؟!!

حاول الفتى أن يُخرجَ الأفندي من الحالةِ المُزرية التي تسيطرُ عليه، اقترح عليه شيئًا جديدًا ومسلّيًا، رفع الأفندي رأسَه متثاقلًا بعد أنِ استقرّت بيْن كفّيه، اقترح الصبي أنْ يقوما معًا بإعادة ترتيب المكتبة وتنظيف أرفُفِها، فعلى ما يبدو أنّ المكان لم يُنظّف بعناية منذُ زمن، خاصّة وأنّ المكتبة ستكون مستقرَّهما خلال الأيّام المقبلة، أبدى الأفندي موافقتَه على الفور إلّا أنّ الصبي طلبَ منه أن يكتفي بالجلوس بالقُرب منه، ما عليه إلّا أنْ يمدّه بالحكايات بين الحينِ والآخر مِن صندوق ذكرياته، شريطةَ أن تكون مسلّية وذاتَ طابع فكاهي... ولا مانع مِن إحضار بعض أكوابِ الشاي المَمْزوج بالنّعناع الأخضر؛ فهذا يُنعش الأجواء، ويحفّز على العمل.

شمّر الفتى عن ساعدِه، وبدأ تجهيز أدوات التّنظيف من الخارج، ينظر إليه الأفندي بإعجاب، ولسانُ حالِه يقول: يأبى هذا الصبيّ بين الحين والآخر إلّا أنْ يُبهرني بما هو جديد.

توافقتْ مساعي الصبي مع رغبات الأفندي، خاصّة تجاه المكتب والمكتبة فيما يخصّ عنايته بهما، فقد كان الأفندي أشدّ حرصًا على هذا المكان؛ يُحيطه بعنايتِه، ولا يسمح بأنْ تمتدّ إليه يدُ الإهمال أو العبث، فقدْ أغلقت المكتبة في السّابق لفترات طويلة ولم تفتح أبدًا، ربّما لم يجدِ الأفندي في نفسِه الرّغبة للقراءة ثانية، أو ربّما لم يصادفْ من زوّاره القلائل مَن يكلّف خاطرَه مشقّة القراءة والمطالعة، فزوّاره من شرائحَ مختلفة، على ندرتهم يَزورون الأفندي لحاجاتٍ هي أبعدُ ما تكون عن هذا الشأن.

ثمّ كانتْ خطوةٌ أخْرى

كان للأفندي اطّلاعٌ واسعٌ بالعلوم الروحانية، وهذا ما أكْسبه شهرةً كبيرة بين أهالي القرية والقرى المجاورة، فتوافدتْ عليه من كلّ حدبٍ وصوْب؛ فأصبح مقصدَ أصحاب الحاجاتِ التي تتنوّع؛ فمنهم مَن تزوّج حديثًا ولم يجدْ في نفسه الاستطاعة فأوْهَمه بعضُهم أنّ فلانًا سحَرَه انتقامًا أو نِكاية فيأتيه ليفكّ سحرَه ويستعيدَ رجولتَه المسلوبة، أو يمنحُه تحويطةً تقيَة الرّبط ساعة زفافه.

وفي أحيان أخرى، تحملُ إليه إحداهنّ ولدَها الصغير الباكي ليقرأ عليه ما تيسّر، أو يحبسَ عنه قرينَه، أو أمّ الصّبيان فيسكن بكاؤه، ولا مانع من منْحها بعضَ الأحجبة تعلّق للعين والحسَد.. ويكتمل مجهودُ الأفندي فيهبُها وريْقاتٍ محشوةً بالبخور واللّبان، أو حتى حبّات الكزبرة اليابسة تطلقُ أدخنتَها وتتلقّاها بملابس الرّضيع، وثانية تحملُ له رسنَ بهيمتِها التي تسقط جنينَها في أشهره الأخيرة دونَ أن يكتمل، فهي تعرف عينَ جارتها التي تفيض حقدًا، وهذه تريدُ أن تدرّ بقرتُها لبنًا وفيرًا، وتخاف من عينِ جارتها التي لا تحبّ لها ولزوجها الخير، ولا مانع من تواردِ بعض الطّامعين أصحاب الهَوَس إلى المكان، فيصطحبُ معه مَن يبحث عنِ الثّراء والثروة؛ فكثيرٌ من

أهل القرية قد شغلَ نفسَه بخُرافات الكنوز والخبايا من مدفونات الكنوز، فتراه يقسم أغلظَ الأيمان وأرفعَها أنّ في بيته كنزًا كبيرًا؛ فجدُّه أخبرَه بذلك، ويعدّد تلك المحاولات التي شهدَ تفاصيلَها صغيرًا، ورؤيته المشايخ المغاربة الذين عاونوه، إلّا أنّ حرّاسه من الجنّ الأسافل العُتاة يمنعون- بالقوّة- كلَّ مَن يحاول أنْ يقترب منه، وينذرونه بالهَلَكة والدّمار للمكان وأهله، وأنّه يسمع كلَّ ليلةٍ جلبةً، وتتحرّك أمتعة البيت دونَ أن يمسَسْها بشر.. وقد جاء الأفندي لأنّه يعلم تمكّنَه ومنزلتَه في العلم وقدرتَه على تقديم المساعدة بفضلِ ما بين يديْه مِن كتبٍ قديمة ورثَها عن أجداده خُطّت بدمِ الغزال أو عصير الرّمان تتسمّع بها القرية والقرى المجاورة، واعدًا إيّاه بأغلى الجوائز والهدايا إنْ ساعده على استخراجه..

والغريبُ في الأمر أنّ الحضور كانوا يسبغونَ على الأفندي بعضَ الألقاب، وأنّه بركةٌ وصاحبُ كرامات ورثَها عن علمٍ ودينٍ وتقى..

كان هذا الصّنفُ من زوّار الأفندي في غالبه مِن أهل القرى المجاورة جاءوا لسمعة الأفندي القويّة، كانوا أسرى ما يُشاع في الحقول وعلى الجسور مِن حكايات تنسَج حول عبقريّة وتمكّنِ الأفندي وسيطرتِه على الجان والعفاريت، فهو لا يكتفي بتسخيرهم لأعماله فقط، بل يَنزل معهم إلى باطنِ الأرض، حتى بالغ بعضُهم وروّج زواجَه من ابنة ملكِهم، وأنّ بيتَه مرتعٌ لهؤلاء، وسلطانُه عليهم يضاهي سلطانَ ملكٍ من مُلوكهم..

كان الفتى يستمعُ إلى هذه الحوارات، كوْنه لا يفارق بيتَ الأفندي إلّا قليلًا، ويحضرُ في الغالب مجالسَها وما يدور فيها. ومع قناعته ببعض هذه المبالغات إلّا أنه كان يسيطرُ عليه فضولُه، لعلّه يظفر برؤية ما يبحثُ عنه، هل سيكشف الأفندي سرَّ سطوته؟! إلّا أنّه لم يكن يلمحُ في يدِ الأفندي كتابًا واحدًا من الكُتب التي يستخدمها لهذا الغرضِ من كتب السّحر والطّلاسم.. ومعَ ذلك، فقد كانت للأفندي أحوالٌ غريبةٌ أثناء هذه المجالس؛ فعندما يأتيه زائرٌ أو قاصدٌ لحاجة مِن هذه الحوائج؛ كان يدخل غرفتَه ويُغلق عليه بابه، ولا يخرج إلّا بعدَ مدّة، يمنح بعدَها صاحبَ الحاجة حاجتَه.

أصبح الفضول يحرّك الفتى، وفي أحيانَ كثيرة يحرقُه، أين يذهب الأفندي؟ وماذا يفعل داخل حجرته؟ ومِن أين يجيء بهذه الأحْجبة والأوراق؟ وماذا كتب فيها؟ وأينَ الكتاب الذي طالَعه وأخذَ منه؟ اعتقد الفتى أنّ هذا السرّ يستقرّ في بطون الكتب القديمة، وفي جنّيّات المكتبة، فكلّما خلا بنفسِه كان يحدّثها قائلًا: لا بدّ أنْ يظفر بهذا السرّ، ولكن كيف؟! وما أجملَ ما كان يخلو بنفسه يدعو في خشوع وخضوع: اللّهم أرحْ نفسي من هذه الأسئلة التي بتُّ مريضَ تدافعِها على عقلي، وأرشدني إلى الحقيقة يا ربّ.

لم يعلمِ الفتى أنّ الأفندي قد احتفظَ بهذا السّرّ، واختصّ به نفسَه دون غيره، فهو حريصٌ على أنْ لا يطّلع عليه مخلوقٌ كائنًا مَن كان، وأنّ ما تحويه المكتبة وأرففُها من كتبٍ تخلو تمامًا ممّا يبحث عنه ويجري خلفَه..

لقد احتضنَ الأفندي كتبَه ونوادره داخلَ غرفته، وأحكمَ عليها طوالَ حياته بأسوارٍ من العزلة حَماها بها، فلم تفلح حيلُ الماكرين ولا تطفّل المتطفّلين، أحاطها بالكتمان؛ فهو مَن يملك الحقّ في الوصول إليها دونَ سواه.

جعل الأفندي لغرفته خصوصيّتها بعيدًا عنْ أعين زوّاره، وقد نجح في هذا الأمر لعقودٍ طويلة، كان يدرك خطورةَ ما فيها، وأنّ مُحتوياتها لا يمكن أن تكونَ عُرضة لكلّ مُتطفّل أو مُتطلّع.

لم يشعرِ الفتى بأيّة غَرابة، لكنّه الفضولُ ورواسبُ حكايات العامّة عنْ سرّ القوّة الخفية للأفندي.. ظلّ الفتى يتابع- عن قرب، وبصفة يوميّة- ما يجري في بيت الأفندي، ويحضر هذه اللّقاءات المتكرّرة، كان يلفت انتباهَه سخاءُ البعض، ونبلُهم في التّعامل مع الأفندي، فقد كان البعض سخيًّا لدرجةٍ كبيرة مُقتنعًا بقدرة الأفندي وتمكّنه مِن صنعته، وأنّ الحاجة إليه تستدعي السّخاء بالقدْر الكافي ليحظَى بالقبول والمكانة عند عودته ثانية، أمّا البعضُ الآخر وهُم قلّة فقدْ عمدَ إلى البُخل معه، حتى كرهَه الأفندي وأصبح يتحاشى لقاءه، ولا يعطيه الاهتمام؛ فهُم أثقلُ ما يكونُ على مجلسه، ولولا أنّ الرجل لم يمتهنْ هذا العلم أو يتّخذه وظيفة يتربّح منها؛ لكان له معهم شأنٌ آخر..

ومع مرور الأيام، توطّدت العلاقة بينهما، وثِقَ الأفندي في فتاهُ بدرجةٍ كبيرة أكثرَ من ذي قبل، حتى أنّه أضحى كاتمَ أسراره، ونائبَه الصغير، يعتمدُ

عليه في بعض الأمور العاجلة.. أسندَ إليه- في بعضِ المرّات- مجموعةً من المهامّ التي يحتاج إليها العمل كتحضير الأوراق البيضاء والمسْطرة، وكذلك تقطيع بعضِها لقطعٍ صغيرة، أعطاه خلاصةَ تجربته لمعرفة أنْواع البخور ومكوّناتها، ووظيفةً كلّ نوعٍ على حدة، ونوعيّة البخور التي يحتاجها كلّ عملٍ من الأعمال، ووظيفته فيها..

لكنّ الأفندي كان يخشى على الصبي أنْ يشغله هذا العملُ الجديد- وخاصّة بعد أنْ رأى منه الحماسَ الزائد- عن المطالعةِ والقراءة في المكتبة، خاصّة بعدما وجدَ فيه الفضولَ والإقبالَ الذي أقلقه.. شعر الأفندي أنّ فتاهُ قد تثاقلَ في القراءةِ والمطالعة، خشيَ الأفندي أن يزعج هذا الفعلُ والدَه الشيخ، وأنْ يخلّ بالاتفاق الذي أبْرم بينهما، وهو أنْ تكون الإفادةُ من المكتبة نظيرَ مقدِم الصبي إلى بيته كلّ يوم.

كان الأفندي يطالبُه بين الحين والآخر أنْ يعاودَ قراءةَ بعض الكتبِ التي كان يختار مُعظمَها، كان الصبي يتحاملُ على نفسِه لعلمه بمُراد الأفندي؛ تحاشيًا لغضب أبيه إنْ علم بانقطاعِه عن المطالعة والقراءة، وصرفِه لاهتمامه ووقتِه لأشياءَ قدْ لا تفيده، خاصّة في هذه السنّ.

استطاع الفتى أن يكسبَ رضا الأفندي من جهةٍ، ويجاري رغبةَ والده من جهةٍ أخرى. وفي الوقت نفسِه كان يجدُ في هذا القربِ ما يلبّي فضولَه الذي اندفعَ إليه اندفاعًا، خاصّة بعد أنْ أصبح الحلم حقيقةً بين يديه؛ فها

هو أخيرًا يحصل على ثقةِ الأفندي، فحاول جهدَه أن يحافظ عليها، ولا يعمل ضدّ رغبته حتى تهاوتِ الأسوار التي حالتْ بينه وبين عالَم الافندي بأسراره وطلاسِمه وأسحاره.

وفي يومٍ فارقٍ من أيّام الأفندي تلقّى الفتى ما يسرّه؛ فقد أعطي الإذن أنْ يدخل- للمرّة الأولى- إلى غرفته، لم يصدّق نفسَه!! لقد حانت اللّحظة التي يقتحمُ فيها مستودعَ الأسرار وبيتَ الطلاسم وكهفَ التعاويذ المخيف، التي سيطر مِن داخلها الأفندي على المَرَدة والجنّ.

كانت البداية عندما طلبَ منه جلبَ أحدِ الكتب مِن الحقيبة الخشبيّة الموجودة داخلَ الغرفة، إنّها حالةٌ جديدة، امرأة عجوزٌ مريضة جاءت للأفندي تشكو إليه ألمَ صداعٍ برأسها، ولا تجدُ له مصرفًا إلّا رقية الأفندي الشّافية، وبخورَه المخفّف للألم.

تلمّس صاحبُنا بابَ الغرفة كعادته، كان الباب مثلَ أبواب البيت، لكنّ صاحبنا رآه بعينِه المتلهّفة على أنّه ذو طبيعةٍ خاصة.. كيف له أنْ يكون كباقي الأبواب، وهو بابٌ يحتضن خلفَه أسرارَ الأفندي؟! اقتربَ ببطءٍ شديد، مدّ رجله اليمنى، أعقبها باليسرى، مَن ينظرُ الفتى- الآن- يظنّه طفلًا صغيرًا يخطو أولى خطواتِه بعد الفطام.. تسلّل برأسِه أولًا يستطلعُ المكان من الخارج، وبعد أنِ استقرّت أقدامُه على أرضيّة الغرفة، سرتْ في جسده رِعدةٌ خفيفة؛ فالمكان يحمل دَلالاتٍ غريبةٌ عليه.. يتوسّطه سريرٌ عتيق من

النّحاس بأرجُلٍ مرتفعة نسبيًّا عن الأرض لمسافةٍ تقتربُ مِن المتر، تحيطه غلالةٌ زرقاء اللّون مِن قماش رقيقٍ انسدلتْ على الجوانب، وإلى جانبه تسريحةٌ كبيرة ذاتُ مرآة مَجْلوّة، استحوذت أغلبَ الإطار الخشبي، مزوّدة بأدراج مُتعدّدة، ذاتُ مقابضَ نُحاسية لامعة، وإلى جانبها صناديقُ خشبيةٌ متعدّدةُ الأحجام والأشكال كسيَتْ بالقماش الأخضر السّميك، هي قديمة.. ولكنّ بروعةِ الألْوان وبريقها لا تزال تخطفُ الابصار من الوهْلة الأولى، وإلى اليمين قليلًا تقف خزانةُ ملابس من الخشب مَطليّة باللّون البنيّ الجميل، عليها نقوشٌ بارزة، وأمامَها نُصبت شماعةٌ خشبية ذاتُ أرجلٍ عريضة علّق عليها الأفندي عباءتَه ومعطفَه الصوف وشالَه الحريري الأحمر الكبير، ووراء الباب استقرّ صندوقٌ خشبيّ كبيرٌ بأرجلٍ عريضة، وضع الأفندي بداخله أحذيتَه، وبجوار السرير طاولةٌ كبيرة عليها كومةٌ من الأوراق والكتب التي أخذتْ حيّزًا ملحوظًا منها..

وفي المنتصف، فُرشت سجادةٌ حمراءُ اللّون، عليها نقوشٌ قد غيّب الزمن ملامحَها، غيْر أنّ أصالة خامتِها بدتْ من ألوانِها الزّاهية.. كان الأفندي يقف على بُعد خطوات وراءَ فتاهُ المستكشفِ، وضعَ يدَه على كتفه قائلًا له بصوتٍ حنون:

– لكلّ شيء أوانُه يا صديقي، أعدُك بأنْ تكون لنا جلسةٌ لاحقًا؛ فلا تقلق..

دخل الأفندي الغرفة، أخذَ أحدَ كتبِه ليقضي للمرأة حاجتها، أعطاها لفافةً صغيرة محشوّة بالبخور، بعد أنْ أوصاها بأهمّية مراجعة طبيبٍ مُتخصص؛ فربّما كان صداعُها ناجمًا عن مرضٍ عضوي..

نظرَ الأفندي لفتاهُ، وقال له:

- ها.. ماذا تريد أن تعرفَ يا عزيزي؟

تلعثمَ الفتى، واحمرّ وجهُه خجلًا، حاول جاهدًا أنْ يخفي حرجَه، لكنْ فُضح أمرُه بعد أن تصبّب جبينُه بالعرق، وأخيرًا استسلم لكلامِ الأفندي، لقد تأكّد لديه- الآن- أنّ نظراته وأنفاسَه وحركاته، حتى دقّات قلبه وفضوله وتطلّعه إلى دنيا الأفندي؛ على علمٍ بها، قال له الأفندي:

- أعلمُ أنّك فتى ذكي، وأنا أثقُ في موهبتك، فلا تتعجّل الأمرَ يا صديقي، ولكنْ أنصحكَ نصيحةَ.. عليكَ أنْ تتعلّم ما ينفعُك ويخدم الناس، فليس كلّ شيء صالحٌ لأنْ نأخذه ونصرفَ فيه الوقت والجهد، نحن لم نخلَقْ لهذا يا صديقي..

مدّ الأفندي يدَه ليفتح أحدَ الصناديق، تسلّل ببصره مِن بين أصابعِ الأفندي، أخذَه الذّهول عند مطالعته، لقد تكدّس بالكتبِ القديمة التي رُصّت بشكلٍ منظّم ودقيق، دار بخَلَد الفتى سؤالٌ حيّره.. تُرى هل مِن بيْن هذه المحتويات استقرّ سرّ الأفندي الأعظم؟!

توالتْ يدُه لتفتح البقيّة؛ الثاني، والثالث، والرابع، إنّها جميعًا تحوي نفسَ الشيء، صنفٌ واحد، كتبٌ قديمة، وأوراق صفراءُ مُهترئة، وأقلامٌ مصنوعة من الغاب..

نظرَ الأفندي إلى الفتى، وقال له بصوتٍ فيه ثقةٌ وارتياح:

– – الآن، أصبح من حقّك أن تطّلع على مستودع أسراري؛ فقد أصبحتْ أسراري مُتاحةً، لقد اجتزتَ ما يؤهّلك لنيْل ثقتي، فهي مِن الآن لم تعدْ سرًّا يمكن كتمانُه عنك.

وقبل أن يشرعَ الفتى في تفحّص محتوى الصناديق، ويأخذ جلستَه للمطالعة، بادره الأفندي قائلًا:

– هناك بعضُ التحفّظات التي يتوجّبُ عليك معرفتُها يا صديقي، وأهمّها أنّي لا أعيرُ كتبي خارجَ منزلي؛ فلا تطلب منّي استعارةَ شيء منها عاجلًا أو آجلًا، مع ضرورة المحافظةِ على سلامتها مِن الامْتهان والعبث، وألّا تسوّد صفحاتِها بقلم، وأنْ يظلّ ما بداخلها سرًّا لا يطّلع عليه أحد.

وافق الصبيّ من فوْره، فكلّ شروط الأفندي مُجابة، انكبّ صاحبُنا لا يصدّق نفسَه؛ فها هو يمرحُ بين الصناديق في سعادةٍ غامرة، فقد تبسّم له حظُّه العاثر أخيرًا، بعد أنْ أصبح شريكَ الأفندي في أسراره، فهل هو جديرٌ بهذه الثّقة؟ وهل حلمُه القديم آنَ أوانه، أمْ أنّ الأيام كفيلةٌ بضياعه؟

الصّندوقُ المخْفيّ

أصبح الفتى أسيرَ المكان، شعرَ وكأنّ الوقتَ قد توقّف عند ما يقضيه مِن وقتٍ يقلّب فيه محتوياتِ الصناديق القديمة، تمنّى لو قضى فيه بقيّة حياته. أصبحت غرفةُ الأفندي جزءًا لا يتجزّأ منه، استغرق في القراءة ليلَ نهار، كلّما أمسكت يدُه بكتابٍ قديم يخيّل إليه أنّ هاتفًا تناديه، وأنّ طيفًا رقيقًا يمرّ من جانبه يلامسُ أطراف ثوبه، فيزدادُ خفقانُ قلبه، هل يعقل أنّ عمّار المكانِ مِن سلاطين الجان ومَرَدته قد حضَروا ليشهدوا زائرَهم الجديد الذي يخطو أولى خطواته لامتلاكِ عزائمهم، لا بدّ أنّه السيد الجديد، تشجّع الفتى وأكمل القراءةَ بصوتٍ عال، وقال في نفسه: وهل أقلُّ شيئًا عن الأفندي، فلنرَ...

أعطى الأفندي فتاهُ زمامَ المبادرة، جعله يتجوّل في المكان ليكتشفَ بنفسه محتوياتِ المنزل، كان هوى الضّيف الصغير ينحسرُ في البحث عن ضالّته بين ركام الكتب ومع غبارِ الأرفف الخشبية العتيقة، كان حلمُه القديم يداعب خيالَه كلّ مرّة يزور فيها الأفندي، وينفردُ بالصناديق القديمة به ليجدَ نفسَه أمامَه بعد طولِ صبْر..

وبعد أنِ اطمئنّ له الأفندي وتكشّفت نواياه أمامَه، وأطلق العَنان للمطالعةِ والقراءة؛ بدأت نفسُه التنقيب في محتويات المكان.. حتى عثرَ

على حقيبةٍ كبيرة من الخشب المغطّى بالجلد بجوار أحدِ الصناديق الموجودة بالغرفة، لا شكّ أنّ هذه الحقيبةَ قد استقرّ ببطنِها ما يروي غليلَه، امتدّت يدُه مباشرةً إليها، وفي صمتٍ فتحها، كانت الحقيبة تحوي كمّياتٍ كبيرةً من الأوراق الصّفراء والقصاصات الورقية الصغيرة، وبعضَ الدّفاتر، مع مجموعةٍ من الأقلام الفَخمة ذاتِ الماركات الغريبة، وأخرى مصنوعةٌ من الغاب والقصب، امتدّت يدُه تداعب محتوياتِ الحقيبة، سالَ لعابُه وبرقتْ عيناه، قال بصوتٍ مكتوم: أخيييرًا!!

كان أحدُ الدفاتر قد كُتب عليه من الخارج بخطٍّ أنيق باللّون الأسود "مُجرّبات".. أثارَ هذا العنوانُ في نفسِ الصبيّ العديدَ مِن التّساؤلات، اندفع- دونَ وعيٍ منه- يقلّب صفحاته، أعجبَ بادئ الأمر برونْق الخطّ وتنسيق فقرات الكتاب، وانتظام أسْطُره، وتنوّع ألوانه؛ فهي ما بين الأزرق والأسود، والأخضر، والأحمر، والبنّي القاتم.

تُرى ما مضمونُ هذه التّجارب؟ وما مغزاها؟!! جلس على الأرض وأسندَ ظهرَه إلى الحائط القريب منه، احتضن أحدَ الدّفاتر بين يديْه، وشرعَ بالقراءة. كان بصرُه حائرًا بين السّطور، وكلّما قرأ فقرةً مِن محتوى الدّفتر القديم؛ زاد اندهاشُه، يعيدها مرّةً أخرى ليفهم معاني بعضِ كلماتها التي بدتْ غامضة بعضَ الشيء، أحسّ كلّ مرّة باهتمامَه ورضاه عمّا يقرأ، ما هذا؟!! هل فعلًا ما يقرؤه حقيقة، أمْ هو من نسج الخيال؟

إنه دفترُ الأفندي الكبير والدُ أفنْدينا، عرف الفتى مِن بعض الوثائقِ القديمة المُتناثرة داخلَ الصندوق من أنّ الرجل كان يعملُ في عشرينيات القرنِ الماضي ناظرًا بالأوقاف، يدير دائرةَ أطيانٍ واسعة، بها مئاتُ الأفدنة، وتحت إمْرته عشراتُ الموظّفين من كتّاب وعمّال وخفَر، فالرجل فيما يبدو مِن حاله أنّه كان من عِلْية القوم، ومن القلّة التي تلقّت حظًّا من التعليم في تلك الفترة..

عاود النظرَ مرّة أخرى للحقيبة، لفتَ انتباهَه ورقةٌ صفراء سميكة، يبدو أنّها رسميةٌ نظرًا لكمية الأخْتام التي وُقّعت عليها، إنّها شهادةُ دبلوم المدرسة الزّراعية العليا أيّام مصر الخديوية، يا للهول! إنّه يمسك بين يديه بوثيقةٍ تاريخية تخصّ الأفندي الكبير، أكمل الفتى ما بدأ.. عاودَ المُطالعة في دفترِه مرّة أخرى علّه يجدُ ما يفسّر به لغزَ هذه المُجَرّبات.

كانت قراءتُه سريعة، ولكنه يعي جيدًا ما يقرأ، وما أنِ انتهى من القراءة حتى أخذَه الذّهول، وقال وهو ينفض يديْه ممّا لصق بهما مِن غبار: لقد كان لدى الأفندي علمٌ، فالرجلُ غزير، وفيما يبدو أنّه مارسَ بعض المحاولات لصناعةِ معدنٍ كريم، أشار إليه بكلمة الجوهر.

أيعقل أنْ يكون الأفندي يقصدُ بهذه الكلمة الذّهب!؟ كان الدّفترُ عبارةً عن يوميّات مسجّلة دوّن عليها تواريخ مُتفرقة خاصّة، وكلُّ محاولة أتمّها الأفندي في محاولةٍ منه لتحضير بعضِ المعادن النفيسة من مكوّناتٍ طبيعية.

زادَ يقينُ الفتى واستقرّ في ذهنِه أنّه بات أكثرَ اقترابًا من مرادِه، فلا بدّ أنّ بهذه الحقيبة وبهذا المكان ما يبحثُ عنه، خاصّةً وقد وضع يدَه على مُجرّبات الأفندي الكبير.

أمسك الدّفتر بيده، أسندَ رأسَه إلى الجدار، وغابَ للحظاتٍ في أحلامه، أخذت الصغيرَ سِنةٌ من النوم، وجد نفسَه وكأنّه في مكانٍ قديم يُشبه هذا البيت، أطلّ من نافذةٍ صغيرة إلى داخل حجرةٍ كبيرة، كانت الحجرةُ مليئةً بالأبخرة والأدخنة الكثيفة التي تتصاعدُ مِن داخل قوارير مُتداخلة مُتراصّة، ومواقد ومشاعل تفيض باللّهب، وفي الوسط نُصبت مِنضدةٌ كبيرةٌ يقف بجانبها شيخٌ عجوزٌ طاعن في السّن، وعلى رأسِه طربوش أحمر، يمسك بيدِه زجاجةً صغيرة يصبّ داخلَها بعضَ السوائل المختلفة، كان يظنّ أنّ العجوز لا يشعرُ باختلاسِه هذه النظرات، وفجأة استدارَ العجوز وقد ارتسمتْ على وجهِه ابتسامةٌ كسرتْ تجاعيدَ وجهه، وهو يقول له:

– لا يزالُ أمامك متّسعٌ من الوقت، لكنّك على الطريق.

وبينما هو غارقٌ في حلمه، فما شعرَ إلّا والأفندي يقف أمامَه يناديه بأعلى صوته:

– هل تشعرُ بالإرهاق؟ استرحْ يا صغيري.

تنحنحَ الفتى محاولًا التّظاهر باليقظة، لكنّ ما لا يعلمه أنّ الأفندي ظلّ واقفًا لمدّةٍ قبل أنْ يبدأ في مناداته.

نظرَ الفتى إلى الأفندي متسائلًا:

- هل صحيحٌ أنّ والدك كان عالمًا كبيرًا، وله تجارب؛ لقد قرأتُ هذا الدّفتر، وهل نجح فيها؟

ردّ عليه الأفندي، وقد تتابعتْ ضحكاته، والتي ملأ صداها أرجاءَ الغرفة:

- أيّة تجارب يا صديقي! هذه محاولات لم يُكتَب لها النجاح، أضاع فيها الوالدُ الوقتَ والجهد بلا طائل، إنّها الشيء الوحيدُ الذي أصبح يحرصُ عليه رغمَ نصائح الوالدة بعدم جدواها، ولا طائلَ منها إلّا الخسارة.. كان الوالدُ يظنّ أنّه امتلكَ السرّ بمفرده، خصّص في البيت إحدى الغرف لمزاولةِ تجاربه، وكثيرًا ما كنّا نرتجف من هوْل التّفجيرات وألسنة اللّهب والدخان التي كانت تؤذي الوالدَ في بعض الأحيان.

تنهّد الأفندي طويلًا، ثمّ أكْمل: سامحَ اللهُ الوالد.

الفيلسوفُ العَجوز

تتكشّفُ أمامَه كلَّ يوم بعضُ ملامح شخصية الأفندي وخباياها ما يبهرُه ويجعلُه يعضّ الأنامل من الغيظ.. كيف له أنْ يفوّت كلّ هذا الوقت بعيدًا عنها!؟ لكنّه يقنَعُ في النهاية بمقدور الله، وأنّ مقسوم المرء من كلّ شيء مردُّه ترتيبُ الله.

لاحظَ الفتى على الأفندي أنّه صاحبُ نظريّات فكريّة، ورؤًى فلسفيّة، ونظريّة سياسية متقدّمة؛ فللرّجل ميوله الاشتراكية الصريحة، والتي كان يعلنُها أمامَ الجميع.. ظلّ الأفندي يؤمنُ بها لآخرِ حياته، مُخلصًا في تبنّيها، تُنادي بحقّ المجتمع في امتلاك مواردِه، وأنّ الحكم لا يمكنه أنْ يثبت- ولا يمكن له أنْ يقوم- إلّا على التّوزيع العادل للثروات بين جميعِ أطياف المجتمع سواءً بسواء، والمساواة مَطلبٌ أساسيّ للنهوض بأيّ كيان إنساني مهْما اختلفت أجناسُه، ولا بدّ أنْ ينظر القائمون على هذه الكيانات إلى ما يحقّق هذه العَدالة، ولا تعارض بيْن الاشتراكية ومبادئها وبين تعاليم الإسْلام التي أخذت الحقّ للضعيف من القوي، والمالَ بحقّ من الغني للفقير.. ومن حقّ الجماهير أنْ يثوروا مُطالبين بهذه الحقوق الأصيلة حالَ الإخلال بها.

لاحظَ الفتى- فيما لاحظَه- من طبائع شيخِه أنّه دائمُ الحديث عن الثّورة، معدّدٌ مساوئ الإقطاع، يعرضُ مِن الأدلّة والحُجج ما يقوّي حجته، مشيرًا

لبعض النّماذج السّيئة التي احتكرتْ حقوقَ البسطاء، وامتلكت قوتَ الفقراء، وساموهم سوءَ العذاب. كان الأفندي يقصّ على الفتى بعضَ القصص التي عايشها بنفسِه، أو سمعَها من أصدقائه المقرّبين، كان كلّما بدأ في الكلام ينتفضُ جسدُه، وتنتابه رِعدةٌ تستمرّ لفترة تطولُ وتقصر حسْبَ حماسته واندفاعه، كان من بيْن ما ذكرَ الأفندي:

– فالباشا الفلاني كان في المكان الفلاني يخالُ نفسَه فرعونًا من فراعين هذه البلد، لقد كان عدوًّا للإنسانية، عدوًّا للمُثُل والقيم والمبادئ، يقطع كلّ السّبل التي تصلُه بدنيا البشر..

كانتِ السّخرة تُلهب ظهورَ البسطاء من الفلاحين، الذين أكرهتهم السّخرةُ على العمل بلا أجرٍ، لا يجدون إلّا الفتات الذي يسدّ رمقَهم ويضمنُ لهم الحياة الكريمة، يلقيه إليهم الباشا باستعلاءٍ وجُحود من بُرجِه العاجي، معتقدًا أنّ هذه رحمةٌ تتنزّل منه إلى مخلوقاتٍ لم تخلق إلّا لخدمة أسيادٍ مثله، ومَن على شاكلته مِن عليَةِ القوم أباطرةِ المال والإقطاع.

باتَ الفتى مبهورًا بما يسمعُه من الأفندي مِن قصص وحكاياتٍ قديمة، يُنصتُ إليه وكأنّه يحكي فصولًا من كتاب الخيال أو عالَمٍ لا يمكن أن تحدُثَ حوادثُه إلّا في دنيا الأساطير. كان للأفندي طقوسُه الغريبة التي لم يألفْها الفتى، فبينما هو مُستغرقٌ في كلامه كان يهبّ واقفًا، يتحرّك بضع خطوات، يردّد بانفعالٍ شديد وقد هزّ يديْه في ثورة مِن الغضب: لقد كنّا عبيدًا في هذا

الوطن، نشربُ ونأكل فَضْلة القوم، جميعنا ذاقَ القهر والظلم، لم يرْعوا لنا أدنى كرامةٍ أو حقوق؛ كان سلطانُ المال، وقهرُ السلطة هو السيدَ والحَكم، انقسمَ الوطن إلى سادةٍ وعبيد، لك أنْ تتصوّر هؤلاء الباشوات؛ كانوا لا يعطون عاملًا أجرةَ عمله، بل وصلَ من جحود بعضِهم أنّه أقام مزرعةً للتربية يربّي فيها كلابه، أغدقَ عليها آلافَ الجنيهات، وفّر فيها المسكن المؤثّث، والرّعاية الصحية العالية، والطعامَ الدّسم؛ وفي المقابل يُصْلي ظهورَ الفلاحين نارَ السّعير لو تجرّأ أحدُهم مطالبًا بحقّه!! لقد صارت الكلابُ أفضلَ مِن بني الإنسان عند هؤلاء..

وفجأةً، انفجر الأفندي بالضّحك:

– لقد قامت الثورةُ بتطهير البلد مِن هؤلاء الظَلَمة، فمجرّد أن انفجرت شرارتُها، حتى أعطيت الأوامرُ للجند بهدم هذه المزرعة رأسًا على عقب، لقد شاهدتُ مصادفةً بأمّ عيني كيف تحرّكت المعدّات لهدم حصونِ الطغيان لتفرّ الكلاب من مَراتع الأبّهة ومِن محاضنِ العزّ والرّعاية، لقد كان المشهدُ مثيرًا، وقد امتلأتِ الأنحاء ببجرائها الصغيرة، وهي تجري مشتّتة في كلّ مكان، والأهالي يتعقّبون فلولَها بين ضربٍ وقذفٍ بالعصي والحجارة.

لقد تعاملَ القومُ مع هذه الكلاب بقسوةٍ شديدة، وأفرغوا عليها جامَ غضبِهم، وكأنّهم يتعقّبون مَن حرمَهم أبسطَ الحقوق وضيّع عليهم أبسطَ حقوق الإنسانية ومعاني الكرامة التي يتطلّع إليها البشر.

أخذتْ قصصُ الأفندي وحكاياتُه منه كلّ مأخذ، لم يتعوّد من قبلُ سماعَ هذا النوع مِن الحكايات، خاصّة وأنّ الأفندي كان يمتلك ميْزَة تفرّد بها عمّن سواه، أضافت إلى حكاياته نكْهةً خاصّةً ومَذاقًا مُختلفًا، تشدّ السامع؛ إنّه يصحِبُ حكاياته دائماً بحركاتٍ عفَويّة، ومشاهدَ تمثيلية لا تخلو من حسّ الفكاهة ونبرةِ الظّرف، مُضيفةً لقصصه عواملَ الإبهار وقوّة التّشويق.

كان الفتى يدركُ سلامةَ نيّته ونقاءَ فطرته، وفي فضفضتِه مُتنفّس لَمَا يخفيه، يبثّه بلا تحفّظ مُختصًّا به صديقَه الصغير، إنّها تباريحُ ثورةٍ داخلية تغلي في أعماقه وكأنها البركان. أعطى الفتى مسامعَه للعجوز، ولكنّ اللافتَ للنظر والغريبَ في الأمر، والذي اطّلع عليه بنفسِه وسمعه مِن أهل القرية أنّ الأفندي وعائلتَه كانوا قديماً مِن أصحاب الإقطاع، كانوا مِن أصحاب الثّروة الذين يتحاكى عنهم الناس... تُرى لماذا يكره الأفندي الإقطاعَ وأهلَه؟ لماذا ينقمُ على أصحابِ الثروة والجاه والسّلطة!؟

سؤالٌ حيّر ذهنَ الصبي، ظلّ يتلمّس إجابتَه مِن الأفندي، ولكنّ الأفندي كان يجيب بنفسِه عن تساؤلات الفتى.. ولا غرابةَ في ذلك؛ فقد كان للأفندي تجربتُه السابقة خلالَ عمله في إحدى المؤسّسات الوطنية مَطلع الخمسينيّات، والتي زامنَتْ عهديْن؛ عهدَ الإقطاع وعهدَ الثورة، فقد كان موظفًا مرموقًا بأحدِ مصانع السكر.. عاينَ بنفسه كيفَ تلقّف ضعفاءُ الشعب– مِن فلاحين وعمّال– الشرارةَ الأولى لهذا العُرس الوطني، كيف اكتظّت الميادينُ بالحشود

مُعلنةً مُبايعتها لجحافل النّصر والتحرير، لاعنةً كلّ أشكال القهر والاستبدادِ والبطش، لقد كانت فطرةُ الأفندي مَن تقوده إلى الانفعال، لقد لامستْ مبادئ الثورة أحلامَ الأفندي، عاشَها كما عاشها غيرُه، انفعل معها وبها، ردّد مبادئها في كلّ مَحفل، لقد كان الظّاهر يعجبُه والحاضرُ يبهرُه، فلم يكنْ يشغله إلّا يومه.. كان الأفندي وفيًّا- كغيره- لهذه المعاني، فلم تخلُ جدرانُ منزله من صورٍ لقادتها، وبعضِ الصحف والمجلّات التي تؤرّخ لحِقبتها ينشرها الأفندي بكلّ فخرٍ وتِرحاب كلّما جاء الحديثُ عنها، هي بقيّةٌ من ماضيه وصفحةٌ من حياةِ وطنه... وشخصية غنيّة بكلّ شيء.

الأفندي يعرفُ أكثر

كان الفتى كلّما خالط الأفندي تتّضحُ أمامَه خيوطُ شخصيّته، وتتراءى له جوانبُها المُضيئة، كان لا يخالطُه شكٌّ مِن أنّ سحرًا خاصًّا، وجاذبيةً لا يدرك معناها، ولا يحيطُ بحقيقتها إلّا مَن لامسَها عنْ قربٍ، وعايش روحَها المُتعطّشة للحياة، المتمردّة على المألوف، وإنْ عاداه حسّاده، وقد نمتْ هذه القناعة وثبتَت في ذهنِ الفتى النشط المُنكبّ على مُلامسة واقعِه بعقله قبْلَ يدِه مِن خلال ما شاهدَه بنفسه.

عندما يصعدُ لسطح بيتِهم المُلاصق لبيت الأفندي، يرافق أمّه التي اعتادتْ كجميع نساء القرية، وإنِ اختلفت أعمارهنّ ومستوياتهنّ صبيحةَ كلّ يوم. إنّها طقوسٌ تؤدّيها النساء بعفويّة، ففي الأسطح حياةٌ أخرى غيرُ الحياة التي تدبّ داخل البيوت؛ فعلى الأسطح تربّي المرأة دواجنَها من؛ بطّ، وأوز، وحمام، ودجاج؛ وتخصّص أماكنَ لتخزين زادِ البيت مِن الطعام والشراب اتُّفق على تسميتِه بالخزين، ولا يمكن التغافلُ عن مُحتويات الخزين كالزّبدة والجبن والعسل الأسود، والثّوم والبقوليّات التي تُزرع في الحقول مِن غلال على أنواعها.. عالَمٌ آخر، وفضاءٌ ممتدّ، وأحاديثُ ومنتديات للسّمر والقصص وتبادل الأخبار، وفي أحيان كثيرة لا تخلو من النّميمة، ونشرِ

التقوّلات في حقّ البعض.. كان الفتى يجالس أمّه، ويسمع منها- عن قربٍ- لهذا العالم الغريب.

شعرَ الفتى أنّ تكوين الأفندي وعقليّتَه لم تكن إلّا إفرازًا لتحصيلٍ مُسبَق وتجاربَ محقّقة أنضجت فكرَه، وأرسَتْ لديه ثقافةً فضفاضة. لا يزال مشهدُ الأفندي وهو جالسٌ في نهارِ الشتاء يستقبل مِن أشعّة الشمس دفئها، ومن كتبِه التي يتصفّحها ما تجودُ به من فكْرٍ وأدب. كان في بادئ أمرِه يجهلُ مفرداتِ هذا المشهد المُعتاد والمتكرّر أمامه كلّ صباح، وطرقت ذهنَه تساؤلات: تُرى.. ماذا يفعل هذا العجوز؟ ماذا يقرأ؟ ولماذا؟

أخفى تساؤلاتِه مرّات عديدة، كان عقلُه الصغير لا يقوى على التذكّر، إلّا أنّ ما شاهده في تلك السنوات كان يحملُ- ولا شكّ- ما ستكشفه الأيّام.

شغفَ الفتى بكلّ شيء مِن حوله ومالَ إليه، كان هوسُه بالأفندي يتملّكه، لا شيء يعلمه الآن، ولكنْ لقناعته بأنّ الأفندي أوتيَ نصيبَه من العلم والإدراك فكيف لرجلٍ يسخّر مَرَدةَ الجان، ويطأ نواصي شياطين العُتاة؛ لا يملك من العلم؟!

توهّم- مرّات- أنّ علمَ الأفندي هذا يفوقُ علمَ والده الشيخ بمراحل؛ فهو وريثُ هذا الكنز الكبير، وخازنُ أسراره الذي استحقّ هذا اللّقب عنْ عِلم.

كان الفتى يقلّب محتوياتِ المكتبة، حتى الصناديق التي احتوتْ متعلّقات العجوز الخاصّة، فيجد أثرَه فيها قربَ أوراق الكتبِ الصفراء، حتى الدّفاتر يشمّها، غيّب أنفَه بين صفحاتِها القديمة المُهترئة تأخذه نشوة تمنّى لو دامت لآخر العمر.

شخَصَ شريطُ الذكريات أمامَ ناظريه، حوّلت نظرات الصغير ومرّت أمامه تلك النظراتُ التي اختلسها من خلف السّور الهشّ الذي أقيم مِن أعواد الذّرة ليفصل بين بيْتهم وبيتِ الأفندي، هنا جلس الأفندي وقرأ، وهنا خطّ بيده وكتب، أجهد الفتى نفسَه في تقليد حركاته وسكَناته، كان يعلم كلّ شيء عن الأفندي..

وفي كنَفِ الأفندي، أدرك أنّه يخالط رجلًا أحاطَ بتفاصيلَ كثيرةٍ، فلم تغبْ عنه أيّ منها، كان الأفندي يتعمّد إظهار مهارتِه أمام فتاه، حرصَ الفتى على مجاراته وأظهرَ له من الطّاعة والانصياع ما شجّع الأفندي على مواصلةِ هذه المَهارة بلا انقطاع.

فلمْ يخلُ الأمرُ من مُراهنة بين الاثنين على اسمِ كتابٍ مُعين وتحديدِ موضوعه ومؤلّفه ومكانِه بين الأرفف..

أبدى الأفندي تفوّقًا زادَ من إبْهار الفتى، وأكّد قناعاته أنّ الأفندي يملك قوّةً خفيّة، ومهارةً ليست من مهارات البشر؛ فهناك قوّةٌ سحريّة تمدّه بهذا السرّ.

امتدّت جلساتهما للقراءة والاستماع، كان الأفندي بين الفيْنة والأخرى يخرجُ على التقاليد المُتّبعة، فكانت له بعضُ الاختيارات، تقبّل الفتى هذا الصّنيع لاقتناعه التّام بعقليّته، فربّما قرّبه هذا مِن خفاياه، والتي وثقَ في أنّ الأيام والمعاشرة كفيلةٌ بإظهارها أمامَه.

لاقتِ اختياراتُ العجوز شيئًا في نفس جليسِه الصغير، كانت في أغلبها كتاباتٍ عن التّصوف والرّقائق، حاول الفتى أنْ يربط بيْن هذه الاختيارات وبين جوانب شخصية الأفندي الغامضة، فالرجلُ أحبّ عزلتَه عن الناس، واستغرق حياتَه فيها، فكان بيتُه صومعتَه، وجدرانُها سياجًا يفصلُ ما بينه وبين عالم الناس، حتّى حكاياته وقصصه، حكمُه ومواعظه، خواطره وأفكاره؛ تغذّي هذا المسلك، وتزيد مِن قناعاته. جعل الأفندي لنفسِه فلسفة مُعيّنة ونظريةً في تقبّل العزلة، فهي أشبَه ما تكون بعزلةٍ اختيارية، ونتاج تجارب مَريرة وقاسية مع البشر، وطول أسفار ومخالطة امتدّت لعقود.. أخيرًا، اعتزل هذا الصّخب، وبنى عالمًا لنفسِه لا يشاركه فيه إلّا الأسوياء ممّن اقتنع بِهم.

كان الأفندي يردّد على مسامع فتاه عبارتَه الشهيرة "الوحدةُ خيرٌ مِن جليس السّوء".

حاول الأفندي مرّات عديدة إقناعَ فتاه أنّ عالم الناس مليء بالمُتناقضات؛ خير وشرّ، حلو ومرّ، وعليه أن يحذرَ كلّ متلوّن لَعوب، فهو أشبَهُ بالثعبان، ملمسُه ناعم، وسمّه قاتل.

كان الصبي يُعيره اهتمامَه لدرجةٍ أوصلته إلى الاستعانة ببعض مقولاته، فاستخدمها في جلساتِه الخاصّة مع الرّفاق والأصحاب الذين أعجبتهم كلماتُه، وأسَرَتْهم عباراتُه.. كان الأفندي البطلَ الوحيد الذي استطاع أنْ يستوعب تطلّعات الفتى، وأنْ يجدَ فيه ضالّته المنشودة، فكلّ شيء يشهد بذلك، حتى الغموض الذي اكتنَفَ حياته ولفّ بيتَه كان أشدّ عوامل الجذب والتّشويق.

يردّد اسمه بين الجموع، فيتهلّل وجهُه بالبشر، وكأنّه يسرد فصلًا من فصول قصّةٍ من قصص أبطال القرون الماضية، يغلّفُها أحيانًا كثيرة بعباراتِ المدْح والثناء، يفيض بالتهويل من فرْط عبقرية الرّجل ونبوغِه وفلسفته التي أثّرت فيه، واستلهَمَ منها عالَمه، فحوّله لجالسيه كظاهرةٍ جديرة بأنْ تُحترَم، وأن يوسّع لها في المجالس والمنتديات؛ للاستفادة.. لكنّه لم يسلمْ من سخرية البعض؛ فهذا يهمزُه وذاك يلمزُه ذهابًا وإيابًا، ساعة يتهكّم على سذاجته التي أسْلمته لأنْ يكون أسيرَ فكْرِ رجلٍ عجوز بلغ من العمر أرذَلَه، وتارةً يعنّفونه لأنّه أسلم قيادَه لعجوزٍ لم يبلغ من التعليم مراتبَه، وأخرى تتعالى فيها الضّحكات وأنّ مصيرَه كمصير صاحبه المْسوس، وإنْ لم ينقطع عنه ستحلّ عليه لعنةُ المكان المَسكون بالأشباح والجان، فليس مِن بدّ سوى الإقلاع عن زيارة هذا المكان المَوْبوء، فلا شكّ أنّ بيْن هذه اللّفائف المَطْمورة من القِدَم والطلاسم والعزائم ما يجلبُ على مَن يقرؤها اللّعنة وسوءَ العقاب،

كما أنّ حرّاسها من الجان لن يجعلوا الأمرَ يمرّ بسلام لكلّ مَن تسوّل له نفسُه المساسَ بها.

لم تكنْ تلك المساجلاتُ لتزيده إلّا إصرارًا، وتقوّي تمسّكه وقربَه من الأفندي الذي تشكّلت صورتُه كمُلْهم ومعلّم في مخيّلته الصغيرة، وتأكّد لديه أنّ هذا النّمط من البشر هو القادرُ على إشباع فكْره وتحريك مواهبه.

أخذت حكاياتُ التّصوف وقصصُ شيوخه ومريديه حيزًا لا بأسَ به من مجلس الأفندي، فهو يعرفُ أسماءهم وأماكنهم، حتى ما يُقام لهم مِن موالد، أسرّ للفتى بهذه الأحاديث التي كان تبرز عمقَ الجانب الصوفي من شخصيّته، والتي استلهمَ طبيعتَها من والدِه الأفندي الكبير الذي كثيرًا ما كان يمدّ هؤلاء الدّراويش بالعطايا؛ طلبًا للبركة، وحبًّا لأبناء الطريق والتأدّب في حضرتهم. لم يغبْ عن الأفندي شهرتُهم في الآفاق، كانوا مِن زوّار بيتهم أيّام الصّبا.. بهر الفتى بهذا المسلك الحميد، وبقصصِ الصالحين وروايات الزّهد والإقبال على الهداية، فخصّص وقتًا لمطالعة هذا العلم، واسْتلهام بعض فوائده.

أخذ الأفندي يحبّب إليه هذا الجدّ، ويدلّه على ما ينفعه، أصبح كلّ شيء مِن حوله يلهبُ مشاعرَه ويقوده لأن يكتشف ما حوله. حاول الأفندي أنْ يرشده الطريق، لقد وقرَ في قلبه هو أيضًا عندما زاره لأوّل مرّة، تفرّس فيه النّباهة والنبوغ، واكتشف فيه البحثَ عن ذاته بين الأشياء يحرّكها ويدور معها، يجذبها وينجذبُ إليها.

أسند إليه مهامًّا كثيرة، اتّخذه معاونَه في بعض الأوقات، وأوقاتٍ يدفعه ليكون صاحبَ القيادة، بدأ معه مستمعًا لمختاراته، مُكتفيًا بالإنْصات إليه، وها هو يضعُه تحت الاختبار الحقيقي.

كان الفتى يحاول استثمارَ هذا الشعور، اجتهدَ أنْ يثبت ذاته مع كلّ اختبار، يقبل المنافسة مهْما كان نوعُها؛ فالتجربة والأيّام كفيلة بأنْ تطلق لمواهبِه العَنان، وأن يجدَ مكانه. كان الأفندي يرعاه، ويجدُ فيه الجدارة لأنْ يأخذ فرصتَه.

عاونَه- بدايةً- في تهيئة المكان، واستقبالِ قصّاد الحاجة الذين يقصدونَ المنزلَ سواءً لطلب الأحجبة والطلاسم، وحتى في بعض الأحيان لتشخيص المرض وتقرير الوصْفة والعلاج. كان الأفندي لا يبخلُ عليه بالمعلومات، وبأحوال زوّاره وطبائعهم، وكيف يتعامل معهم عند الضرورة.

أدّى الفتى المطلوبَ منه برضا نفسٍ وطيبِ خاطر، لقد اسْتهواه العمل، شعرَ وكأنّه يقترب أكثرَ من حلمه القديم، حلم الوصول إلى المعلومة الكاملة والشّفرة التي ترشده للطّلسم الأكبر الذي يسخّر به الجنّ والمَرَدة، وتدلّه على مخبأ كنزِه المرصود، فمَن يدري لعلّ أوانه قد جاءَ، والقدرَ يبتسمُ له ويمنحه مُنْيته.

تعلّم عنه الرّموز والطلاسم ومدلولاتِها، وأخذ منه بعضَ الحروفِ السّريانية ومعناها، وأوقات العمل وساعاته. كان الأفندي يمتلك ثروةً

كبيرة من ذخائرِ التراث، مؤلفات في الطبّ الروحاني بطبعاتٍ قديمة، كثيرٌ منها قد خطّ باليد، والبعض منها طبعاتٌ حجرية، ومجموعة منها في طبّ الأعشاب والمُجَرّبات.

تعوّد الأفندي قبل أن يبدأ عملَه على استدعائه، لقد لمسَ فيه الثقةَ والأمانة، لذا لم يبخلْ عليه، وأعطاه ما لم يُعْطِ غيره من أبناء القرية الذين سَعوا جهدَهم للوصول لمكانه بلا جدوى، فسعيُه ليس حبًّا في الأفندي بقدْر رغبتهم في امتلاك سرّه، والسّطو على سحره.

في مرّات كثيرة، كان يطلب منه أن يجعلَ لنفسه كنّاشة يجمعُ فيها بعضَ النّوادر والمُقتطفات مِن أجمل ما قرأ في بطونِ الكتب، وجدَ الفتى هذه الفرصةَ مُوافقة لهواه، غيْر أنّ الأفندي قد أخذَ عليه أغلظَ العهود والمواثيق ألّا يطلب منه في يومٍ ما استعارةَ كتاب أو إخراجه من البيت.

كان المكان مهيّئًا لأنْ يكون ملاذًا للعلم والتلقّي، فالهدوء يخيّم على البيت؛ فضاءٌ شاسع، وعزلةٌ تجعله في منأى عن الإزعاج. نصبَ له الأفندي طاولةً صغيرة وكرسيًّا جانب الدّرج العلوي للبيت المطلّ على الحديقة. كانت كلماتُ والده الشيخ يرنّ صداها في أذنيه كلّما وطئتْ قدماه منزلَ الأفندي: تعلّم من الأفندي ما ينفعُك، حاول أن تستفيد من مكْتبته؛ لعلّ ما تتعلّمه ينفعك وينفعُ الناس يومًا ما، لعلّ الفرصة لا تواتيك مرّة أخرى.

لمْ يفتْه أنْ يعرض على والده كنّاشته كلّما سنحت الفرصة، جعل الوالد يوجّهه ويقوّي من همّته، فكان يحذفُ ويُثبت بعضَ المَنقولات. خزّن الفتى أوراقَه داخل أدراج مكتبِه تلبيةً لرغبات الأفندي ونصائحِ والده، فمَن يدري!!

كثيرًا ما راود الفتى سؤالٌ لا يجد له إجابة: تُرى.. هل يحمل الأفندي شهاداتٍ دراسيةً؟ ما نصيبُ الأفندي وحظُّه من التّعليم؟ فالرجل واسعُ الاطّلاع، قوي الحجّة، متعدّد المواهب..

أرادَ الأفندي أن يقطعَ على خياله السبلَ؛ فقد تعمّد حثّه كلّ يوم على طلب العلم والتضحية في سبيله، فهو السلاحُ الوحيد لمستقبلٍ زاهر، ولا يكنْ مثله؛ فهو اكتفى بالشّهادة الابتدائية، وإن كانت في زمانِها كافيةً لتحصيل وظيفةٍ مرموقة في دوائر الحكومة!!

ابتسمَ الصبيّ عند سماعه هذه النّصائح، وزادت قناعتُه بنبوغ الأفندي، وأنه كسبَ الرّهان على أستاذيّته.

ذائقةٌ وَلّدَت أخرى

كان الأفندي يمتلكُ مَلكات متعدّدة، وبصيرةً نافذة، وإحساسًا مرهفًا، لم يعتَدْ أن يرى مثيلَه بين أهل القرية، سأل نفسَه مرّة: تُرى ما السرّ في ذلك؟!

لقد كانت شخصيةُ الأفندي ثريةً، مليئةً بالمفاجآت التي أخذت الفتى كلّ مَأخذ.. وبات مؤكَّدًا للفتى أنّ ثقافة الرجل ومواهبه المتنوّعة هي نتاجُ تربية وإفرازُ أسرةٍ كان شاغلُها في ذاك الزّمان إخراجَ فتيانها وفتياتِها نماذجَ صالحين للمجتمع.

لعلّ ما ميّز بيتَ الأفندي وجذَبَ انتباه مَن حوله- ومنهم الفتى- حالةُ الغموض التي اكتنفَتْ هذا الحصن المليء بالأسْرار.

كان المارّة يسمعون- عن بُعد- أصواتٍ تنطلق من الداخل، تنفذُ من البوابة الخشبية الكبيرة لمنزلِ الأفندي، يستطيع المتسَمّع بعد عناءٍ طويل- لبُعد مصدر الصوت- أنْ يكتشف حقيقتَه، إنّها أصواتٌ لبشرٍ مخلوطة بنغماتٍ موسيقية، ووصلاتٍ من الإيقاع المنتظم والمتقطّع.

شاهد الفتى هذا الضجيجَ المنبعث، أحبّه بالرغم من جهله بحقيقته، كان الصوتُ يتغيّر علوًّا وانخفاضًا، مساءً وصباحًا.

نسج أهلُ القرى العديدَ من الحكايات التي تسايرُ تلك الخيالات، ومعتقدُهم في الأفندي الذي يخالط الجان ويجاور المَرَدة.

هذا أعادّه مرّة أخرى حين كان قدْ تعوّد- كلّ صباح- أنْ يصعد إلى سطح منزلهم يبحث عن بيْض دجاجاتِ أمّه التي كانت تُلهيه ساعة احتدام العِراك بينه وبين إخوته، ومع مرور الأيام أصبح يؤدّي هذه المهمّة متطوّعًا دونَ إذنٍ مسبَق، ترى هل هو التعوّد، أم انْتهاز الفرصة ليسترقَ السّمع لهذه الأصوات؟ سأل أمَّه ذاتَ مساء:

- أمّي، ما هذا الصوتُ المنبعث من بيتِ جارنا الأفندي؟!

ردّت عليه دونَ اهتمام منها، وهي تمسك إبرتَها تحاول إدخالَ الخيط فيها:

- أيّ صوتٍ تقصد؟

قال الفتى وهو يشدّ كمّها لتعيرَه الاهتمام:

- إنني كلّما صعدتُ لأعلى البيت سمعتُه، هل هو حديثُ الجنّ والمردة مع الأفندي؟!

استغرقت أمّه في الضّحك حتى دمعت عيناها، ثمّ قالت:

- لا يا بني، إنّه صوتُ المذياع.

بدتْ على الفتى أماراتُ الخجل، كيف له أن ينخدعَ بأحاديث السّذّج من القوم، الذين اسْتحكمت الخرافةُ على عقولهم، نعم.. إنّه صوت المذياع. ضحكَ الصغير من بلاهتِه التي ضيّع فيها وقتَه في حرّ الصيف يتلصّص على الأفندي!!

أفاقَ الفتى من وهْمِه، لم تكنْ أصوات المذياع تنقطع في بيتِ الأفندي ليلَ نهار، حتى وإنْ خرج لقضاء حاجة.

ألِفَ الفتى هذه الأصوات، حاول أنْ يستجلي معانيها، ولكن بعد المسافة حالَ دونَ ذلك، لكنّه على العموم خليطٌ من الإيقاع المنتظم مَصحوبًا بأصواتٍ لا تخلو من عذوبة.

كان الأفندي محبًّا للغناء، خاصّة فترة الصباح، يبدأ يومه مبكّرًا بالصلاة، وإعداد وجبة الإفطار، ثمّ القراءة التي أصبحت على فتراتٍ؛ لتقدّمه في السن، وضعفِ بصره التدريجي، كلّ هذا يجري مصحوبًا بأصوات المذياع يصدح بالغناء وإيقاع الموسيقي الذي يملأ المكان، يتنقّل الأفندي بالمؤشّر يجوب بين المحطّات يبحث عن النّغم الصافي والطربِ الأصيل.

شاهده الفتى أكثرَ من مرّة يردّد كلماتٍ يحفظها مِن أغنيات، فبَدا الرجلُ ينفعل ساعةً ويضحك تارة، يتتبّع بطبقات صوته المؤثّرة وشجنِه الذي يعكسه إتقانُه إيقاعَ اللّحن والكلمات من ناحية، وتعوّده التّرداد الذي أكسب

صوتَه الاستغراق حتى النهاية في وصلةٍ حتى يتمّها، كلّ هذا معَ ولَهِ حالةِ الألفة والملازمة.

وها هو اليوم أصبحَ سميرَ هذا العالم، جليسًا للأفندي، شريكًا لعزلته.. لامس عن قربٍ هذا الإحساس الجميل، وأبصرَ عن قربٍ طقوس الأفندي فيه؛ في تذوّق الغناء، تشدّه الكلمة ويسحره اللّحن، ويبهره الصوت.. لم يكن الأفندي مُستمعًا عاديًّا يردّد دون وعي ما تتلقّفه أذنه من أصوات، بل صاحبَ سليقة يحلّل الكلمات، يغوص في اللّحن، ويتعايش مع الصوت.

أحبّ الفتى هذه الخصالَ من جليسه العجوز الذي بعدما لمسَ منه هذه الموهبة؛ سأل الفتى الأفندي ذاتَ مرّة:

- هل الغناء حرامٌ يا أفندي؟

انفعل الرّجلُ واحمرّ وجهُه، وتورّمت أوداجُه، إلّا أنّه تذكّر- حينها- حساسيةَ الفتى؛ فهو الباحثُ عن الحقيقة، ومِن حقّه السؤال.

مسح الأفندي حبّات العرق التي تفصّدت من جبينه، بعد أن خلعَ غطاءَ رأسه، ومرّر منديله على صلعته:

- الغناء يا صديقي يتوقّف على الكلمة واللّحن، وما تثيره من معانٍ، فإذا كانت في حبّ الوطن، أو نشر القيم، أو إبراز المشاعر الصادقة كالحبّ الطّاهر النقي العفيف، أو التلويح بما يسرّ النفس؛ فلا غبار عليها، أمّا ما عداها فهو إسفافٌ يؤذي الأذن، ويتضرّر منه الذّوق السليم.

للأفندي حالاتٌ عجيبة مع الغناء، فمرّة يتحمّس ويسرع في خطواته ساعةَ سماعِه للحنٍ مُعَين، خاصّة تلك التي تتغنّى بحبّ الوطن والوطنية، والتّضحية في سبيل المجد؛ ومرّة تتثاقل خطاه عند سماعِ تلك التي تثيرُ الشجن وتبعثُ الذّكريات، وتحوم حولَ المعاني الإنسانية الرقيقة كحبّ الأمّ والأسرة، وأيّام الصّبا والشباب ومراحل الطفولة والمرح وساعات الصّفا، وأخرى تأخذُ الأفندي إلى عالمٍ آخر، فيبدو عليه التّيه، ويلفّه شرودُ الذّهن، يطرق ساعةً ويصحو ثانية، لا يشعر بمَن حوله، يضع يدَه على خدّه، ويتنهّد حتى يشفق عليه جليسُه من انخلاع قلبه.

إنّها كلماتُ الحبّ والعشق والغرام، وأحاديث العشاق، ولوعة الفراق، وفرحةُ الوصل، وألمُ الاشتياق.. لقد تشبّعت نفسُ الأفندي بالأمل، وحبّ الحياة والتفاؤل في غدٍ أكثر جمالًا، على الرّغم مِن عزلته هذه.

غيّرت كلّ هذه المشاهد من قناعاتِه عن الأفندي، الذي تصوّره- لوقتٍ قريب- شخصًا امْتلأت نفسُه بالسّواد، وتشبّعت روحه بالكآبة والمَلل، وأصبحت روحُه قابَ قوسيْن أو أدنى من الهلاك، بعد أنْ وقعَ صاحبُها فريسة هذه الجدران، وحيدًا مليئًا بالمخاوف والأسى، فإذا به يجدُ نفسَه أمامَ كهلٍ يحيا بعزم الشباب، تجاوز عمرُه السبعين، وفي نفسِه صبْوَة الثلاثين.

شغفُ الأفندي لم يتوقّف عند حدٍّ مُعين، فقد كانت ثقافتُه الفنية تتخطّى كلّ حدّ.. يردّد الكلمات ويحفظ الألحان بمَهارة، ويسردُ سيرةَ المغنّي وحياته

الفنية، ويستعرضُ لمحطاتٍ من حياته الشخصية مثل.. متى ولد، وأين؟ ومتى توفي، وأين؟ كيف عاش؟ وغير ذلك من التفاصيل...

وجدَ الفتى نفسَه أمام شخصٍ موسوعيّ، ذي فطرةٍ سليمة، وحاسّةٍ متفجّرة، تكشف الغثّ من الثمين حتى في الغناء.

ما أنْ يدور مؤشّر المذياع حتى ينبري الأفندي يسردُ التّفاصيل؛ هذه الأغنية أذيعت بمناسبةِ كذا، وأوّل مرّةٍ عام كذا، ملحّنُها فلان، وكاتبُ كلماتها فلان.. في دقّةٍ تنبئ عن عقليّة جامعة لم تفسدها تقلّباتُ الليالي وعصفُ الأيام، وحوادثُ الزمن.

نصّبَ الأفندي موهبتَه للفصل بين مُستمعي الأغاني، كان حكماً قاسيًا لا يجاملُ ولا يحابي فيها، يصدر الحكمَ على الفور دونَ تردّد، لا ينظر إلى أيّة اعتبارات أو مآلات؛ حاكمُهُ الذّوق السليم. اعتاد الأفندي أن يصحّح لَمن يحرّف كلمات الأغنية أو يشوّه لحنَها، ويردّ عليه خطأه.

ترى أحدَهم وقد امتطى حمارَه داخل الدّرب، فيستهويه الطّرب ويغويه شيطانُه- كمُعظم أهلِ الرّيف- فيبدأ وصلتَه المُعتادة مِن الغناء، يهمز حمارَه مرّة، ويصرخ بأعلى صوته مرّة.. يعتقدُ عندها أنّه نجمٌ من نجوم الطرب والفنّ الأصيل، ولا يدري أنّ مِن وراء الجدران، وخلف الأبواب الموصدة مَن يصله هذا السّطو، ويتربّص بالمتعدي ولو مصادفة..

شاهد الفتى أنّ الأفندي تنتابه حالةٌ من الانفعال والضجر عند سماعِه أصوات النّشاز تلك، والعصبيّة عند تجرؤ أحدِهم على تحريف كلماتها أو تمزيق لحنِها بين وصلٍ وفصلٍ يضيع بهاءُ الأغنية ورونقُها المعتاد.. كانت الجُملة التي اعتادَ الفتى سماعَها من الأفندي مَصحوبةً بنبرةٍ حادّة:

– ليس هكذا الغِناء، إنّه تخريب وهدْم، فلو عاش صاحبُ الأغنية لكانَ له الخيار بين قتلِك أو سجنك..

تتعالى ضحكاتُ الفتى التي كان يُخفيها بادئَ الأمر، لكنْ ومع مرور الأيام بدتْ عاديّة لأنّ الأفندي يزداد انفعالُه وتتعالى ضحكاته، وتتصاعد تحذيراتُه للمغني صاحب الحمار الذي اعتاد السيرَ بالدّرب في هذه السّاعة كلّ يوم.

ظنّ الفتى أنّ الأفندي يتصنّع هذا التّصرف، ولكنه تأكّد لديه عكسُ ذلك تمامًا، فأذنُه الموسيقية، وخبرتُه الفنية تأبَيان هذا التّدمير جهلًا مِن المعتدي بالتراث الفني. اعتبر الأفندي نفسَه مسئولًا وأمينًا على هذا الفنّ، ومِن واجبه أن يردعَ مَن تسوّل له نفسُه أن يهدمه.

استأنسَ الفتى لتصرّفات الأفندي وانفعالاته، وأخذ يجاريه ويحاكيه، فكمْ مِن مرّة نبّهه أصدقاؤه على هذا الفعل، فساعة اجتماعه معهم يبدأ في استعراض رأيه الفني. ظنّ الفتى أنّ حالة السكوت التي تنتاب رفاقَه تصدرُ عن انبهار بذوقِه، وإعجابٍ بتمكّنه، لكنّه تفاجئ بأنها مشاعرُ من الامتعاض.

وأخيرًا، وصلتْه النتيجة في رسالةٍ حملها أحدُهم ناصحًا إيّاه أن يقلعَ عن هذا الهُراء الذي يتسبّب في تعكير صفو جلسائه. أدرك الفتى أنّ الفرق ما بين ذوقِهم وذوقِ الأفندي كبير.

شتّان بين مَن عاش يتلذّذ بالطرب الأصيل، يؤرّخ لمسرّته ويجتهد في الذّود عنه، وبين مجالسٍ خلتْ مِن الذّوق العالي وروحه. جعل هذا التصرّفُ من الرّفاق الفتى أكثرَ تحاشيًا لهم، وشيئًا فشيئًا تنحّى عنهم، وكلّما صادفهم كان يكتفي بالسّلام، ومع الوقت تحوّل الكلام إلى إشارة، حتى جاء اليومُ الذي تناسى فيه هؤلاء، وأصبح الأفندي وأرشيفُه الفنيّ المُمتع مهوَى نفسِه، وموضعَ أنسِه، وسلواه الوحيدة.

قراءةٌ فاشلة لتذكرةِ الأنطاكي!!

لا يزال الأفندي يُبهر فتاه، ولا تزال قناعةُ الفتى تترعرعُ يومًا بعد يوم. وثقَ الفتى في قدراتِ شيخه العجوز، وأيقنَ أنّ تعاقب الأيام والاقترابَ من عالم الأفندي سيفتحُ أمامه عوالمَ أشبه بحكاياتِ ألفِ ليلة وليلة..

كانت عينا الفتى ترصد كلّ ما حوله؛ محتويات المنزل، حركات الأفندي، هواياته المتعدّدة.. جعل الفتى خيالَه يحلّق بعيدًا، يجوب مخبأ الأفندي، أدرك أنّ عزلته لم تكنْ وليدةَ الصّدفة، أو محضَ العبث؛ فهذا الرّجلُ صاحب تجارب جديرة بأنْ تحترَم..

سأل نفسَه بادئ الأمر: ما الجدوى أنْ تكتظّ أرفف المكتبة بهذا الكمّ الهائل من كتب الأعشاب، والطبّ الشعبي!؟

أمسك بيده كتابًا كبيرَ الحجم ذا أوراقٍ صفراء، لم يُفتَح منذ فترة لعلّها ليست بالبعيدة، لاحظَ الفتى على أوراقه بعضَ تدويناتٍ تشير إلى ملكيّة صاحبه، إنّه أحدُ مقتنيات الأفندي الكبير، أوقفه ضمنَ ما أوقف...

إنّها تذكرة داوود الأنطاكي، سِفْرٌ ضخم في طبّ الأعشاب وتجاربها، وتصنيفات العلماء فيها مِن العرب والأجانب، لاحظَ بعض التدوينات على الهوامش الجانبيّة من الكتاب تعودُ إلى مُددٍ زمنيّة متفاوتة، وبدا ذلك من نوعيّة الخطوط التي خطّت في الصفحات..

استغرق الفتى في القراءة، اتّخذ لنفسه وضعيّةً مستقرّة على الأريكة تمكّنه من المطالعة لمددٍ طويلة. كان المحتوى يستحقّ المتابعة، تناثرت الفوائدُ والتجارب بيْن صفحات الكتاب، كانت الملاحظاتُ المكتوبة جانبي الصفحات تنبئ أنّ صاحبها واسعُ الاطّلاع، غزير الثقافة، لم يفتْهُ أنْ يخطّ أسفلَ بعض الفقرات والأسْطر بألوانٍ جذابة، وقد ميّزها بكلمة واحدة "مهمّة"..

اكتظّت الصفحات بالعديدِ من الوصفات والمُجَرّبات الطبية التي اعتمدتْ على توصيف عناصرها من الطبيعة الخالصة، سواءً من عالم النبات أو الحيوان أو الطير، أو من أعماق البحار.. وجدَ الفتى ضالّته في هذه النوعيّة مِن المؤلّفات، صادف في أحدِ المرّات أنْ مرضت عينُ الفتى نتيجةَ السّهر وكثرة المطالعة، يبدو أنّ صاحبنا لم يحسب لراحتِها حسابًا؛ فقد كانت مطالعتُه في المكتبة تمتدّ لساعات طوال دونَ أنْ يأخذ قسطَه من الراحة.. غطّت الحمرةُ عينيه، وبدأ سيلٌ من الدّموع ينهمرُ على خدّيه، توهّم أوّل الأمر أنّ عينَه أصابتها الأتربةُ التي تثيرها رياحُ الشتاء في هذه الأوقات خصيصًا، وسيزول ألمُها حتمًا...

شغلتْه شكوى فتاه، أسرعَ ناحية الحديقة، ثمّ عاد وهو يحمل بين يديْه شيئًا ما، تساءل الصبيّ عنها فأخبره بأنّها أوراق السّدب، استغرب الفتى من ردّ الأفندي قائلًا:

- السّدب! وما السّدب هذا؟

ضحكَ الأفندي لغياب المعنى عنْ فتاه، وقال بنبرةِ الواثق:

– السّدب يا صديقي تعني بالعربية الفصحى: القرع، أو الكوسة عند العامّة، هل فهمت؟

أحضرَ الأفندي إناءً نظيفًا بعد أن غسلَ تلك الأوراق، ثمّ وضعها بداخله، وبدأ يغْليها.. وبعد فترة أحضر زجاجة صغيرة، أفرغ فيها المحتوى وتركها تبرُد، ثمّ اقْترح على الفتى أنْ يقطر منها في عينه، فهي شفاءٌ لعينه مِن هذه الحُمرة.

شعر الفتى بالرّيبةِ وعدم الاطمئنان، فهذا أمرٌ خطير جدًّا، ولا يحتمل التّجريب..

حاول الأفندي طمأنةَ الفتى المذعور أنّ هذه الوصفة مِن مجرّبات القدماء، والذين وضعوها لمرضاهم، وكانت نتائجها غايةً في الدّقّة..

أخيرًا، استجاب الفتى وبدأ يقطّر من المحتوى الغريب داخل عينيه، شعرَ الفتى أنّ سهمًا اخترقَ عينه، صاح صارخًا من الآلام، لكنّ الأفندي أكّد أنّ هذا من أثَر الدواء، وفاعليته المضمونة.. أغمضَ الفتى عينيه، وبدأ يفركُها بيديه، تفاعلَ الأفندي وأخرج مِن جيبه منديلَه القماش، ومسح قطرات الدّواء من عينيه، لكنْ دونَ جدوى، فقد تغلغلت قطراتُه في حدقتها، ولا فرارَ من الألم..

تظاهرَ الفتى بالخروج ناحيةَ الحديقة، وفي غفلةٍ من الأفندي شرع في إدارة طُلمبة المياه يغسل عينيه بعيدًا عن العجوز الذي اقتنع بدوائه السّحري القادر على إزالة الألم.

وبعد دقائق، سأله الأفندي بلهجةِ الطبيب الحاذق الذي يطمئنّ على صحّة مريضه قائلًا:

– لا بدّ أنّك تحسّنت الحين، اطمئنّ يا عزيزي فوصفاتي مُجرّبة.

لم تتحسّن عينُ الفتى مع الأسف، لكنّه تظاهرَ بالشفاء إرضاءً لخاطر الأفندي الذي بدا مُنتشيًا، شعر الفتى وكأنّه أمام أحدِ أطبّاء القرون الوسطى. علّم الأفندي زجاجات الدّواء بعد أنْ أحكم إغلاقها لتستقرّ فوق طاولة صغيرة نهاية الممرّ، طالبًا من الفتى معاودةَ تقطير عينيه وقتَ الحاجة.

أحسّ الفتى أنّ عينه لا تقوى على الإبصار، استأذنَ الأفندي وخرج مسرعًا إلى منزله، وما أنْ رآه والدُه الشيخ حتى فزع لمنظره، أيقنَ أنّ الأمر يحتاج زيارةً لطبيب العيون، وقد كان.. فقد أكّد الطبيب أنّ خطرًا كان يتهدّد عينه جرّاء تعرضها لمحلولٍ خطير أوشكَ أن يفقدها الرؤية مرّة أخرى.

ارتعدَ الفتى مِن كلام الطبيب، ولكنّه حمدَ الله على نجاته، بعد أنْ أقسم لنفسَه– بأغلظ الأيمان– ألّا يعود لمثل هذه الفعلة مرّة أخرى مهْما حدث.

كان الأفندي لا يكفّ عن استعراض مهاراتِه، وممارسة مهنتِه المزعومة متوهّمًا أنّه فطِنَ أسرارَ الطب، وأنّ وصفاتِ القدماء قد استقرّت بين يديه؛ ففي مكتبته ما يُغني عن زيارة الطبيب. شاهد الفتى الكثيرَ من الحالات الحرجة التي كانت تأتيه لتلقّي علاجها، وأضحكه غرورُ الأفندي الذي اقتنعَ هو قبْلَ مرضاه أنّه لا يقلّ مهارةً وصنعة عن أي طبيب..

فهذا فتًى قد شجّ رأسَه حجر، وسالَ دمُه حتى وصل أذنيه، جرّته والدتُه لمنزل الأفندي الحكيم، وما أنْ شاهده حتى طمأنَها، فالحالة لا تستدعي سوى حفنةٍ من البنّ وعصًا صغيرة يربط بها الرّأس مِن نزيفها!! وهذا يأتي محمولًا على الأكتاف فقد استقرّت في رجله شوكةٌ كبيرة، ولا سبيل إلى إخراجها، فيَخرج لهم الأفندي من بين وصفاته بخرقةٍ سوداء كبيرة استقرّ فيها شيء أشبه باللّحم المجفّف، إنّه دهن القطط، ذلك الدّواء السحري الذي يربط على موضع الشّوكة المستعصية فيخرجها في غمضة عين!!

وهذه زرف من النسوة طرقْنَ بابَه في ساعةٍ متأخّرة من الليل تحمل إحداهُنّ صغيرًا يصرخ، يملأ بكاؤه الأرجاء، شكت حالتَه للأفندي فقد اعتزل اللّعب وهجر الرضاعة، فما السبيل لإسكاته؟ يعطيها الأفندي ورقةً صغيرة أشبه بلُفافة التبغ، إنّها أشواك القنفذ يبخّر بها الصغير فيسكت عنه البكاء وينام حتى الصباح قريرَ العين..

بدأ الأفندي يستقبل يوميًّا مرضاه ممّن يداويهم بالمجّان، وفي أحيان كثيرة

كانت الوصفاتُ تستدعي منه شراءَ قليل من اللّوازم التي تستعمل في حالاتٍ بعينها كتنظيف الجروح، والتي تستدعي شراءَ القطن للغيار، والأربطة الطبيّة والمطهّرات والمراهم وغيرها، وهذه أيضًا كانت تتمّ بالمجّان، ناهيك عن وصفات الحمّص المدقوق مع السكر التي كانت توصَف لَمن يحفظ القرآن من الصّبية الصغار، أو مَن يدرس في الكُتّاب من أطفال القرية زعمًا منه أنّها تقوّي الذاكرة وتجلب الذكاءَ لمتعاطيها..

كان الفتى يحضر- بشكلٍ مستمرّ- زيارات المرضى، ويرى براعةَ الأفندي في إقناع زوّاره، تفحّص وجوه المرضى ساعةَ مُناولتِه الوصفة لهم فيزدادُ عجبُه، ولكنّه كان بين الحين والآخر يتحسّس عينَه، ويحمدُ الله على السلامة.

ليالي السّمر

منذ أنْ وطئت قدمُه منزلَ الأفندي شعر وكأنه قد صار جزءًا من المكان، انتابتْه- بادئ أمره- قشعريرةٌ، سرعان ما زالت، فقد كانت حكايات المجالس لا تزال عالقةً في ذهنه.

وما زال عقله لا يصدّق ما تمّ وما حدث، وما زالت الأسئلة تترى عليه وكأنّها لم تجدْ إجابة لها!! وكأنّه لم يلجْ عالمَ الأفندي حتى الآن!!! وهو أيضًا يسمح لها أن تنساب على ذهنه بين الفينة والأخرى فيعجبُ لنفسه: كيف جاءته الجُرأة أنْ يخطو هذه الخطوات؟ كيف يذهب طواعيةً إلى المجهول؟ كيف يقضي وقتَه في وكْر الجنّ والشياطين؟ هل يستطيع أنْ يبقى في هذا الفضاء الممتلئ بالرّعب؟ وهل الأفندي سيستقبلُ وجودَه من الأساس؟ وما طباعُ ذلك العجوز المنطوي على نفسه؟ كيف سيكسب ودّه وينالُ عنده الحظوة، أم أنه سيفتح على نفسه بابًا للهلاك؟

كان الفتى يحاول أنْ يتجاهلَ هذه الوساوس التي تحوم حول رأسِه، يتصارع مع نفسه، وعقله الذي لا يكفّ لحظة عن طرح ملايين الأسئلة التي يبحث عن إجاباتها.

كان حديثُه مع والده بمثابة المسكّن الذي خفّف من حدّة هذا الهلع، وبدّد جبالَ الخوف التي جثمتْ على صدره تخنقُه في نومه وتؤرقه في يقظته، فكلّما عاد من مجلس الأفندي آوى إلى فراشه، ظنّ والدُه أنّه مجهَد، فيؤثرُ عدم إيقاظه راحةً له، لكنّ الحقيقة أنّه يستغرق في مخاوفه، ويتقلّبُ في كوابيسه التي تقضّ عليه نومَه، وتلتهمُ كلّ وقته.

حاول الفتى أنْ يتمالك نفسه يحثّها على التحلّي بقليل من الصّبر والشجاعة، فقد اختار بنفسه هذه التجربة، وسلك هذا الطريق طواعيةً.

كان منزل الأفندي مهوَى أحلامه ومفزعَها في ذات الوقت، لكنّ كلمات والده في آخر حديثٍ دار بينهما حملت لقلبه ما يسكّن روْعَه، وجعلته يتمالك نفسه. كانت رغبتُه في الاستمرار تغالب مخاوفه، وتقاوم ترقّبه، يطرح على نفسه دائما الأسئلة، لا يكلّ ولا يملّ، يجيب على أغلبها بنفسه: لعلّ الأفندي قد وثقَ فيّ، واطمئنّ لي، وآنس لوجودي، فليس من السهل أن يجلبَ له المتاعبَ وهو صديق والده.

وبمرور الوقت، وجد الفتى نفسَه وراحتها في حياته الجديدة، ارتوتْ روحُه من عبق المكان، كان لا يطيق الابتعادَ عنه لساعة، يذهب لقضاءِ حاجات والدته، ويعود مسرعًا، يتفحّص المكان، يتلمّس الجدران، يتحسّس المكتبة والأثاث، يغمض عينيه، ويأخذ شهيقًا طويلًا يملأ بهوائه رئتيْه، ولو استطاع ألّا يُخرجَه لفعل!!

والأفندي يتابع تعلّق جليسِه بالمكان، وبه، فكان يشجّعه ويفتح أمامَ عقله الناضج وبصيرته المستنيرة ما يدفعها إلى السّمو والارتقاء سواءً بالمطالعة والقراءة وبناءِ عقله وذوقه، أو بأحاديث الكبار التي لا تخلو من تجربةٍ استفاد منها الفتى في حياته فيما بعد.

وفي ليالي الصيف، كان الفتى يجد أنسَه بالقرب من الأفندي، ويعثرُ على ما يشتهي من حكاياته وذكرياته التي كان يفضي بها إليه، ويخصّه بتفاصيلها. تعلّق الفتى بالأفندي، ورأى في حكاياته مستودعَ الحكمة التي تغنيه عن مجالسة السّذّج من أهل القرية، ممّن اعتاد سماعَ سذاجتهم، ففي حكاياتِه سلوى عنهم.

أخلص الفتى في اسْتماعه، كان يُنصت لحكايات الأفندي، يُعيرُه من اهتمامه البالغ ما يكفي. أخيرًا، تملّكه الحبّ فطارده في منامِه ويقظته، ولعلّ مِن فرْط محبّته وإخلاصه لهذه الجلسات ما كان يعوّد نفسه عليه مع العجوز، فهو يستمع للقصّة أكثرَ من مرّة في اليوم.

كان الأفندي قد بدتْ عليه علاماتُ الكبر وأماراتُ الشيخوخة... وكانت مرويّاته تتكرّر دونَ وعي أو حساب، ولعلّ هذا بحُكم تقدّم السّن، فلا لومَ عليه.

اعتاد الفتى أنْ يبدو أمامَ الأفندي وقصصِه المتكرّرة بمظهر مَن تملّكه الذّهولُ والدهشة، وكأنه يسمعها لأوّل مرة، فلا يداري انفعاله، ولا يخفي

تجاوبَه المتعمّد والمفتعَل مع أحداثها، حتى اندمج في التّظاهر الذي كان يدفعه أحيانًا لأن يطلق بعضَ الضحكات أو تتناثر من عينِه العبرات، أو يقف في صالةِ البيت يصفّق مِن هوْلِ وحرارةِ المشهد المرْوي، كان هذا يدفع العجوز اندفاعًا ليُكمل حكايته، ولا مانعَ مِن أن يطعّمها ببعض الحركات الانفعالية التي كانت في بعض الأوقات تصلُ إلى تمثيل حركات الرّفس والضّرب، والكرّ والفرّ، الذي اعتاد أداءها بين الحين والآخر.

كان الأفندي يجدُ في فتاهُ- المُنصت لحكاياتِه- جمهورَه الوحيد، فكان لا يكتمُ شيئًا عنه مهْما كان مِن أتراحه وأفراحه. وفي أثناء الحديث، يطرق الأفندي لحظاتٍ يمرّر يدَه على جبهته العريضة، يدلّكها بشدّة.. راودته ذكرياتُه القديمة في مصنع السّكر بـ"قوص"، فلحِكايات الأفندي بقوص مذاقُها الخاص وعبقُها المختلف، فقد قضى هناك أحلى أيّام حياته.. كان موظفًا بعنبر الإنتاج، شهدَ فيه ذكرياتٍ لا تخلو من الطّرافة والتندّر والحزن والفرح في أغلبها.

كان الأفندي في أحيانَ كثيرة يتفاخرُ بهذه الذكريات، ويجد كيانَه فيها، إنّها من أجمل سنواته.. عوّد الفتى نفسَه سماعَ هذه الذكريات، وعاها وأحصاها حتى حفظَها عنْ ظهر قلب.. لكنْ لسماعها من الأفندي مذاقٌ مختلف.

ملأ الأفندي حكاياتِه بجميع عواملِ الجذب والتشويق التي تتخطّف المستمع، وتأخذه في عوالمَ أخرى، حتى أنّه جمع لها قسطًا من الخُرافة. كان

الفتى يعجبُ بهذا الأسلوب، فالأفندي أوتيَ من الذكاء في تنويع الحكايات الذي يعوّض سامعَه المللَ من طول الحكاية.

ومِن أعجب ما سمعه منه حكايةٌ ظلّ يردّدها الأفندي باستمرار، والفتى يتململُ في مطلعها، ثمّ لا يلبث أن يجدَ الاستماعُ طريقَه إليه.. يحكي أنه وبينما كان يمرّ بين عربات القطار التي تحمل القصب يتنقّل بين قضبان القطار تحتَ أعمدة الإنارة، حتى وصل إلى مكانٍ مظلم، وبينما هو في طريقه.. وإذْ بيدٍ حديديةٍ كبيرة تقبض عليه، وتحوطُه من وسطه، فيحاول أنْ يتملّص منها، ولكن دون جدوى، فتهوي به في الفضاء لمسافةٍ لا يعلمها إلّا الله، ثمّ تسقطه على الأرض؛ فيغشَى عليه، وبعد الإفاقة يفتّش في جسده فلا يرى إلّا بعضَ سجحاتٍ بسيطة في يدِه، مع كسرٍ في غطاء ساعةِ يدِه.. فيستمرّ الأفندي في تحدّيه الصريح لهذه الأذرع الحديدية بكلّ شجاعة وقوة وإقدامٍ مُعلنًا عدمَ الخوف منها، على الرغم ممّا ناله منها من الأذى، وصرخ فيها بصوت عالٍ بأنّ قوّة الله فوق كلّ قوّة، وأنّه لا يخاف إلّا من خالقه، ويبدأ في قراءة آية الكرسي، التي تلاشى أمامها هذا المخلوق الحديدي.

لم تخلُ أحاديثُ السّمر وليالي أنسِه من طقوس الأفندي المفضّلة؛ إنّه برّاد الشاي المغلي، وأوراق النعناع الجميلة التي تبعثُ في شاربها النّشاط وتدبّ فيه الحيوية. أحبّ الفتى شربَ الشاي من يدِ الأفندي، وتعوّده بعد أن قاطعَه

لمدّة طويلة لمرضٍ ألَمّ به، لكنْ لشاي الأفندي مذاقُه الخاص، كان الرجل قد أوتي سرّ صنعةٍ أكسبت الشايَ مذاقَه الخاص.

أصقلتِ العزلةُ موهبةَ الأفندي، فكلّ شيء في الشاي بمقدار مُعيّن سواءً السكر أو الشاي أو مقدار الماء المغلي الذي يتناسب وفنجان الشاي، فالمحتوى مُتناسب بلا زيادة أو نقصان، كلّ شيء محسوبٌ بدقّة، ومع مرور الوقت كان الفتى يراقبُ الأفندي ويشغل بالَه بمقاديره حتى أتقنَ هذا السرّ دونَ أن يسأل عنه، زوّده هذا الجرأةَ أن يتطوّع لعمل الشاي في منزلهم، خاصّة أنّ والده الشيخ كان يشجّعه، وكثيرًا ما يستهويه تناوله من يدِه، خاصّة في ليالي الصيف.

كان لمنزل الأفندي خصوصيّتُه، ومميّزاتٌ لم يجدها في بيتٍ من بيوت القرية، حتى في بيتهم الملاصق على بعد أمتارٍ قليلة. لعبت المساحةُ الشاسعة دورَها إلى جانب الحديقة الأمامية التي امتلأت بصنوف المزروعات والتي بفضْلها تحوّل المنزل القديم إلى منتجعٍ يفيض بالهواء صيفًا، ويعجّ بالدّفء شتاء.. ساعدت هذه الظروف الفتى في التأقلم مع هذا العالَم الجديد فلم يجدْ صعوبة تحولُ دون استقراره وتوطّنه؛ فكلّ شيء يسير وفق هواه.

وبيْن برودة الهواء العليل، وكؤوس الشاي المُنَعنع كان يطرق بعضُ الثقلاء من مُتطفلي أهل القرية مجلسَ الأفندي بيْن الفينة والأخرى؛ هربًا من جيوش البراغيث والبعوض والحَرّ الذي يتسلّط عليهم ينهشهم في منازلهم،

فلم تخلُ أمسيةٌ من بعض هؤلاء. اعتاد الأفندي تثاقلَهم وفضولهم الذي كان في أغلب الأحيان يقابَل بالجفاء والصّدود، ولكنّ هؤلاء كانوا يصرّون على إظهار التغافل والتغابي طمعًا في كسبِ المزيد من الوقت، وإن كان الأفندي يَظهر بعضَ الأحيان أكثرَ تحاملًا عليهم زجْرًا ونهْرًا، ولكنْ أنّى له هذا!!

لم يفهمِ الفتى– أوّل أمرِه– ما يجري مِن حوله، وإن كان تفسيرُه لتحامل الأفندي مردّه قليلٌ من التعالي الواضح منه، كان في أحيانَ كثيرة يطلب من الأفندي الانصرافَ فيكسو وجهَه الحزنُ، وتصرعه خيبةُ الأمل بعد أنْ وجد مِن تصرّفات الأفندي قسوتها من هؤلاء، كان الفتى يظنّ بهؤلاء الخيرَ وحُسن النّية...

وفي اليوم التالي، كان يتكرّر نفسُ المشهد دونَ زيادة أو نقصان، لم يجدْ لهذا الأمر تفسيرًا يليقُ من جانب الأفندي، فلا ثقلاء المجلس يمتنعون عن حضورهم، ولا الأفندي يقلع عن هجومِه الفظّ عليهم، ولا هو يستطيع إخفاءَ ما بداخله من مشاعر الأسى والحزن.

وجدَ الأفندي من الفتى تغيّرًا في سلوكه، فهو دائمًا ما ينصرف مبكرًا، وهذا ما لم يألفْه، أدرك بخبرته أنّ الفتى يبحثُ عن إجاباتٍ لتصرّفاته مع الثقلاء الذين يقتحمون مجلسَهم كلّ مساء.. قال له ذاتَ مرّة، وقد همس في أذنه:

– صديقي، لا تحزن؛ فمثل هؤلاء لا جدوى مِن نفعهم، والأسلمُ لك أنْ تعرف حقيقتهم وتؤثرَ السلامة بالعزلة عنهم قدرَ المستطاع.

هدأ الفتى قليلًا، لكنّه اطمئنّ في النهاية لحديث الأفندي، فقد عرفَه عنْ قُرب؛ لا يعرف المجاملةَ في الحقّ، علاوةً عن تجربته التي امتدّت لعقود، فحريٌّ به الإنصاتُ في حضرته، خاصّة إذا كانت هذه مِن وصايا والده المتكرّرة...

ثمّ كان ما أكّد له أنّ الأفندي على صوابٍ فيما يفعل، ووجد مِن قسوته معهم ما يبرّرها؛ ففي يومٍ من أيام الصيف جاءت إحداهما تطرقُ الباب بحجّة مساعدتها في كشفِ سرقة حليّها، ومعرفة السارق، دخلت تتفحّص المكانَ بلا خجل، وعينُها تجوب المكان، ثمّ قالت:

– مساءُ الخير يا أفندي، لقد دلّني أولادُ الحلال على الحضور إليك لتساعدني لأجدَ مَصاغي، أظنّه سُرق، وإنّي أشكّ في الجيران.

تغيّر وجهُ الأفندي من حديثها الغامض، كيف لها أنْ تصدر حكمًا مُسبقًا دون علم!!؟ ولماذا إذًا جاءته تطلبُ المساعدة في كشف ملابسات الحادث؟!

كان مِن عادته ألّا يتعجّل الأحداث، ولكنّه كان صاحب نظريةٍ زكّتها العزلة ونمّتها الوحدة.. كانت المرأةُ تختلس النظرَ باستمرار إلى الفتى

الصغير، لكنّه لم يلقِ لها بالًا وانشغل في تصفّح كتابه، ولكنّه لم يخفِ انزعاجَه لوقاحتها، طالَ الحوار لدقائق.. وأخيرًا انصرفت على وعدٍ بلقاء قريب وجلسةٍ لكشف السارق، حيّاها الأفندي وأغلق خلفها الباب، وظلّ واجمًا لفترة، ثمّ قال لفتاهُ:

– ما رأيك، هل المرأةُ جادّة في حديثها؟

مطّ الفتى شفتيه قليلًا، وقال بلا اكتراث:

– ربّما، وفي المرّة المقبلة سنرى.

ومضتِ الأيام، وجاء مَن يطرق بابَه بعنف، جرى الفتى مسرعًا ليفتح الباب، وجد نفسَه أمامَ شخصٍ يتطاير مِن عينيه الشّرر، إنّه جارُهم الحاج مصطفى تاجر المواشي، طلبَ الإذن بالدخول، ولمّا استوى في جلسته، نظر إلى الأفندي قائلًا:

– لي عُتبٌ عليك يا أفندي..

ابتسم الأفندي وهو يقول:

– لماذا، خيرًا يا حاج؟

قال: وهل علمتَ على أهلِ بيتي مِن سوء، فقد نما إلى مسامِعِنا أنّك تتّهم أبنائي بسرقة حليّ جارتنا.

هبّ الأفندي من مجلسه وهو يصيح كالمسلوع، وقال لفتاهُ:

– انظر، ألمْ أقل لك لا خيرَ يُرجى مِن هؤلاء! فلو استطعت أنْ أسدَّ هذا الباب بالأحجار لفعلت.

التفتَ الفتى إلى الحاج مصطفى موضّحًا له الأمرَ بهدوء، تلعثمَ الرّجلُ وقد احمرّ خجلًا من سوءِ فهمه، وطلبَ من الأفندي أن يسامحه على ما بدرَ منه، فهو يعلم أنّ هذه المرأة لا يأتي من ورائها إلّا الشّر. انتهى النّقاش بعد أن اقتنعَ الرجل بحُسن نيّة الأفندي وتفاصيل ما جرى.

التزم الأفندي الصمتَ الطويل، وبدتْ على ملامحه آثارُ الإعياء، طلب من فتاهُ أنْ يوصله إلى سريره، فحالتُه سيئة ولا يقوى على السّهر.

تمدّد الأفندي على فراشه، والفتى جالسٌ على كرسي إلى جانبه، يحاول إخفاءَ دمعته التي ترقرقت تملأ عينيه، أخيرًا اقتنع صاحبُنا بما فرضه الأفندي على نفسِه من عزلة.

نظر الأفندي إلى صديقه، وقال له:

– لقد تعلّمت في حياتي قاعدةً ذهبية، أريدك أن تطبّقها على نفسِك فتسلم في الحياة؛ فالوحدةُ خيرٌ من جليس السوء.

وبعدَ مدّة أسلمَ الأفندي نفسَه للنعاس، ظلّ صاحبنا ينظر إليه مرّة، ويُغمض عينيه أخرى، وأخيرًا طاف حوله سلطانُ النوم، عندها قرّر أن

يستسلم له، وعلى بعد خطوات جلس قليلًا على الأريكة الكبيرة الموجودة بالصالة، ثمّ مدّد جسده فغاب عن الوعي، ولم ينتبه إلّا والأفندي يوقظُه لصلاة الفجر.

الطّاهي العجوز

صقلت الغربةُ، ونمّى الترحالُ مواهبَ الأفندي، جعلَاه يمتلك قدراتٍ خاصة، يؤثّر في جلسائه، ويجذب قلوبَهم إليه جذبًا..

لم تكنْ حكايات الأفندي ولا مكتبتُه، ولا بيتُه المسحور ولا حديقتُه الجميلة، ولا كؤوس الشاي؛ تستهوي الفتى لوحدها.. اكتشف الفتى أنّ للأفندي ذوقَه العالي، وخبرتَه الكبيرة في الطّهي والتفنّن في وصفات الطبخ، اعتاد الفتى طعامَه، وسُحِرَ بتنوّع مائدته التي وإنْ بدت بسيطة بعض الشيء- كونها لعجوزٍ منعزل- إلّا أنّ جودة الطبخ وتعدّد الأصناف وحرصَ الأفندي على تقديمها بالشّكل الجمالي الذي يخطف القلوب قبل العيون؛ هو سرّ الصّنعة.

كانت أوّلُ وجبةٍ من نصيب الفتى على مائدة الأفندي لطبقٍ من الباذنجان المطبوخ "المسقّعة".

طلبَ الأفندي من فتاهُ مساعدتَه في تحضير المائدة بوضع المفرش المخصّص للسفرة، وهي طاولة متوسّطة حُفّت بأربعة مقاعد خشبيّة غايةً في الجمال، تعودُ- فيما يبدو- إلى والدته.

حرص صاحبُنا على مراقبةِ الأفندي أثناء طبخه، فهو يوقن في قرارةِ نفسه أنّ وراء الرجل سرٌّ كبير، يتمدّد كلّ يوم ليشمل كلّ جزئيةٍ من جزئيّات حياته، صغرت أم كبرت..

أعجب بنظافته التي وصلت لحدّ الوسوسة، يهرَعُ إلى غسل كلّ ما يستعمله مِن أدواتٍ في المطبخ بالماء والصابون، كلّ شيء يوضع في مكانه الذي خُصّص له، وفي ترتيبٍ عجيب بنظامٍ لا يقبل المُساومة.

ولعلّ ما ميّز مطبخ الأفندي استعمالُه أنواعًا عديدة من التوابل والبهارات التي فاحتْ رائحتها لتعبق أرجاء البيت، فهذا كمّون وهذا فلفل بأنواعه، وهذا ورقُ الغار، ومعه مسحوق الكزبرة، تشكيلةٌ تبدو أمامَ الداخل إلى المطبخ، وضعَها صاحبُها بطريقةٍ تجذبُ الانتباه بعد أن خصّص لها أوانٍ صغيرة، كان كلّ شيء يجري بحكمةٍ، حتى توابل ومساحيق المطبخ طالتها يدُ الأفندي الحكيمة!

ربّما كان تعاقبُ الأيام، وتردّد التجارب كفيلًا بأنْ يكسب الطّبخ شهيته، ويحفظ له طعمَه اللذيذ، فلا زيادة أو نقصان في المقادير.

اعتاد الفتى رؤيةَ مائدة الأفندي متزيّنة بأنواع من الخضروات والمقبّلات، فالخضروات متوفّرة بكثرةٍ بحديقة المنزل، خاصّة أعواد الجرجير والكرفس والخسّ. اكتستِ المائدةُ بأطباق الحساء التي أكسبتها شهيّتها، ولكنّها لم تُغنِ عن طبق السّلطة الجميل الذي كان يبدأ به طعامَه ويختم به..

زادَ إعجاب الفتى بالأفندي وبمعرفته التي لم تغفلْ مسائل الطهي وإعداد المائدة، كان الشيخ يوصيه بتناول كمياتٍ كافية من الخضروات مُعتبرَها الصديقَ الوفي للجسم.. لازَمَ الصبي هذه العاداتِ مع أسرته حتى تعوّدها أهلُ البيت جميعًا، فلم تخلُ بعدها مائدتهم من أصنافها.

لم يثقِ الأفندي كثيرًا في البضاعة المعروضة بدكاكين القرية متعلّلًا بحجّته الدائمة التي أكّد فيها مرارًا أنّها غير مأمونةِ المصدر. لقد غرس الأفندي هذا التوجّه في نفس فتاهُ فلزَمَه طوال حياته، فكلّما خلا بنفسِه في مطبخه تذكّر أيّامه وترحّم عليه.

شغلت كلُّ قطعةٍ في مطبخ الأفندي حيزًا جميلًا، تركت بصمتها في ذاكرة الفتى منذ أن دخلَ هذا العالم، فالآنيةُ المتراصّة أعلى الرفّ الخشبي العتيق تعود ملكيّتها إلى والدة الأفندي، وقد ورثها عنها بطبيعة الحال، يبدو أنّ صاحبتها انتقت كلّ قطعةٍ منها بعناية وذوقٍ وصبر، كانت كلّ قطعة تُبرهن للناظر إليه كمّ الثّراء والنعمة التي عاش فيها أهلُ هذا المنزل.

عالمٌ آخر من حياةِ الرّفاهية التي عاشتها عائلة الأفندي، ولكنّ الزمن لعب لعبتَه، ودارت أيّامُه دورتَها.

أحبّ الأفندي والدتَه، وتعلّق بها كثيرًا فعاش على ذكراها، لم تغبْ عن خاطره يومًا ما، كان دائمَ الترحّم عليها، يردّد على مسامع الفتى:

– هنا جلست أمي، مرّت من هنا، هنا احتضنتني، هناك كان مجلسُها وقت الشروق، وهناك في الغروب، كانت تجيد الطّهي، كان محببًّا إليها كذا وكذا... كانت تعلّمني صنعَ الحلوى، كنت أشاركها العمل.

استغرق يقصّ عليه طرفًا لأحاديث طهيِه في بداياته، وكيف أفسدَ طعامه، وكيف وجّهته والدته، وردّدت على مسامعه مقاديرَها..

تنهّد الأفندي، وبدا عليه الأسى، فبعد رحيلها أصبح ماهرًا يُجيد الصّنعة، فقد أُجبر على أن يخدمَ نفسَه بنفسه، استطرد يعدّد لصديقه- في زهو، وقد برقت عيناه- أنواعًا بعينها، وإنْ بدت غريبةً بعضَ الشيء على مسامع الفتى، لم تألفها عوائدُ القرية، وعدّة مرّات جرّبها بنفسه قديمًا لكنّها ذهبت طيّ النسيان.

اعتاد والدُ الصبي زيارةَ الأفندي، يحمل إليه نصيبَه من طعامِهم كلّما طبخوا، كان يشعر بالمسئولية تجاه هذا العجوز المُنقطع، الذي انفردتْ به الأيام؛ فهو أسيرُ أحزانه وحبيسُ جدرانه، فلا أنيسَ يسلّيه، ولا جليس يسرّيه إلّا الصّمت، ورفقة ابنه الذي نذره في بيت الأفندي؛ هي مَن هوّن عليه وحشتَه... كان الأفندي يتقبّل هذه العطايا بصدرٍ رحْب،لم يبْدِ امتعاضَه منها مُعتبرًا الشيخ إبراهيم وآلَ بيته الأقربَ إليه، هُم جيرانه منذُ الصّغر، تربطه بهم أواصرُ الألفة والاحترام، وإنْ كان لا يقبل هذا الفعل مِن أحد، فمنذُ القِدم عاش الأهلُ كإخوة، وهو يعلم أنّ والدته كانت صديقةً مقرّبة لوالدة الشيخ.

وبينما كان يضعُ الطعام على المائدة، غالبته دمعةٌ رقراقة انحدرت من عينِه، أسفًا على أيّامه الخوالي.

فكاهةٌ ومَرَحٌ

لا يخلو حديثُ الأفندي من روح الفكاهة والتندّر، ولعلّ هذا ما ساعدَه أنْ يتغلّب على وحدته، ويتعالى على عزلته. كان الأفندي صاحبَ عيْن ثاقبة، ونظرةٍ تستوعب الأشياء من حوله، لا يتعاملُ مع الحوادث بسطحيّة، بل يُعمِل فيها عينَ البصيرة والرويّة، امتلك تحيلًا عميقًا للأحداث، وربّما شغلَ نفسَه فيه بالمحتوى الفكاهي الذي يستدعي الضّحك ليُسعِد مَن حوله، كانت نكاتُه حاضرةً تداعب مَن حوله، تتعالى ضحكاتُ جلسائه، على الرّغم من عزلته التي أوجدت حاجزًا رقيقًا بينه وبين كثيرٍ مِن أهل القرية، إلّا أنّ مَن يعرفونه- رغم قلّتهم- كانوا يتشوّقون رؤيته، شغلوا أنفسَهم بقدومه العابر لمجالسهم، فما أنْ يطلّ عليهم حتى ينتاب القومَ السرورُ، وتغشاهم- لحديثه الباسم- حالةٌ أشبه بالهستيريا، ولكنّها من فرط الضحك والدّعابة.

كانت ضحكاتُه تخفي وراءها آلامًا في صدره لازمَتْه طوال حياته، حتى استطاع- في النهاية- مصاحبتها والأنسَ بها، لا تفزعه ولا يجدْ منها مهربًا، وأنّه لا شيء يجدي سوى النّكات الصاخبة والتندّر الذي أوصله لأنْ يصبح فاكهة المجالس التي لا غنى عنها، رغم عزلته الاختيارية.

لم تخرجْ نِكات الأفندي وفكاهاتُه عن نطاق الذّوق العالي والأدب الجمّ، ففي الرجل حياءُ أبناء العائلات الكريمة.لم تكنْ أحاديثه- رغم جرأتها-

تصطبغ بإسفافٍ، ولا يجدْ مستمعُه فيها ما يخدشُ الحياء، فهو يدرك جيدًا أنّ فارق السنّ بينه وبين جلسائه في بعض الأحيان يكون كبيرًا، والضرورة تقتضي أن يكونَ بينه وبينهم شيءٌ من التحفّظ الذي يحفظ له هيبته، ويؤسّس في قلوبهم محبّته، ويستدعي أواصرَ الأنس ويدفع الملل.

مثّلت هذه اللفتةُ من الأفندي حجرَ الأساس الذي بنى عليها علاقتهما، خليطٌ من المرح والانبساط، مع تحفّظ يُضفي على الجالسين وقارَهم وهيبتهم، ناهيك عن تربية الأفندي التي كانت لا تخلو مِن الأنفة، فلا مانع من استدعاء الشدّة والحزم في بعض المواقف، وعندما تستلزم الضرورة..

جعل الأفندي نُصبَ عينيه دائمًا أنّه مِن أسرةٍ عريقة لها تقاليدها التي تضرب بجذورها في الحسبِ والنّسب- وإنْ دار الزمن دورته- لكنّه ظلّ وفيًّا لهذه التقاليد، لا يسمح لأحدٍ بالاقتراب منها أو المساس بطقوسها، ولعلّ هذا كفيلٌ بأنْ يدفعه إلى العزلة في بيته عندما استشعر فسادَ أخلاق الناس.

كانت ذاكرةُ الأفندي تفيض بالذكريات الطريفة والحكايات المسلّية التي تُدخل البهجةَ والمسرّة على جلسائه، ربّما لارتباط الأفندي بأصحابها لزمالةٍ أو قرابة أو جيرة، فقد ظلّ مُتنقلًا طوالَ حياته يجوبُ البلاد طولًا وعرضًا في سلْك الوظائف الحكومية، لكنّه حمل بين جنبيه روحَ الطفل الصغير الذي ظهرَ وكأنّه لم يكتشف بعدُ مجاهلَ الحياة وآلامَها.

يذكرُ الأفندي حكايةً من حكاياته لجارهم السيد محمود النجار الذي كان يعمل في تجارة القطن، فقد كان دائمَ التردّد على والده، وكان الوالدُ يهشّ إليه ويميل إلى مجالسته، فقد كان قليلَ الكلام، نظيفَ القلب.. وفي يومٍ من الأيام لاحظ السيدُ محمود الوالدَ وهو ينظف حذاءَه بسائل التنظيف، وكان هذا النوع غريبًا لم يألفْه أهلُ القرية في ذلك الزمان، فاستعلم عنه، وطلب من والدي زجاجةً منه، وعندما عاد لمنزلِه وضع الزجاجةَ في مكان ما ونسيَها، وعندما سأل عنها أخبرته زوجتُه أنها فارغة، فتساءل عن السبب فهو لم يستعملها بعد، إلّا أنّ الزوجة بادرته بالدّعاء، وأنّ هذا الدواء سحري؛ فقد كان سببًا في شفاء ركبتها مِن آلامِها، كما أنّ جارتهم العجوز كان لها نصيبٌ منه فهي تشْتكي من آلامٍ حادّة بالمفاصل، وأوصته أن يحضر زجاجةً أخرى.

التصقتْ هذه الحكاية بذاكرة الصبي، فكلّما جالس أحدًا من أهْلِ ذلك البيت لا يتمالك نفسَه من الضحك، وعند استفسارهم عن السّبب كان يتهرّب منهم، وعندما كبر كان كلّما مرّ من أمام هذا المنزل ابتسمَ ابتسامةً تملأ وجهه وترحّم على الأفندي وأصحابِ الدار.

وجدَ الفتى في حكاياتِ الشيخ العجوز ما رسّخ في ذهنه الصغير بعضَ القناعات التي احتفظ بها لنفسه دونَ أن يُطلع عليها رفاقَه؛ عنْ أناس بعينهم سواءً من أهل القرية أو القرى المجاورة ممّن خالطهم أثناء الدراسة، ولعلّ في حكايات البُخل وأصحابه ما أدخلَ السرورَ في نفس الفتى، ووجدَ

فيها متّسعًا للتّشويق، خاصّة طوال الأوقات التي قضاها مع الأفندي أيّام الصيف. منحه الأفندي منها قسطًا وافرًا، ضمّنها الأفندي في قائمةِ حكاياته على اعتبارها من مُجَرّباته، فقد عايش كثيرًا من أحداثها.

حفظَ الفتى هذه النوادرَ، وردّد الطُّرَف التي كشفت طباعَ العديد من البيوت الكبيرة والعوائل في القرية والقرى المجاورة، ولكن أحاديثَ البخل والبخلاء هي كلّ ما بقي له بعد كلّ هذا العمر، فكان يتفكّه بها على جلسائه، خاصّة أبطال تلك الحكايات الذين لم يكنْ لدى أغلبهم علمٌ بها.. أكسبت هذه الأحاديث الفتى نشوةً كبيرة، وعدّ نفسَه من النّسّابة الذين يمتلكون سجلًّا لا باس به من الحكايات- وإنْ قلّت- عن أهل القرية وتاريخهم، ممّا أغرى الصبية أنْ يلتفّوا حوله ليقصّ عليهم نِتفًا منها، غير أنّ هذه الدّعابة كثيرًا ما كانت تجرّ عليه من المشاكل التي حاصرته وأرغمته في الأخير ما جعله يؤثِرُ السلامة.

اكتشف الفتى- في أحاديثِ العجوز المنعزل- خبرةَ السنين، وجد نفسَه أمامَ مؤرّخ من الطّراز الأول؛ فالأفندي يعرف جميعَ دخائل أهلِ القرية وأسرارهم، ويسردُ أحداثًا وقعت لأصحابها منذ زمن طويل، لا تغيب عنه شاردةٌ منها، حتى أنّ بعضَ مَن كان يطرق مجلسَه في أحيان قليلة كان يطلب منه أنْ يسردَ واقعةً بعينها، إمّا لطرافتها أو لجهله بها وسعيِه للتثبّت والرواية.

استفادَ الصبي من تلك المعلومات، واعتبرها كنزًا يرجع إليه وقتَ الضرورة؛ فتاريخُ القرية ورجالها وأنسابهم مادةٌ غزيرة جعلها محلًّا لمسامرتهم، وفي بعض الأحيان ينصاع الأفندي لطلب فتاه الذي شغف بها. كان الفتى متّقد الذّكاء، كثيرًا ما شارك الأفندي حديثَه بتساؤلاته وتعقيباته، أحبّ الأفندي في صبيّه نباهتَه وسرعة بديهته، وسلامةَ عقله وقوةَ حافظته، فلم يبخلْ عليه بمعلومةٍ أو يخفي عنه إجابة لسؤال..

ومِن المفارقات الغريبة أنّ الصدفة جعلت للفتى حظّه مِن هذه الحكايات، حضرَ مجلسها في أحيانَ كثيرة، فكثيرًا ما يطرق بابَ الأفندي طلّابُ الحاجة، وكذا أصحاب المشاكل والمنازعات سعيًا لوساطة الأفندي ومشورته، فمَن سواه يكتم أسرارهم!!

تردّد على المجلس حالاتٌ كثيرة لأناس اختلفوا مع زوجاتهم، لكنّ الغريب في الأمر أنّ نفرًا من هؤلاء الرجال لم يخلُ من إصابة، فهذا قد شجّ رأسه، وآخر كُسر ذراعه، وثالث لا يقوى السيرَ على قدميه جاء محمولًا على الأكتاف، كان الفتى يسألُ الأفندي: ما حقيقة هؤلاء؟! فيضحك ويقولُ له ساخرًا:

– هؤلاء ضحايا نساء القرية!!، لقد امتلأت القرية بالفتوّات يا صديقي، فيما يبدو أنّ النقاش قد احتدّ بينهما فكانت نتيجة النقاش تظهر على أجسادِ هؤلاء الغلابة.

ومِن لطائف ما شهدَه الفتى أنْ يأتي أحدُهم الأفندي باكيًا؛ فالمسكين فقد أقسمتْ زوجته عليه بالطلاق أن يغادر البيت، وأنْ يجد له مبيتًا هذه الليلة، فهؤلاء الضحايا كانوا يُعرَفون في القرية بالصعاليك؛ فالزوجةُ تملك كلّ شيء إمّا لسطوتها وحماية أهلها، أو لكوْنها صاحبةَ المال، كان هذا الصنف يثيرُ اشمئزازه، لكنّه كان لا يداري ضحكاتِه نكايةً في رعونتهم، وشماتةً في جُبْنهم.

ولعلّ في أحاديث السّرقة من الطرافة ما يستهوي الفتى؛ فهي تحرّك فيه الخيال، وتثير عقلَه الصغير الذي يبحث مع الحضور عن حلّ لهذا اللغز...

جاء الأفندي أحدُهم يشكو جارَه في الحقل، فقد سرق حماره الوحيد وصبغَه بلونٍ مغاير وباعَه لصديقٍ له في القرية المجاورة، وقد اكتشف مصادفةً ذلك بعد أن غابتِ الصبغة عنِ الحمار، واعترف المشتري بالواقعة، وآخر يأتي طارقًا البابَ منتصفَ الليل يلهثُ ولا يتمالك أنفاسه ليخبر الأفندي بأنّ لصوص الماعز قد جاءوا وهُمُ الآن في قبضة رجالِ الدّرك من الخفر الذين نصبوا لهم كمينًا عند مدخل القرية..

وعلى الرغم مِن بساطة الأفندي وتلقائيّة حديثه، وعفويّته في السّرد، إلّا أنّه بعضَ الأحيان يبدو حادَّ الطباع، متقلّب المزاج، عالي الصوت، لا يقبل المناقشة أو الجدال، ولا يرضى أن يقاطعه جليسُه مهْما كان، كان يعتبر نفسَه سيد المجلس، ومِن حقّه- بحُكم سنّه وتجربته- أن يستمع إليه جليسُه

ويتأدّب ولا يعقّب إلّا بإذنه. أدرك الفتى هذه الخصال، وإنِ اصطدم في بادئ أمره بالأفندي، غير أنّه تعوّدها فيما بعد، بعد أن عذرَ صاحبه وتفهّم- عن قرب- جوانبَ شخصيته، وصدق نبوءات والده، بأنّ الأفندي طيّب القلب، عفويّ الفطرة، سليمُها.

مُتديّن بطَبعه

تبدو دائمًا لِمَن يخالط الأفندي مسحتُه مِن التّدين التي تغلب عليه، فالرجل متعلّق بشعائر دينه تعلقًا كبيرًا، لدرجةٍ كبيرة لا يتوانى عن الاجتهاد فيها والمثابرة عليها؛ فهو محافظٌ على صلواته الخَمْس، ملتزم السّنن الرّواتب، مؤدٍّ للنّوافل وفي أحيان كثيرة يزيد عليها مِن باب التطوّع والاحتساب، وللرّجل ورْدُه من الليل، غيرَ أنّه لم يكنْ مغاليًا في دين الله؛ فقد سلَكَ مسلك الاعتدال وسبيل الوسطية. كان الأفندي يلتزمُ في صلواته القراءةَ بقصار السور.. وبالرغم من بلوغِه من العمر أرذلَه لكنّه كان نشطًا للصلاة يؤدّيها في أوقاتها المفروضة. كثيرًا ما تحامل على نفسِه ساعةَ مرضِه، ومن المفارقات الغريبة التي أذهلت الفتى وجعلته يعجبُ بهذا الشيخ الطّاعن ويجدُ البركة في قربه، أنّه لم يكُ ممّن يتساهل في الطاعة، لم يرَه يومًا يؤدّي الصلاة جالسًا على مقعدِه، فالرجل يدرك أنّ لذّة الطاعة تكمنُ في بذل الجهد واسْتفراغ الوُسْع فهي السبيلُ المضمون للتقرّب إلى الله تعالى، لم يستعمل الأفندي أداوتِ التنبيه التي توقظ للصّلاة، فما اعتاد الفتى سماعَ أصواتها إلّا في حالات مرضِه الشديدة؛ لخوف العجوز أنْ تفوته الصلاة ولا يستطيع الاستيقاظ لفرْطِ مرضه..

كان الأفندي يخرج من غرفتِه الخاصة إلى المدخل الأمامي المواجِه للحديقة، يقف لدقائقَ معدودة، وكأنه يشهد ميلادَ الصبح الجديد، ثمّ يصفق بيديه صفقاتٍ متتالية، ويصيح بأعلى صوته في جنبات الحديقة:

– سبحانَ الحي الذي لا يموت، سبحانَ مَن له الدوام، أصبحنا وأصبح الملكُ لله وحده.....

ثمّ يتناول مِنشفته الصغيرة يضعُها على كتفه، وبيده يحمل إبريقَ الماء النّحاسي الكبير، ويسلك الممرّ الذي يفصل بين حجرات البيت، فيغيب في الممرّ الموصّل للحمّام نهاية البيت.. كان الممرّ حالكَ السواد.. وضعَ الأفندي فيه مصباحَ الكيروسين الصغير الذي يتخافت ضوْءه للنّاظر فلا يبصر إلّا موضعَ قدمه، يتوضّأ وضوء الصلاة ثمّ يعود ثانية يجرّ في مشيته فوق أرضيةٍ كُسيتْ ببقايا بلاطاتٍ كبيرة مُفتّتة زيّنت أرضيةَ الممرّ، ثمّ يشرع في صلواته..

لم يكنْ الأفندي يمتلك صوتًا جميلًا يرتّل به آياتِ الذكر الحكيم، لكنّه على أيّ حال لا يخلو من الخشوع.. وبعد فراغِه من صلواته يمسك بمصحفِه الكبير الموضوع على حامله الخشبي القديم، ويبدأ ترتيلَ آياتٍ من كتاب الله تعالى. جعل الأفندي له وردًا يُلازمه، فقراءاته في الغالب لم تخرج عنْ آياتٍ من سورة البقرة– وتحديدًا آية الكرسي–، وسورة الملك، ويس، والحاقة، والرحمن، وبعض السور القصار، وأدعية يردّدها بعد الفراغ من تلاوته.. إنّها أورادٌ من كتابٍ صغير لا يبرح جيبَه أبدًا، اعتاد أنْ يمسك بهذا الوِرْد ويقرأ منه صفحات طوالًا، لم يلتزم جلسةً مُعينة أثناء قراءته، بل ربّما يردّد وهو يمشي ذهابًا وإيابًا داخل المنزل، أو في الحديقة المتّسعة، أو حتى أثناء تحضيره لكوبِ الشّاي بطقوسه المعتادة..

للأفندي اعتقادٌ كبير في أثَر هذه الأوْراد، وعملها الفوري في قضاءِ الحاجة أو طلب الرزق، أو الحفظ من طوارق الأنس والجنّ، أو طلب الجاه والولد والزوجة، أو حتى غفران الذنوب، فهي محتوى من آيات الذكر الحكيم، ومأثور الأدعية النبوية، ومجموعٌ من دعوات الصالحين. كان الأفندي يوصي فتاهُ بالمداومة عليها؛ فهي خيرُ ما يوصيه به من وصايا...

كان الفتى يقرؤها على استحياءٍ كلّما ذكّره الأفندي، فلم يتعلّق بها إلّا قليلًا، حتى والده من قبل كان يوصيه بهذه الوصية، لكنّه كان يسوّف الأمر، ويماطل فيه.

خصّص الأفندي مكانًا للصلاة، فرشت فيه سجادته المنقوشة الكبيرة، إنّها من بقايا الزّمن الجميل، فعلى ما يبدو أنّها بعضُ ما ترك الوالد، اعتاد الفتى الصّلاة عليها، كان يتحسّس بيدِه وبرَها الطويل ونقوشَها المحفورة، والتي لم يطمسْها الزمن، تمامًا كجذور الإيمان المشتعلة في قلب صاحبها.

وعلى الرّغم من التزامه الفطري وتديّنه الكبير شبّ معه منذُ الصّبا؛ إلّا أنّه لم يطرق بابَ المسجد إلّا نادرًا؛ وكانت ظروفُ العزلة قد اقتضتْ ذلك، فحتى الذهاب إلى المسجد أُدْرج ضمن برنامج العزلة!

قدّس الأفندي شعائرَ الإسلام، أحبّ دينه حبًّا ملَكَ عليه مسالكَ قلبه، كان كلّ شيء يفعله يدلّل على تمسّكه بهذا الحبّ والإخلاص له، وأنّ صاحبه

تعوّده منذ الصغر، ولعلّ مِن دلائل تعظيم الدّين عنده حرصَه على إظهاره بالشكل اللّائق، فلا دين بعد الإسلام، فحقّ لَمَن يتصدّى لحمْل هذه الرسالة أنْ يتّصف بسمات تؤهّله لأنْ يتصدّر الجماعات، وأنْ يترأس المجالس أو أنْ تكونَ له السّطوة بحقّها، فإنْ أخفق تركَ المكان لَمَن هو أصلحُ منه، ولعلّ في استحضار هيبةَ الدّين ما أرّق بالَه، فعندما استُعمِل الميكروفون لأوّل مرّة في مسجد القرية كان للأفندي تحفّظه، إلّا أنّه لم يُبدِه لأحد، وعندما ألحّ الفتى مستغربًا طولَ صمته؛ قال له:

- دعِ الأيام تكشف لك الحقائق يا صديقي، لا تتعجّل.

تنتاب الأفندي ثورةُ الغضب فيتعالى صياحُه، ويشتدّ هياجُه كلّما سمع أذان الصّبية للصلاة، يكيل اللّعنات والتوبيخ لَمَن ترك لهم المجال، يقومُ من مكانه يجري من غرفةٍ إلى أخرى، يسرع في خطواته كالملدوغ ناحيةَ الحديقة، وهو يضرب كفًّا بكفٍّ، يقول في ذهول:

- لقد عشنا حتى رأينا العَجب.. هذا زمنُ العار، مشايخُه صغار.

لم يفهمِ الفتى مقصودَه بادئ الأمر، حتى أنّه لم يظهر اندهاشه لهذا التصرّف، فالأذان هو تذكيرٌ للمصلّين بموْعد الصّلاة يؤدّيه مَن يؤديه لإعلان الناس بوقتها، ولا يمنع الصّبيان من أدائه، خاصّة إنْ لم يكنْ في المساجد مِن الكبار مَن يقوم بالمهمّة.

لعلّ فلسفة الأفندي كانت صارمةً في هذا الجانب، تمنّى اتّباعَ أهل القرية قواعدَ المحافظة على هيبة الدين ومكانته في النفوس، خاصّة شعائره المعلَنة كالأذان، فالإسلامُ دين قويّ، له منزلته التي تُحتَرم، فلا بدّ أنْ يكلّف مَن يُعْنى بإظهارِه مِن أهل العلم والتقوى والإخلاص، وهذه المحافظة تكسيه وقارَه، وتحافظُ على عزّ الدّين، خاصّة وأنّ القرية بها مِن أهلِ الديانات الأخرى.. أخيرًا، اقتنعَ الصبي بهذا الرأي الوجيه، ووعدَه بأنْ يحدّث والده في هذا الأمر، خاصّة وأنّ والده القيّم على شئون المسجد.

حافظَ الأفندي على وسطيّته واعتداله لحدّ كبير، فلم ينجرفْ أبدًا لدعاوى التشدّد والغلوّ، كان يحذر دائمًا المغالاةَ في الدين تمامًا، يحذرُ من التفريط فيه، فكلاهُما وباءٌ فتّاك يُصيب الأمّة، ويبعد الناسَ عن طريق الحقّ.

حذّر الأفندي من استخدام بعضِ المصطلحات والمفردات دون ضابطٍ أو سندٍ شرعي، فكثيرًا ما استوقف محدثَه مُبديًا تعليقاته على بعض ألفاظه، تصل في بعض الأحيان لدرجة التأنيب، اعتاد الناسُ هذه النزعة، لكنّهم يقدّرون فيه ذلك.

فالشيخُ يمتلك فهمًا لكتاب الله؛ أحكامه وشرائعه، وعلمًا بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ولديه درايةٌ بالفقه والأصول والتاريخ والعقيدة واللغة.. لم يَمنَح الأفندي مصطلحَ شيخ إلّا لَمن أوتي نصيبَه من العلم، فهو يستطيع تمْييزه بسهولة، وإنْ تظاهر بذلك. كان الأفندي يسخر بشدّة عندما يردّد البعضُ مقولات: فلان الشيخ، أو الشيخ فلان....

يصرخ بصوتٍ يصمّ الآذان، ويرفسُ الأرض برجليْه:

– ومتى أصبح فلان شيخًا! ومَن شيْخه؟ وما هي مؤهّلاته؟ وأين عمامته؟ وما هو مقدار تديّنه؟ وما هي سمعته وأهلِه بين الناس؟

اشتراطاتٌ عدّة يشترطها الأفندي، ومواصفاتٌ أكثر كان يثقلُ بها الأفندي كاهلَ مَن يدّعي المشيخة، ولعلّ علمَه بأنساب القرية والقرى المجاورة ما سهّل له مهمّتَه، وجعله واثقًا من كلامه؛ فهو يعرف مِن أهل البلاد الرديء منهم والجيد، فلا يغشّه أحدٌ ولا يخدعه، فعندما يطفو على السطح أحدُهم كان يسأل عن اسمِه ونسبِه، ثمّ يقول فيه برأيه.

وقد استفادَ الفتى من تصويباتِه التي كشفت عن عقليّة جامعة، وذاكرةٍ احتوت تاريخَ القرية بنباهةٍ وفطنة، ولمحَ فيه شخصًا لا تخدعه مظاهرُ التديّن المزيّف، أو حيلُ الدّروشة من البعض.

اعتبرَ الأفندي الأزهرَ الشريف ومشايخه خطًّا أحمر، لا يجوز المساسُ به، كان يكنّ لهذا الصرح العملاق كلَّ المحبّة والاحترام، وكثيرًا ما كان يتباهى بأفرادٍ من عائلته درسوا في الأزهر الشريف، وكانوا من مشايخه وطلّابِ معاهده. وهذا ما جعلَه في أحيان كثيرة يكيلُ التوبيخ لَمن يخلّ بهذه المكانة، أو يحاول المساسَ بها، أو زعزعتها في نفوس الناس، خاصّة مِن أبناء الأزهر سواءً من مشايخه وطلابه؛ فهي أمانة لا تعطى إلّا لمستحقّيها.

كثيرًا ما جاهرَ الأفندي بسَماحة الدين ووسطيّته، وأنّ المُغالاة لا تخدم الدّينَ أو تروّجُ له، بل هي أشدّ العوامل إلى تنفير الناس منه، فالإسلام لم يُنشَر بحدّ السيف، بل كان التّسامح والحبّ والسلام في أحيان كثيرة مفتاحًا لقلوب النّاس، والرّحمةُ صفةٌ من صفات الدّين السّمْح، والرّب الرّحيم؛ فالرّحماء يرحمهم الرحمن.

كانت عاطفةُ الأفندي جيّاشة، يتّسع صدرُه لَمن يخالفه الرأي ولكنّ كبرياءه يمنعُه أن يصرّح بذلك، كان للحيوان والطير حظّهُ من حبّ الأفندي ورحمته، فلعلّ ما لفت انتباه الفتى ساعةَ وطئت قدمُه هذا البيتَ الغريب تعلّقُ الأفندي بالطير والحيوان، وحنُوّه الزائد عليهم.

فوراء الباب الخشبي شاهدَ الفتى أوانٍ كثيرةً قد امتلأت بالماء النظيف وبقايا الطعام، وحبّات من القمح قد تناثرت هنا وهناك، لم يكلّف نفسَه سؤال الأفندي لماذا وضعها هكذا! حرص الأفندي على وضع تلك المائدة المتواضعة للقطط الجائعة، تشاركها العصافير...

تعجّب الفتى لَمَا شاهده، يقفُ الأفندي على مقربةٍ من مطعمِه المصغّر يتحرّك هنا وهناك، كانت زبائنه لا تبدي حراكًا، لقد تعوّدت الرحمة فألفت الودّ من ذلك العجوز الرّحيم، الذي احتضن بؤسها، وفتح بيتَه وخزائن قوتِه لإطعامها، فلا فخاخَ لفراخها ولا شباكَ لصيد كبارها.

اعتادَ الأفندي كلّ صباح، وبعدَ أن تشرق الشمس، أنْ يطلع من فوق المدخل الحجري المواجِه للحديقة، ترتسم على وجهِه الابتسامةُ، وكأنّ أصوات العصافير وهي تتجمّع.. وتتجمّع من كلّ حدْب وصوْب، لتأخذ نصيبَها من حنانه، وتملأ بطنها من طعامه؛ تزيدُ من نشوته.

تأثّر الفتى بهذا الخُلق الرّاقي الذي يسلكه الأفندي، كم هو رحيمٌ يحبّ الحياة والكون والوجود.

لم تكنْ لرحمة الأفندي حدودٌ بشريّة تحويها؛ فالرجل متعدّد المواهب في إظهارها كأجمل ما تكون؛ ففي يومٍ من الأيام رآه يحفرُ قبرًا لقطةٍ ميّتة في زاويةٍ من زوايا غرفة مهجورة من البيت، وعندما سأله عن السبب كان ردّه آيةً من آيات الرحمة في بني الإنسان:

- إنّها روحٌ خلقها الله يا صديقي، ولا بدّ أنْ تُكرَم حتى عند موتها. لعلّ في تربية الأفندي أثرَها الطيب في إكسابه هذه الصّفات الخيرة؛ فوالده كان محبًّا للمعروف، تزاحم الفقراء والمساكين وأبناء السبيل وأرباب الطريق على موائدِه التي لم يبخلْ عليها؛ فأتحفها بأشهى المأكولات، ينفق بسخاء، نفقةَ مَن لا يخاف الفقر ولا العَوَز...

كان الأفندي شاهدَ عَيانٍ لهذه الحِقبة من حِقب الزمن الجميل، فبعد أن تمتلئ البطون تُنْصب الحضرة، ويتعالى الذّكر، ويعمّ المكان روحانياتٌ

ونفَحات، ناهيك عن المواعظ والرّقائق التي تفنّن فيها أربابُ الطريق مِن المتصوفة، الذين سمّاهم الأفندي أصحاب الأحوال، أو أهل الله..

احتفظ الأفندي بكثيرٍ من الذكريات مع ضيوف والده، فامتدّت صداقاتُه معهم ومع أبنائهم مِن بعدهم لفتراتٍ طويلة، يزورهم متقطّعًا أو يزورونه على استحياء..

كان الحديثُ عن زيارات مقام السيد البدوي، والدسوقي والقناوي والسيد أحمد الفولي من أدبيّات مجالس الأفندي. حرص الأفندي- بشدّة- على نشر أخبارهم وسرْدِ كراماتهم والحديثِ عن خوارقهم مُستعينًا بمصادره الكثيرة التي ذخرتْ بها أرففُ المكتبة، إلى جانب مشاهداته الشخصية والتي دعّمها بعرض بعضِ الآثار من المسابح النادرة وخواتم العقيق وغيرها، والتي احتفظ بها في صندوقٍ خشبي صغير، يفرجُ عنها للفرجة كلّما غلبه الحنين..

لم يمنعْه فرطُ حبّه للتّصوف عنِ انتقاد بعض التصرّفات والسلوكيّات المذمومة التي يمارسها بعضُ المنتسبين للطريق، واعتبرها مَعيبة مشوّهة لهذا السلوك الإسلامي الرّاقي، ينكر على مُبتدعيها، ويعتبرهم أبعدَ ما يكون عن التصوّف، وعن أصول الدين الإسلامي الصحيح وسنّة النبي ﷺ.

استفاد الفتى مِن هذه الحياةِ الروحانية، وعايش العبقَ الإيماني الجميل، تشبّعت روحُه من خزائن ذكريات الأفندي المكتظّة، تعلّم منه ما يلزمُ

شخصية المسلم السويّة، كان قوامُ نصائحِ الأفندي لفتاهُ التجربةَ الشخصية والحرصَ الشديدَ على مصلحة مَن ينصحه.

وللقرآن مكانتُه في حياة الأفندي، فهو دائمُ التعلّق بالمصحف الشريف يقرأ منه أورادَه الصباحية والمسائية، احتفظ الأفندي بطبعاتٍ نادرة له، تعود إلى أحدِ أجداده، أهديَت بعضُها من السّلطان العثماني نظيرَ خدماته للسلطنة، مَمْهورة بتوقيع السلطان ومختومةٌ بخاتمه، بخطّ فخمٍ جميل.. وعلى ورق مصقول احْتفظ الأفندي بهذه النّسخة داخل حقيبةٍ خشبية كبيرة وضعها بجانب سريره، كان يتباهى أمامَ جُلسائه، يتفاخر بتاريخ أسلافِه ممّن امتدّ ذكرهم عبر السنين.

وفي رحابِ القرآن الكريم، كان المذياع يصدع بآياتِ الذّكر الحكيم على فتراتٍ متقطّعة، يديرُ الأفندي مؤشرَه في مواعيدَ مُنتظمة كلّ يوم، لفتَ انتباهَ الصبي هذا الحرصُ، لقد كان الأفندي يحفظُ خريطة برامج الإذاعة، فهو خبيرٌ بساعات الإذاعة، ومواعيدِ التّلاوات، وكثيرًا ما امتحنَ الصبيّ.. ولعلّ من أصعب التّحديات التي جرَتْ بينهما الكشفَ عن اسمِ القرّاء..

شعر الفتى – أوّل مرّة – بحرجٍ شديد لجهلِه وضَحالةِ معرفته، لكنّه لاحقًا تعوّد هذه الاختبارات، ووجدَ فيها فرصةً لتقوية معلوماته، فكان يخمّن مِن نسج خياله بعضَ هذا الأسماء كي يثبتَ للأفندي أنه لا يقلّ مهارةً عنه.

كان الأفندي يعرف جميعَ القرّاء؛ قديمهم، وحديثهم، وتفاصيلَ حياتهم ونشأتهم. حاول الصبي– وهو بين رفاقِه– أنْ يظهر هذه المهارة ويبديها في شكلٍ ربّما يعوّض ما شعر به من استهزائهم به حين كان يحادثهم عن الفن والطرب.. ولكنْ هذه المرّة كان يبهرُهم بإلمامِه الشديد، ومعلوماتِه الغريرة، فلا تخلو كلماتُه من نبرة الفخر والاعتداد والثقة بالنفس.

لكنّه كان يدعو للأفندي المتديّن الذي أخذَ عنه.

العاشقُ المتيّم

كان الأفندي غزيرَ المشاعر، صادقَ الودّ، لكنّه كان لا يأنسُ بسهولةٍ لأيّ أحد، لا يسمح لأحدٍ باختراق عالمه، وقلّ مَن وجَدَ مكانًا في قلبه. كانت مشاعرُه- رغم صدقها- لا يمنحُها أحدًا بسهولة، فليس كلّ مَن يجالسه يستحقّ أنْ يهبَه إيّاها، أو أن يحوز لديه الحظْوة.. إلّا أنّ الفتى حاول التّعرّف إلى سرّ جفوة الأفندي وتحجّر مشاعره لهذه الدّرجة، حاول أن يخترقَ الحواجز الحديدية، والأسوارَ الشائكة التي فرضها على عالمه.

رأى الفتى ضحايا هذه المحاولات جثثًا هامدة، لا تستطيع الوصولَ إلى مملكة الأفندي الخاصّة، تساءل الصبي لمرّات: تُرى ما السبب؟ هل العيبُ في الأفندي وعزلتِه التي لا يمكّن أحدًا من الاقتراب منها، أمِ العيب عيبُ الناس؟ فالأفندي محبٌّ للناس، لا يضمر الحقدَ أو الحسدَ أو الشرَّ لأحد!!

غاب عن الفتي أنّ الأفندي رأى- من خلال تجاربه- أنّ الحلّ الوحيد، والعلاجَ الأكيد اعتزالُ دنيا البشر وما فيها مِن ألاعيب، فجعل مِن منزله صومعةً احتضنت الرّاهب العجوز لسنواتٍ طوال، لا يُشعر به أحدًا. ظنّ كثيرٌ من أبناء القرية أنه في عِداد الموتى.

حاول الأفندي إقناعَ نفسه بالعُدول عن هذه العزلة القاتلة التي أتتْ على حياته بينَ الجدران العالية، فلم يتبقّ له مِن دنياه سوى كومةٍ من الذكريات يحيا معها أسفلَ السقف الخشبي الخانق.

تجاسر مرّات وفكّر أنْ يخالط أهلَ القرية ويبدأ صفحةً جديدة معهم، لكنّه فشل.. سرعان ما يعود سريعًا إلى صومعته يستغفر ربَّه هذا التفريط، يعضّ أصابع الندم، يؤنّب نفسه ويلومُها، بل ويوبّخها ساعاتٍ على جرأتها في تجاوزها ما رسمَه منذ عقود مِن حدود.

ظنّ الفتى أنّ باستطاعته إقناعَ الأفندي بالتراجع عن موقفه، ومساعدته على تخطّي هذا الحصار المفروض، لكنّ الأفندي كان يراوغه؛ فقد فات الأوانُ يا صديقي..

كانت نظرةُ الفتى للأفندي البائسة، وملامحه المتحجّرة، ووجهه الصلب ومسحة الحزن التي تغطّي تقاسيمه أغلبَ الوقت؛ تبعثُ في نفسه ألفَ سؤالٍ وسؤال، حاول الإجابة عليها لكنّه فشل، ولم يجدْ من الشجاعة ما يواجهه به. حاول أكثرَ من مرّة سؤالَ الأفندي، لكنّه آثر السلامة في اللحظات الأخيرة.

أصبح شاغلُه كلّما خلا أنْ يسأله: هل للأفندي قلبٌ، وعواطف.. يحبّ كلّ الناس؟ هل أحبّ وتزوّج كبقيّة الناس؟ أقدمَ في بعض المرّات على أن يسأله لكنّ شجاعته خانتْه بعد أن عقدَ العزمَ.. فيتراجع في النهاية، لكنّ

إلحاح الأسئلة عليه جعله يحاول- ذاتَ مرّة- مناقشةَ والدِه في أمرِ الأفندي قال ذاتَ مرّة:

- هل تزوّج الأفندي يا أبي؟

أجابَه الوالد، وقد أدهشَه السؤالُ، وانتابه الذّهول والاستغراب:

- لِمَ تسأل يا بني؟

تلعثمَ الصغير، حاول دونَ جدوى إخفاءَ ما أبداه، لكنّ والده بادره ليقطع عليه السبيل:

- مثل هذه الأسئلة لا جدْوى من ورائها، فقد تتسبّب في إثارة الأفندي، فالرجلُ يحبّك، ولا بدّ أن تلتزم معه حدودَ الأدب، فلا تسرحْ بخيالك، أو تحاول أن تفتّش في ماضي الرجل، فالماضي ملكُه وحده، ولا يحقّ لأحدٍ أن يقترب منه إلّا بإذنه هو، فأنتَ معه لتستفيد لا لتعكّر مزاجَ الرّجل!!

هزّ الفتى رأسه مُظهرًا اقتناعَه بكلامِ والده الشيخ، لكنّ بقايا فضوله لا تزال تحومُ برأسِه. وفي إحدى زياراته المتكرّرة لمنزل عمّته الحاجة خديجة، والتي يلاصق منزلُها منزلَ الأفندي، واتَتْه الشجاعة على غير العادة، فبعدَ أنِ استوى في جلسته انتابته حالةٌ من الصّمت الطويل، وبين الحين والآخر حاول جاهدًا تحويل طرفِه يتفحّص أرجاءَ المكان، وكأنّه يعرفُه لأوّل مرّة، وضعَ يدَه

على خدّه، كانت العمّةُ تلاحظ انشغالَ الصغير، وهو الذي كان يملأ المكان ضَحكًا ومشاغبة، مدّت يدَها وأمسكت بأذنِه، وقالت له باهتمام:

– ماذا بك؟ هل هناك شيء أغضبك!؟

ردّ الفتى بسرعة:

– لا.. لا، لا شيء يا عمّتي الحبيبة، ولكنّ الأفندي....!!!

اقتربَ من عمّته، ووضع رأسَه في حجرها، وتساءل:

– عمّتي، هل الأفندي يجاوركم مِن زمان؟

قالت له العمّة:

– نعم، ولكنْ لماذا السؤال؟!

رفع رأسَه، ونظر إليها وقد أخذه الشّرودُ مرّة أخرى:

– هل تزوّج الأفندي؟

ضحكت العمّة بصوتٍ عال، جعل مَن في البيت يتجمّعون حولها، ضمّت الصغير إليها، وقالت:

– لماذا تسأل هذا السؤال يا ابنَ أخي، وماذا يفيدك؟

ردّ عليها محاولًا إخفاءَ ملامح وجهه التي بدتْ عليها خيبة الأمل من إجابتها السريعة:

– لا أريد شيئًا يا عمّتي، لكنّه مجرّد سؤال.

أحسّت العمّة أنّ ابنَ أخيها الصغير مشغولٌ بهذا الأمر أكثرَ مِن اللازم؛ لفرْط تعلّقه بالأفندي، ومحبّته إيّاه.

قالت العمّة وقد التفّ حولها عددٌ من الفتية الصغار:

– ما أعلمه أنّ الأفندي رجلٌ طيّب ومؤدب، يخدم جيرانَه، ولم أسمعْ عنه ما يعيبه، فمنذ أنْ كان شابًّا لم نعرفْ عنه ميلَه إلى فتاةٍ من فتيات القرية يومًا من الأيام.. فلهذا البيت طبيعةٌ خاصّة، كوْن والده مِن أصحاب الوظائف المَرْموقة، ويمتلك عشراتِ الأفدنة في الزّمام وخارجه، علاوةً على ذلك فالأفندي كان كثيرَ السّفر والتّرحال، فقد وظِّفَ في مصنع السّكر بقوص، وقضى هناك فتراتٍ طويلةً لم يأتِ القرية إلّا في إجازات قصيرةٍ للسّلام على والدته.

قال الفتى وقد بلع ريقَه:

– نعمْ أعرف هذه المعلومة، لقد أخبرني بها الأفندي يا عمّتي، لكنّي أسأل عن زواجه..

ردّت العمّة، وقد أمسكتْ بأذنه ثانيةً، ولكنّها في هذه المرّة هرستها بيدِها قليلًا، ليعلو صوتُ الصبي بين ضحكٍ واستغاثة.

– إنّك فتى مُشاكس، تريد أن تعرف كلّ شيء، وأيّ شيء، انظر أيّها المشاغب، نعمْ.. تزوّج الرّجل، ولكنْ يُقال مرّة واحدة، كانت قريبتُه لأمّه

مِن بلدةٍ تبعد عنْ قريتنا قليلًا، لكنّ زواجهما لم يدمْ طويلًا، فقد كانت دائمةَ الشّجار مع والدته، وانْفصل عنها، ومنذُ ذلك الحينِ وهو على حالتِه هذه.

حاول الفتى أنْ يربط بين حديثِ عمّته وبين مشاهداته المتكرّرة للأفندي، فقد رآه أكثرَ من مرّة خِلسةً يتحدّث لصورةِ والدته الكبيرة المعلّقة بجوار سريره، حتى ظنّ الأفندي يحدّث نفسه؛ فهي مِن علامات تقدّم العمر عند بعضِ النّاس، لكنّه تذكّر- في مرّة من المرّات- حديثَه للصورة، والذي لا يخلو من تباريح الشوق والحبّ واللّوعة.

أدرك- ساعتَها فقط- محبّة الأفندي لوالدته، ومدى تعلّقه بها، تعلّم مِن وقتها كيف يكون الحبّ، كيف يكون الوفاء، تعلّم الإخلاصَ في أسمى معانيه، أخيرًا برزت أمامَه شخصية الأفندي الحقيقيّة، خرجتْ للنور ليتحقّق منها عنْ قُرب، حدّث نفسه: كيف لهذا العجوز أنْ يحمل هذا القدر مِن الحبّ في قلبه؟ كيف يفيض قلبُه بهذا الإحساس الذي يصلُ لحدود الهلاك، ألهذا القدر أثّرت أمّه في حياته؟!

إنّ قلبًا يحمل هذه المشاعر الجيّاشة؛ لجديرٌ أنْ يُحترَم...

كان الأفندي- مِن فرْط اشتياقه لوالدته- لا يتورّع عن البوْح باسْمها أمام الصبي، شعرَ الصبي كأنّ الرجل يتغنّى بحروف اسمها، كان- وهو العجوز الطّاعن في السّن- يتهلّل فرحًا عندما يشْرَع في حديثه عنها، كانت

مُلهمتَه الوحيدة وحبيبَةَ قلبِه التي لم يعرفْ قلبُه إيّاها، مثّلت أمّه المرأةَ الكامِلة التي استظلّ بظلّها، وبعدَ رحيلها شعرَ وكأنّ الدنيا كلّها قد خاصمته.

تصوّر الأفندي- مرّات- أنّ الكون والحياة كانَتَا يُكْرمانه لخاطرِها، كان يرسلُ رحماتِه إلى أمّه بردًا وسلامًا، ولعلّ من حُسن طالعه أنْ وجدَ مَن يستمعُ إليه، خصّ الفتى بأحاديثِ الطفولة والصّبا، وأيامِ الشباب والفتوّة، لحظات اندفاعه، وساعات طيشه، كيف عاندَ الدنيا وتحدّى أهلها في عنفوانٍ لا يَلين! كيف كان قويًّا صُلبًا جسورًا، صعبَ المِراس، لا يَهابُ الموت، ولا يحسب للخوف حسابًا، ولكنْ أمامَ أمّه فهو فتاها الصغير المدلّل، حتى بعد أنْ بلغَ مَبْلغ الشباب يرتمي بين ذراعيها تضمّه ليرتوي من حنانها كما ارتوى يومًا مِن لبنها.

وقع حديثُ الأفندي من نفسه موقعَ الاسْتحسان، شعرَ وكأنّه يستكشفُ جليسَه من جديد، سُرّ بهذا الشعور، وأيقنَ أنّ عند الرّجلِ ما يستحقّ أنْ يسمعه، ظلّ الفتى يشفقُ عليه ويواسيه، مُترحّمًا مثله على مَن فقد.

وأخيرًا استراح بالُه، شعرَ أنّ ذهنه قد خلصَ من هواجسَ كانت تطاردُه في منامِه لأزمنةٍ عديدة، كان يحدّث نفسه: الآن، أستطيع أن أجالسَ هذا الشيخ.. الآن، أنا أكثرُ قربًا من ذي قبل، رفقَ الله بك أيها الأفندي، وبرّد كبدَك الحارة.

كان الفتى- من فرط محبته- يشارك الأفندي مشاعرَ الوفاء تجاه والدته، اقترح عليه ذاتَ مرّة أن يخصّص وقتًا لقراءة ختمةٍ من القرآن الكريم، يهبُ

ثوابَها لروحها الطاهرة، على أنْ يكون موعدُها الجمعة الأولى من كلّ شهر، وافق الأفندي على هذا المُقترح الجميل، قائلًا له وهو مبتسم:

– كيف غابت هذه الفكرة عني كلّ هذا الوقت! نعمَ الرأي.

داخل الفتى شعورٌ بالراحة أنْ منحت فكرته الأفندي بعضَ السّرور، وأعادت لقلبه المكلومِ بعضَ الأمل.

أدركَ الأفندي مدى نجابةِ فتاه وفراسته التي تخطّت حدودَ توقّعاته، لم يكنِ الأفندي متحمّسًا بادئ الأمر لمجالسته، كان يظنّ أنّ الفتى كبقيّة أبناء القرية العابثين، ومع مرورِ الأيّام لن يتحمّل الانتظام معه، وهو مَن سيقرّر الانقطاع بنفسه، لكنّه كان يستحي من والده الشيخ إبراهيم الذي يكنّ له مشاعرَ أخوّة صادقة، ويراعي فيه أصولَ الجيرة، فلم يشأ استعجالَ الأمر، وترَكَ الأمرَ للأيّام؛ فهي مَن يحدّد كلّ شيء.

أيقن جليسَه الصغير الآنَ، أصبح جديرًا لنيْل ثقته حقيقيًّا بأنْ يستودعه بعضَ أسراره، خاصّة نفثات صدره وخفقات قلبه التي ظلّ يكتمها عقودًا من الزمن. كان الأفندي يراوغ الفتى بين الحينَ والآخر على غير عادته، فيسأله عنْ رأيه في أمورٍ بعينها، عن قيمة الحبّ في حياة البشر مثلًا.. ولماذا خلق اللهُ الحبّ؟ وما هي شروط الزوجة وشريكة الحياة؟

تعدّدت أسئلة الأفندي على مسامع الفتى الصغير الذي أدرك– بفراستِه– أنّ الأفندي يلمّح في حديثه المغمّى لأشياء لا يستطيع أنْ يخفيها، وآنَ الأوان

أن يفاتحه فيها، لم يستعجل الفتى، ولم يبدِ اهتمامًا باديء الأمر، لكنّه فطِنَ جديةَ الأفندي فيما ينوي الحديثَ عنه..

كان الأفندي- وطوال حديثه عن الزواج والأسرة والبيت الصغير- صادقَ اللّهجة، مندفعَ المشاعر، يتكلّم وكأنّه يحدّث نفسَه، فلا يخشى مِن جليسه الوشايةَ أو التجاهل، فقد أصبح منه بموضعٍ لا يخاف معه الجوْر ولا الخيانة.

قال الأفندي لصديقه ذاتَ مرّة:

- هل تراني أصلح لأنْ أكون زوجًا؟ وهل هناك مَن ترضى بي زوجًا لها؟

قالها الأفندي دفعةً واحدة، ودونَ تحفّظ أو تردّد.. ردّ عليه الفتى:

- ولِمَ لا!؟ ما المانع من ذلك؟ فأنت تحمل قلبًا لا يعرف إلّا الحبّ، فلا شكّ أنكما ستكونان مِن أسعد الأزواج.

تهلّل وجهُ الأفندي، وانفرجت أساريره، وأقبلَ على الفتى مندفعًا يحرّكه الفضول، قال له وكأنّه يسرّ إليه بحديثٍ خلسةً عنْ أعين الناظرين:

- سوف أخصّك بحديث لم أحدّث به حتى نفسي، ولوْلا ثقتي فيك ما حدّثتك إيّاه..

بدأ الأفندي في حديثه الهامّ، والفتى مقبلٌ عليه باهتمام، وقد أعارَه كلّ جوارحه، يسمعه بعينين لا بأذنين، قال العجوز لفتاه:

– أتعرفُ أنّ قلبي لا يزال ينبض بالحبّ يا صديقي!!

ابتسمَ الصبي خجلًا، يواري ابتسامتَه خلف صفحاتِ كتابٍ أمسكَ به في يده قائلًا:

– ومَن سعيدةُ الحظّ يا تُرى تلك التي استطاعت أن تؤثّر في قلبِ الأفندي؟ لا بدّ أنّها شابة طاغيةُ الجمال في العشرين مِن ربيعها الزّاهي؟

تنهّد الأفندي قائلًا:

– وماذا أفعل بابْنة العشرين أيّها الصغير!! فالصبيّة ترغب في الصبي مثلها، أليس كذلك؟!

قال الفتى وقد استوى في جلسته:

– إذًا، فصاحبة هذا الحبّ متقدّمةٌ في السّن، رغم أنّك في ريعان الشباب يا أفندي.

شكرَ الأفندي فتاهُ على هذه المُجاملة الرقيقة، إلّا أنّ لمْعة الحبّ لا تزال تبرق بعينيه.

زاد الفضولُ عند الفتى، وضع الكتابَ مِن يده على طاولة صغيرةٍ أمامه، وقال:

– عجوزٌ في مثل سنّك؟ أيُعقل هذا يا أفندي! هلّا حكيت لي بعضَ التفاصيل حتّى أفهم..

اقترب منه الأفندي وقال:

– إيه يا عزيزي، فقصّتي تعود لعقودٍ مضت، لقد أحببتُ فتاةً صغيرة، كان أبواها مِن فقراء القرية، وأهلُها البسطاء هُم ضمنَ مَن كانوا يخدمون والدي منذ زمن طويل، تعرّفت إليها عنْ قرب، دبّ بيننا الحبّ دبيبَ الماء في العود، تقاربنا ولم نستطعِ الفراق يومًا، لعبنا سويًّا، جرينا وسط الحقول الخضراء، طاردنا الفراشات، قطفنا زهرات المشمش من حديقةٍ بيتنا، حلّقت أرواحنا في عالم البراءة، لم تغبْ عنّي ولم أغبْ عنها لحظةً واحدة، ظنّ مَن يرانا أنّنا تعاهدنا– سرًّا– شيئًا ما، وبعد أنْ كبرنا تعاهدنا على الحبّ الطّاهر النقي العفيف، أقسمنا أغلظَ الأيمان والمواثيق، كنّا نتبادل الشوق المجرّد مِن أي دنيئة، اعتدْنا الجلوس تحت أشجار الحديقة في ليالي القمر، كانت الدنيا بأسْرها تتوقّف عند مرورها أمامي، رأيت في عينيها بوارقَ أحلامي، ولمست في كفّيها مستقبلي الباسم وطريقي الممهّد لغدٍ جميل ومُبتسم، كم شعرتُ بوهجِ الشباب مِن أنفاسها، كانت الحياة وبسمتَها، والجنةَ وأنهارها، صارحتني ذاتَ مرّة أنّ أحدَ شباب القرية تقدّم لخطبتها، وأنّ والدها يراودها في هذا الأمر، فماذا تفعل؟ فهي لا تملك من أمرها شيئًا، لا تستطيع أن تفعل

شيئًا، ساعتَها.. شعرتُ وكأنّ سكّينًا نشبَ في قلبي، وأنّني أمام تحدٍّ حقيقي، إمّا أن يظلّ هذا الحب أو أموت قبله.

تركتُها ورجعت إلى البيت، صارحت أمي بقصّتنا، تحفّظت أوّل الأمر، لكنّها اقتنعت في النهاية بعد أنْ أدركت تعلقي الشديد بالفتاة، قلت لأمّي يومَها: إمّا الفتاة وإمّا حياتي..

وافقتْ والدتي شريطة موافقة والدي، وفي الصباح فاتحتْ الوالدة أبي في أمْر زواجي، ثارت ثائرتُه، وهاجَ لساعات كما البحر، لقد رأيت شخصًا لمْ أعهد رؤيته من قبل، ليس أبي الذي أعرفُه وأحبّه، أقسمَ بأغلظ الأيمان أنْ يطردَ أهل الفتاة من القرية، فمِن الآن لا حياة لهم هنا، كيف يزوّج ابنه بفتاةٍ ليست من مستواه!! كيف تطمح هي وأهلُها في نيْل هذا الشرف الذي لا يستحقّانه؟!! بدأ يصرخ بصوتٍ عالٍ يتوعّد مرّة، وأخرى يحذّرني مِن الاستمرار في هذه العَلاقة الآثمة، وإلّا فعقابه أشدّ، لعلّ هذه الساعة مِن أقسى الساعات وأمرّها، رأيتُ فيها مِن والدي ما لم أرَه في حياتي، لقد تمنّيت الموتَ على أن أفارق فتاتي.

همْتُ على وجهي في الحقول لأيّام عديدة، ذهبت لأقرباء والدي لنَيْل وساطتِهم، لكنّ جميعَ المحاولات باءت جميعُها بالفشل، لن يتراجع والدي عن رأيه.

استسلمتُ في النهاية للأمْر الواقع، قرّرت السفرَ خارج القرية لبعض الوقت هاربًا بأحزاني التي لا يشعرُ بها إلّاي، أحاول تخفيف غضبِ الوالد، والتفْكير برويّة فيما يجبُ عليّ فعلُه بعد ذلك.. غبت خارجَ القرية لمدّة شهرٍ كامل، وبعد عودتي فوجئت بزفاف الفتاة، شعرتُ وكأنّ روحي تنسلّ مِن جسدي، لقد تحطّمت أحلامي، وضاعت أمنياتي، كيف أعيش بدونها، كيف أتحمّل فراقها، ما جدوى الحياة وقد فقدتها!!

أغلقتُ عليّ غرفتي، أضربت عن الطعام لأيّام حتى شارفت على الموت، كانت أمّي تتعذّب كلّما رأتني، وتتلوّى لحالي، فحين تراني تنخرطُ في البكاء، لقد أشفقتُ عليها؛ فكنت بيْن نارين؛ بكاء أمّي وعذاب روحها، وفراق فتاتي وفقدانها إلى الأبد.. طلبتْ منّي الوالدة أنْ أنسى هذه الفتاة، وأفكّر في مستقبلي فهذه ليست نهايةَ المطاف؛ فالحياة ممتدّة أمامي، وغدًا سوف أصادفُ مَن تنسيني هذا الحبّ، وعدتني أنْ تختار لي فتاةً من أقربائنا فائقةَ الجمال تنسيني فتاتي، تعلّلتِ الوالدة بأنّ تعلقي بالفتاة سوف يزول بمجرّد رؤية مَن تختار...

وعدتُ أمي نسيانها، ولكنّي فشلت ولم أستطعْ، شغلت نفسي بالهروبِ من التفكير، وانخرطت في العمل، ابتعدتُ عن المكان برُمّته، نقلت وظيفتي أقاصي الصعيد علّني أقوى على التّناسي، لكني ازددت نارًا على ناري، فكلّما مرّت الأيام كان حبّها يكبرُ معي، حتى يومنا هذا وهي في قلبي.. كيف أنساها، وهي الدنيا وفرحتها!!؟

نظرَ الفتى إلى الأفندي بخبثٍ شديد قائلًا له:

– وهل أعرفُها أنا يا أفندي؟ مَن تكون؟

عاجلَه الأفندي ليقطع عليه تكهّنَه:

– بالطبع تعرفها، إنّها الحاجّة خديجة جارتكم.

انخرط الفتى في الضّحك، ولكنّه توقّف لبرهة، قال وهو يحدقُ في وجه الأفندي:

– ولكنّها سيدة مسنّة، لقد بلغتْ من العمر ما يقطع كلّ أملٍ بينها وبين الزواج، فكيف تقنعها؟ لكنّها على العموم امرأةٌ طيّبة، فهي صديقة والدي.

نظرَ الأفندي ناحية الحديقة، ومدّ بصره إلى شجرة التوت الكبيرة، وكأنّه يراها للمرّة الأولى، ثمّ قال:

– يا عزيزي، ستدركُ يومًا ما عندما تشيخ مثلي أنّ الجمال الحقيقي الدّائم هو جَمالُ الرّوح، هي المشاعر الصادقة والحبّ المجرّد وليس الشكل، إنّه الحبّ يا صديقي الذي يبقى ويدوم..

تحرك الأفندي ناحية غرفته وغاب لدقائق، ثمّ عاد وهو يحمل بين يديه حزمةً من الورق، قال وهو يتصفّحها:

– أتعرفُ يا صديقي أنّنا قطعنا شوطًا طويلًا في قضية الوقف، فغدًا سنتسلّم الميراث الكبير، وساعتَها سأتزوّج مِن خديجة، حبّي القديم، وبعدها فليأتِ الموتُ.. لا يهمّني.

ردّ الفتى عليه، وقد كستْ ملامحَه شفقةٌ واضحة:

– أطال اللهُ عمرَك يا أفندي.

لملمَ الأفندي أوراقَه ليضعها في المظروفِ الأصفر الكبير، وسار ناحية الغرفة.. وقفَ على الباب وقال للفتى وقد امتلأ وجهُه بالسرور:

– أتعرف أنّ أمّي وهي على فراش الموت تودّعني، همست في أذني، وقالت:

– سامحني يا بني، لقد كسرتُ بخاطرك، وفرّقت بينك وبين حبّك الوحيد، ولكنْ لي أمنية أريدك أنْ تحقّقها لي بعد مماتي، إنِ استطعت أن تتزوّج من خديجة فافعلْ، أريد أن أستريح مِن إثمي، ولا أشقى في قبري...

وها أنا أحاول أنْ أنفّذ وصيةَ أمي، فادعُ لي يا صديقي.

إنسان

سارت الصداقة– ما بين الأفندي وبين الفتى– تتّخذ شكلًا مغايرًا لما حُدّد لها سلفًا، توثّقت ما بينه وبين العجوز الصّلاتُ وكُسرت الحواجز، إنّه شيء مُطمئن، إنّها محاولة جديدة تقرّبه خطوةً لاكتشاف ما وراء الباب الخشبي الكبير، انزلقت أقدامُه كما انزلق خيالُه من قبل إلى هذا العالم المُخيف، عالم الغموض، يدفعه فضولُه ويقوده حلمٌ قديم لأنْ يتلمّس جدران هذا الكهف المعزول، أنْ يتفحّص هذه الأقبية التي تتوسّط بيوتَ القرية، ولكنّها في عهدة الأفندي، فهل يعرف ما يدور بخَلَده؟ وهل اقترب فعلًا كما توهّم، أمْ أنّ أمانيه أبعدُ عنه من نجوم السماء!؟

لم يتعدّ رأي الفتى في الأفندي باستمرار على أنّه عجوزٌ عزلَ نفسه في بيتٍ واسع يلفّه الغموض، تتضارب الحقائق حوله، شخصٌ غامض تفاوتتْ حوله الرّوايات، تخيّله صغارُ القرية كجنّي عجوز في ثياب البشر، ورآه كبارُهم خازنًا لمستودع السّحر، ومالكًا سطوةً يسخّر بإمرتِه جحافل المَرَدة الذين يطوفون ليلًا طرقاتِ القرية، تمامًا كالذين يتخطّفون المارّة ويروّعونهم.

ولكنّ هذه الوحشة، وهذا الشعور زالَ عنه، وتغيّرت قناعته– بعضَ الشيء– عندما اقتربَ من الأفندي بالقدْر الذي يمكّنُه من تكوين قناعتِه بنفسه، حاول كثيرًا أنْ يتفلّت من زمام الخرافة، ويصمَّ أذنيه عنْ سماع

أحاديث العامّة المَمجوجة، ممّن تحلّقوا حول نار المِدفأة، يتسابقون في إشاعةِ القصص والحكايات عن الجنّ والعفاريت، ربّما كان لعامل الجهل دورُه في هذه المعادلة الصعبة.

أدرك الفتى- بعقله المُتفتّح وتجربتِه العمليّة ونظرِه السليم، ومعاينتِه- أنّ العجوز لا يفرق كثيرًا عن بقيّة أهل القرية، بل يبدو في أحيانَ كثيرة أكثرَ إلمامًا بأحداثٍ تقعُ بين الناس مِن أصحابها رغمَ عزلته التي وارتْه عن أعينهم، غيرَ أنّه وهبَ مَلَكةً فريدة من الأسلوب الدّقيق الذي يغوصُ من خلاله في تحليل المواقف التي تمرّ به برويّة وإقناع، وإعْمالٍ للمنطق، يتلقّى المعلومة فيعرضها على عقله، فيفرض لها الفرضيّات، ويستنتج مِن هذه الفرضيّات ما يوافق قناعتَه أو يغايرها.

جعل الفتى همّه مُنصَبًّا على إذابة العوائق التي بينه وبين الأفندي، ومع مرور الأيام.. سيطرت عليه حالةٌ غريبة من الارتباط والتعلّق بهذا المكان، أصبح الأفندي لا يغادرُ تفكيرَه ساعة مِن ليل أو نهار، حتى بين أهله ووسط أصدقائه، كثيرًا ما كان يردّد اسمه دونَ وعي منه.. قال الأفندي، فعل الأفندي، ذهب الأفندي، كنت والأفندي..... وغيرُ ذلك من الجُمَل التي جعلت مَن حوله يدرك- دونَ إعمالِ فكرٍ- مقدارَ ما يكِنّه من الحبّ لهذا العجوز الهرم، أصبح الأفندي ملهمَه وباعثَ نهضته الأوّل الذي يسير خلفَه، ويتتبّع أفكاره؛ ومرشدَه الذي سيقودُه نحو العالم الخفي الذي لم يكنْ في الحسبان.

تابع والدُه الشيخ هذه العلاقةَ عن قُرب، فكلّ مساءٍ كان الفتى يأتيه يقصّ على مسامعه ما جرى في منزل الأفندي، سُرّ بنجابةِ ابنه، وانطلاقِ فكْره في هذا المتّسع الفسيح، وكثيرًا ما يشاركه الرأي، وجدَ الصبيّ في أحاديث الوالدِ النصيحةَ التي هيّأته التهيئةَ التي تناسب مجالسة الكبار، وبمرور الوقت استوعب الأمرَ بمفرده، ووقف على جوانبَ مِن شخصيّة الأفندي مكّنتْه من كسبِ ودّه، عندها عرف كيف يُدير الدّفّة لصالحه.

تأكّد الفتي أنّ الأفندي إنسانٌ عاديّ، لا يملك قوى سحرية، ولا تربطُه علاقةٌ مع الجنّ والمردة، ولا يشتغل بتسخير الشياطين لخدْمَته كما توهّم العامّة والسّذج، لكنّه أوتي بصيرةً نافذة كان لعزلته الاختيارية أثرٌ فيها.. التزم الرجلُ بيتَه لا يغادره، شغل نفسَه بما ينفعُه، انقطع للقراءة.. كان واسعَ الاطلاع، كثيرَ التأمّل، لا يشغل بالَه ولا يكدّ ذهنه إلّا فيما ينفعه، إلى جانب تكوينِه العائلي الذي زوّده ببعض المَلَكات الخاصة التي جعلت مِنه الأفندي، الذي يراه الناس رجلًا خارقًا للعادة.

لم يكنِ الأفندي بمعْزلٍ عن الواقع المحيط به في الخارج كما ظنّ الجميع؛ فالرجل يعرفُ تفاصيلَ الحياة التي تدور رحاها بين الناس، فكلّما خرج إلى الشارع لشراء أغراضه، تنمو إلى مسامعه بعضُ أحاديث العامّة، فيستقي منها مادّته، لكنّه لم يكترثْ بها، ولم يعطِها أكثرَ من اللّازم، ولكنّه جعل ذلك للعلم فقط..

كثيرًا ما سأل فتاهُ عنْ أحوال بعضٍ من أهل القرية، يستقصي ظروفهم المعيشية، ويستعلم حالتهم الصحية، زادت هذه الفضفضة مِن حيرة الفتى، دارت الأسئلةُ في عقله الصغير تبحث عن إجابة.. كيف استطاعَ الأفندي معرفةَ هذه التفاصيل.. وهو المنعزل عن الناس!!؟

وبين استغراب الفتى ومهارةِ الأفندي في انتزاع الإجابات يدورُ الحوار، يسلم الفتى في النهاية لحقيقةٍ تقودُه إلى أنّه أمامَ شخصٍ متعدّد المواهب، وأنّ مكانه الصحيح ليست هذه الجدران العالية ولا حجرات المنزل المنزوي، بل مكانُه اللّائق صدور المجالس..

أحبّ الفتى الأفندي، وأوْلاه اهتمامَه، لعلّ السبب في هذا ما أبداه الرجلُ من عنايةٍ مفاجئة ببعض المسائل التي تدور بين دروب القرية وأزقّتها الضّيقة..

كان للفتى ومستقبلِه نصيبٌ من اهتمام الأفندي ورعايته؛ فهو لا يكفّ عن أنْ يُلهب حماسته بعباراته، ويحفّز همّته بنصائحه، يدفعُه دفعًا إلى الجدّ في الدّرس والتحصيل..

توقّع الأفندي مُستقبلًا باهرًا ينتظرُ هذا الشابّ الصغير، الذي اكتشف فيه ما يبشّر بالخير، وأظهرَ بين يديه مَلكاتٍ خاصّة، ومهاراتٍ عجيبة، لا تتوفّر إلّا لَمن أوتي نصيبًا من الفَراسة والفَضْل.

لم يكنِ الأفندي بمعْزلٍ عن عائلة الفتى، يرفع للوالد الشيخ تقاريرَه الأسبوعية عنْ حالة الفتى، ومَدى جدّيّته، واستجابته للنّصح والإرشاد، وإقباله على التعليم.. كان الشيخ الوالد يحرصُ على لقاءِ الأفندي كلّما سنحت الفرصةُ لذلك، أدرك الأفندي أنّ والد الفتى يريدُ لابنه أنْ يحجز مكانًا يليق بأسرتِه بين الرّجال، فذهابه إلى منزل الأفندي لم يكنْ بقصدِ التّرويح ولا التسلية بقدْر ما هو لبناءِ جوانب شخصيته، ولن يتأتّى ذلك بغيْر الاحتكاك المباشر مع نموذج الأفندي الإنساني الفريد الذي ملئ بالخبرة وأثقل بالتجارب، فالرجل صاحبُ مَلَكة تؤهّله أن يستفيد مِن مجالسته.

شارك الأفندي الفتى أحلامَه، وقاسمه آمالَه، وعايش عن قربٍ آلامَه، وجد الفتى في بيت الأفندي الدفء الذي يجده بين أهله.. كانت مواسمُ النّجاح وأعراس التّفوق، لحظات السعادة للجميع، لم يكنِ الأفندي أقلّ سعادة من الفتى وأهله، بل كان يظهر من السرور ما دفعَه لأنْ يكون مِن شهودها المقرّبين لدرجةٍ جعلته يصطحبُ الفتى لحظةَ إعلان نتائج الامْتحانات طوالَ سنواته الدّراسية، شعرَ الأفندي أنّ مسئوليته الروحيّة عن الفتى تستوجبُ عليه القيام بهذا السّلوك، فهو رفيقُه وصديق العائلة الوفي الذي يجدُ في أفراحهم أفراحَه.. تعوّد أهلُ القرية وجودَ الأفندي بينهم في مثلِ هذه المناسبات السّارة، فلم يعدْ وجوده في منزل الشيخ يشاركهم النجاح أمرًا يدعو إلى الدّهشة.

يتلقّى الأفندي التّهاني من المهنّئين، فها هو يلازم والدَ الفتى لا يفارق مكانه، وتراه في مرّات يستقبلُ الضيوف، يُجلسهم ويوسّع لهم، يسامرهم أعذبَ مُسامرة، كانت الحيرةُ تأخذ القومَ عند رؤيته، فيتهامس الخبثاءُ فيما بينهم:

- هل هذا هو الأفندي الذي نعهده؟ متى خرج من كهفه؟ لماذا خرج من عزلته، أم أنّه شخصٌ آخر غير الذي عهدناه؟ إنه يضحك مثلنا، إنّه يتكلّم بلا انقطاع؟

كان الأفندي يلحظُ همزاتِهم، ويشعر بلمزاتهم، فيزيدُ من أحاديثه، وتتصاعد ضحكاتُه تجلجل في المكان بلا توقّف، وكأنّه يرسل برسائلَ خاصّة لهؤلاء.

تراءى أمام الفتى البعدُ الإنساني للأفندي في أبهى صوره، وجد الفتى نفسَه في مواجهتِه مباشرة ما بين ذكريات سلبية مشوشة عن الرّجل وبين معتقدٍ جديد أكثر إيجابية، لا يجب تغافلُه، انتصرَ فيه الأفندي الإنسان، تتنوّع أمام عينيه روافدُ إنسانيّةِ الرجل متدفّقة تغمرُ الجميع فتذْهلهم، فتسري في نفسِه نشوةُ المنتصر، لقد راهنَ الفتى مع رفاقهِ على الرجل، وها هو ذا يكسبُ الرّهان، لقد صدق إحساسه وصدقت فيه فراستُه، استطاع أن يغوصَ بنجاحٍ ليعيد رسمَ صورة العجوز بعد أنْ نفضَ عنها غبار العزلة، ويقدّم للجميع النموذجَ الإنساني الجديد الذي تضاربتْ حوله الأقاويل، وفرضت معه الفرضيّات....

تلمّس الفتى أبعادَ إنسانيّة الأفندي، ووجدَ بروحِ المجرّب عن قربٍ ما يكنّه الرجل من حبّ يسعُ العالمِ مِن حوله، فما يخفيه العجوز يفوقُ بمرّات ما ينسجه خيالُ العامّة المريض حوله من خرافات.

عوّد الرجل نفسَه العزلة والعطاء، لكنّه لم ينسلخ عن الناس بالكليّة كما يظَنّ فيه، فكان للفقراء وأصحاب الحاجة نصيبٌ من عطاءاته، يقتطعُ من قوتِه الضروري ويصلهم في سخاءٍ قلّ مثيلُه..

شارك الفتى الأفندي رحلةَ العطاء تلك، تطوّع في حملات البرّ التي يقودها من منزله ومِن بين جدرانه لإيصال مخصّصات الأفندي مُحتاجيها مِن أهل القرية أصحابِ الحاجَة والعيلة، حَملَ الفتى تلك المؤن منشرحَ الصّدر، مستريحَ الفؤاد، يكادُ لا يصدّق نفسه، يتنقّل من منزل إلى منزل، كمْ من مرّة سأل نفسَه وهو يسير في ظلمات الدّروب: أحقًّا ما يرى!؟ أم هو حلمٌ جميل؟ هل استطاع أن يكسرَ هذا الحصار الذي فرضَه الرجلُ على نفسه، أمْ أنّ الرّجل من الأساس ليس بمعزلٍ عن العالم؟

كان الفتى يعودُ إلى الأفندي حاملًا معه انطباعَ الفقراء، وابتساماتِ البسطاء يطرحُها بين يدي الرجل، فتتهلّل أساريره، ويحمد الله على هذا الجهد، عندها.. تزدادُ قناعاته بصديقِه العجوز..

اعتاد الفتى هذا الصنيعَ؛ فعمَدَ على تسجيل زياراته في دفتر خاصّ أعدّه خصّيصًا لهذا الغرض، ضمّنه قوائمَ بأسماء الأسَرِ الفقيرة والمتعفّفة من

أصحاب الاستقطاعات، أعْجِب الأفندي بهذه الفكرة الجديدة، فهذا يسهّل عملَهما..

وذاتَ مساءٍ، طلب الأفندي مِن صديقه أنْ يصحبه في أمرٍ مهمّ، تساءل صاحبُنا عن الغرضِ منها، وأين وجهتُهما؟ لكنّ الأفندي اكتفى بقوله:

- لا تستعجل الأمرَ يا صديقي، فبعد قليل سترى بعينك.

خرج الاثنان تحتَ جُنح الظلام، سارا حتى وصلا أطرافَ القرية، وأمام أحدِ البيوت القديمة طرقَ الأفندي بابها الخشبي المهترئ، وبعد طرقاتٍ عدّة جاءهما الصوتُ من داخل البيت ضعيفًا متقطّعًا:

- مَن بالباب؟

ردّ الأفندي بصوتٍ خافت مكرّر:

- أنا الأفندي، سامحينا على الإزعاج.

ليفتح الباب، وإذْ بسيّدة عجوز مُتهالكة لا تقوى على الوقوف، تتسنّد الجدران بالكاد، وقفت أمامهما، سلّم عليها الأفندي بعد أنِ استفسرَ عن أحوالها، سألها عن صحتها، ثمّ أعطاها لفافةً كبيرة، ومظروفًا صغيرًا، وانصرف.....

كان الفتى يراقب ما يجري أمامه، وبعد خطوات من البيت سأل الفتى في لهفة:

– إنّها الحاجّة رحمة، أليس كذلك؟! مسكينة هذه العجوز.

تأكّد للأفندي فضولُ الفتى الشديد، لكنّه فضولٌ محبّب، فدائمًا ما يدفع صاحبَه للسؤال، إنّه يسعى لأنْ يكون جزءًا من الحدث، لا يفوّت الفرصة– إن جاءته– ليقف على الحقيقة، وهذا ما عليه الفتى، فهو يريدُ أن يعرف ما يجري من حوله، قال الأفندي وقد وضع يدَه فوق كتف الفتى:

– أنت الشخصُ الوحيد الذي يعرفُ هذا الأمر، وأريدك أن تكتمَه عني فلا يسمع به أحدٌ من أهل القرية، لقد أثبَتّ لي عن جدارة صداقتك، ومِن الآن فصاعدًا ستتحمّل عنّي هذه المهمّة، فإلى جانبِ حمْل المؤن لُمحتاجي القرية، ستوصّل إليهم هذه الاستقطاعات الشهرية.

سرّ الفتى، ورَدّ من فوْره على الأفندي:

– نعم.. نعم، أستطيع يا أفندي.

شعرَ الفتى بالفرصة.. قد واتَتْه، وآنَ الأوان لأخذ مكانه من قلبِ الأفندي.. أسَرّ الأفندي لوالدِ الفتى الشيخ إبراهيم بهذا الخبر، فاستبشر لذلك، كان الشيخ مسرورًا مِن كلام الأفندي وشهادتِه الموثوقة في حقّ ابنه، فأخيرًا أصبح لابنه مكانُه اللائق، ووجد طريقًا تتسع له في عداد الرجال الذين يُعتمد عليهم، فحمدَ الله وشكرَ للأفندي صنيعَه.

عامل الأفندي فتاهُ كرجلٍ كبير يضارع أسنّ رجالِ القرية في الشّجاعة والإقدام، كان الفتى دائمًا ما يبدي احترامًا لهذا الفتى الصّاعد، لقد كان

منْه بموْضع القبول، خاصّة بعد أنْ صدقت نبوءاته، كانت عباراتُ الثناء والإعجاب تنهالُ على الفتى في كلّ مناسبة، لم يقتصرْ إعجاب الأفندي على مجالسِه الخاصّة، بل كان لمجالس العامّة نصيبٌ منه، استفزّ هذا الإعجاب تساؤلاتِ أهل القرية جميعًا التي بدأت تنهال، لم يتوقّع أحدٌ منهم أنْ تتطوّر هذه العلاقة بينهما لهذا الحدّ، فلم يخلُ القوم من حاسدٍ أو حاقد، وبين مُستغرب لا يصدّق.

أوقدتْ هذه المحبّةُ الغيرةَ في قلوب المتربّصين، وأجّج هذا الودّ الصادق صدورَ بعض الحاقدين الذين سَعَوا بكلّ الطّرق لإفساد العلاقة بينه وبينَ الأفندي، وسعيهم في الأخير خابَ وذهبَ حسرةً عليهم، فلا جدوى مِن وراء كيدِهم، فأضْمروا لهما العَداوات وتربّصوا بهما يتلمّسون الفرصة ليُجْهزوا عليهما..

احترمَ الأفندي فتاهُ كصديق، وقدّره كصاحبٍ له عقلٌ واعٍ متّزن، كان كغيرِه من أطفال القرية، ربّاه والده تربيةً طيبة، فشبّ في بيت كريم، وأصلٍ معروف للجميع، فكان سهلًا عليه أن يجدَ عنده ما لا يجدُه عند غيره.

تفتّحتْ أمام الفتى جميعُ الأبواب التي أغلقت في وجْه مَن سواه مِن أهل القرية طوالَ عقود مضت، تعدّى الفتى الحدودَ التي لم يكنْ يُسمحُ لأحدٍ أن يتجاوزها مهْما كان، لدرجة أنّ الدخول إلى بيت الأفندي كان حلمًا يراود سكّان القرية.

تربّع الفتى على قلبِ العجوز حتى جاء اليومُ الذي يصْطفيه لنفسه، ويجد فيه المأمنَ ليصحبه في زياراته الخاصّة.

كان الفتى على علم بأنّ للأفندي أقرباءَ في بلدٍ مجاور، وأنه يتردّد عليهم بين الحين والآخر، لكنّه لم يتخيّل يومًا من الأيام أن يكون رفيقَه في هذه الزيارات، لقد كان حلمُه لا يتعدّى الدخول إلى هذا العالم المسحور وكفى، وأنْ يغامر بتجربةٍ عارضة...

طلبَ الأفندي من صديقِه أن يصلح هندامَه، فغدًا سيرافقُه في زيارةٍ مهمّة لأحد أقاربه.

انشغلَ الفتى في اختيار ملابسه، ملئت خزانتُه بأنواع من الثياب الفاخرة، لكنّ والده الشيخ حرصَ على انتقاء ملابسه بنفسِه هذه المرّة؛ فهي ليست كسابقيها، أراد الشيخ إظهارَ ابنِه في حلّة تناسب وقارَ صاحبه وتلائمُ المضيفين، خاصّة وأنّها المرّة الأولى لمثل هذه النّوعية من الزيارات، ولا بدّ أنّ الانطباع المناسب يدوم، خصوصًا وأنّه في صحبة الأفندي، لم يجهدِ الشيخ نفسَه كثيرًا في إسداءِ نصائحه للفتى، فقد كان الصغيرُ عاقلًا، ويعرفُ أصول هذه الزّيارات.

كان قريبُ الأفندي شخصًا من وجهاء القوم، وهذا ما بدا مِن واجهة البيت الخارجية؛ فعلاماتُ الثراء تنطقُ بذلك، وهذه لَما لمسه الفتى عن قربٍ

خاصّة عند دخوله البيت ومجالسة صاحب البيت؛ فالرجل اعتلتْه أماراتُ الأبّهة، لكنّه كان بسيطًا متواضعًا، وأهمّ ما ميّزه تحلّيه بقدرٍ كبير من العلم والوقار، فحيّاهما بأجمل العبارات، وأعذب كلمات الترحيب.. اجتهدَ الافندي في إظهار مساحات الودّ التي بينه وبين فتاه، فعاملَه بلا قيود أو تحفّظات، فلم يجدْ ورعًا من أن يناديه بـ "صديقي".

استغرب صاحبُ البيت أوّل الأمر، لكنّه تجاهل هذا سريعًا، تجاذبَ الأفندي وقريبُه أطراف الحديث في مواضيعَ شتّى، لكنّ اللافت أنّ الفتى لا ينطق بكلمة إلّا حين يوجّه إليه الحديث، سُرّ الرجل به كثيرًا، وممّا زاد من إعجابِه به سعةُ اطّلاعه وثقافته الواسعة التي تدلّ على نَجابةٍ مبكّرة وحُسن تربية. سأل الأفندي في إعجاب:

– مَن هذا الفتى؟ ابنُ مَن يكون؟

ردّ الأفندي باعتزازٍ وزهْو:

– إنّه ابنُ جارنا وصديقي الشيخ إبراهيم.

هزّ الرجل رأسَه وهو يحدقُ في الفتى، وقد ابتسم ابتسامةً عريضة، وقد انتفشَ شاربُه وتدلّى على شفتيه العريضتين، وقال:

– نعمْ أعرفه، فهو مِن بيتٍ كريم، وصديقُك مثل والده صاحبُ خلقٍ قويم.

لم يُخفِ الأفندي إعجابَه بصديقه الصغير طوالَ الجلسة، وكذلك بعدَ خروجهما من منزلِ قريبه، لقد آمنَ الآن أنّ الله عوّضه بهذا الصديق الصغير؛ فحمدَ الله على ذلك.

معَ الذّكْريات

تلاقتْ أرواحُهما على المحبّة والألفة، تعلّق الفتى بالأفندي ووجدَ فيه النموذج الإنساني الذي يبحثُ عنه،لم يخطرْ ببالِه أنْ يتمّ هذا بهذه السرعة، فالأمرُ قد كان في بدايته أبسط مِن ذلك بكثير..

شعرَ الفتى بقوّة خفيّة تجذبه للمكان، وكأنّه أصبح أسيرَه وقرينَ مكوّناته؛ أسيرَ الجدران، أسير شجون الأفندي، آماله، شريكَ أحلامه وآلامِه.. قويَ الارتباطُ بينه وبين كلّ شيء مِن حوله، انتابه إحساسٌ غريب، تخيّل- لمرّات- أنّ المكان يبادله نفسَ مشاعره، هذه الممرّات وتلك الحجرات، وهذه الأسقف الخشبية العتيقة بأبوابها الممتدّة في شموخ كشموخ الذّكريات في قلب الأفندي، تهمسُ في أذنه كلّما اقترب منها، إنّها تحتضنه احتضانَ الأمّ لوليدها..

ظنّ الفتى- لمرّات عديدة- أنّ محتويات المكان قد ألِفَته تمامًا كألُفة صاحبها، حدّثته نفسُه مرّات عديدة أن يعيرها سمعَه، علّه يستبين حديثَها، ويعي ما تقول.. كان صوتُها في أوّل الأمر مجهولَ اللّكْنة، يتردّد صداه في أعماق ذاته، لم ييأسْ من التصنّت في صبرٍ إلى حديثها المُبْهم..

كان كلّما غاص بروحه وأبحرَ بذاته في عالم الأفندي؛ تفتّحت أمامه سراديبُ الذّكريات ومستودع الأسرار، تصوّر أنّ لكْنَتها قريبةٌ من لكْنَته،

بينهما شفرةٌ واحدة، فكلّ الدّلالات تشير إلى ذلك، لكنّها شفرة بكلماتٍ قد شاخت حروفها، هي ولا شكّ بقايا الماضي الجميل، حديث الذكريات المتداعي.

حاول– ذاتَ مرّة– أن يخبرَ الأفندي بهذا الأمر، أو يحدّث الرّفاق بهذا الإحساس الغريب، لكنّه تراجع في النهاية، لربّما اتّهمه الأفندي بالهَوَس والجنون، أو يظنّ الرّفاق أنّ لعنةَ البيت المسحور قد أصابتْه، أو عارضًا من عوارض الجنّ قد ضربَه فغيّر حاله، ويشيعُ الخبرُ بين العامة.

تمالكَ نفسَه بالكاد مؤثرًا السلامة، لم يكن حالُه بعيدًا عن عين الأفندي، خاصّة وقد تعوّد التزام الصمت طوال الوقت، لا ينطق إلّا قليلًا، هذا ليس مِن عادته، لاحظ الأفندي تعلّقه الشّديد بمحتويات المكان، يفتّش فيها بين الحين والآخر بنَهَم شديد، وقد تدفّق من عينيه بريقٌ غريب لم يألفه، تأكّد للأفندي مدى الارتباط الذي يربط الفتى بالمكان، أدرك الأفندي أنّ الوقت أصبحَ مناسبًا ليطلع فتاه على بعضٍ من أسرار المنزل، فقد أصبح جاهزًا لأنْ يُزاح الستار من أمامِه، والصبرُ لنْ يفيد...

استدعاه ذاتَ مرّة لإحدى الحجرات المُشرفة على المَرّ المُظلم المطلّ على الصالة الرئيسة، كانت حجرةً كبيرة، لكنّها مغلقة منذ أنْ وطئت قدمُ الفتى البيت، لم يفتحْها الأفندي أمامَه أبدًا، أمسك الأفندي بمصباح إضاءة كبير،

ناوله الفتى ليفتح بابَ الغرفة، كان الهدوءُ يلفّ المكان وقدِ اكتظّت أرضيّتها ببعضِ الصناديق الخشبية الجميلة التي لا تزالُ مُحتفظة بألوانها الزّاهية، وبجوارها حقائبُ من الخشب وخزائنُ متوسّطة الحجم من الخشب الملوّن.. نظر الأفندي فرأى الاندهاشَ باديًا على فتاه، والذهولَ قد أخذ مأخذَه منه،، بادره بسؤال مفاجئ:

– هل تعلم حقيقةَ هذه الغرفة؟

ردّ الفتى، ولكنّه كان يجول بعينيه في المكان:

– لا، ما هذا المكان يا أفندي؟!

مدّ الأفندي يدَه، ففتح أحدَ الصناديق، اقترب الفتى منه ويدُه ترتعش، إلّا أنّه تمالك نفسَه في النهاية، كان الصندوق قد امتلأ ببعض الملابس النّسائية القديمة، إنّها ملابس والدة الأفندي، أغلق الأفندي الصندوقَ يحبسُ عبراتِه التي خانته في النهاية فتساقطتْ حبّاتها كالجمر فوق غطاء أحد الصناديق، طلب الفتى منْه أنْ يأخذَ قسطًا من الراحة، وألّا يجهد نفسَه لهذا الحدّ..

ردّ الأفندي عليه قائلًا:

– الأمرُ بسيطٌ يا صديقي ولكنّه الحنين، إنّها مُتعلّقات أمي، مَن كانت الحياةَ وبهجتَها....

مسح الأفندي عينيه، وأكمل مُتحاملًا على نفسه ليفتح بقيّة الصناديق..

احتضنت الصناديقُ بقيةً من ذكريات الأفندي، كلّ ما يملك من زمنِه الجميل، كلّ ما بقي له من أيّام صباه ومرابع شبابه، الآنَ أدرك الفتى سرّ تعلّق الأفندي بكلّ قشّة في المكان، كان الرجلُ يجد سلوتَه في هذا الحُطام الذي استقرّ في بطن صناديقَ صمّاء من الخشب؛ ملابس أمّه، وآنيتها وأدوات مطبخها، حتى أحذيتها، وأدوات زينتها، قطع الحلي على قلّتِها، وعلى شماعة خشبية وقفتْ بجانب الصناديق علّق طربوشُ والده الأحمر الجميل، أمسكه الأفندي وأزاح عنه ما علَقَ به من أتربة، مرّر كُمّ جلبابه عليه يحكّه برفق، يقلّبه بين يديه، وقد أوشكت روحُه أن تُفضي من الألم، وداخل الخزانة الصغيرة رُصّت ملابسُ والده، هي كلّ ما تبقّى له حالَ وفاته، بدلات ذاتُ ألوان مختلفة، وربطات عنقٍ زاهية اللّون، وأحذيته التي استقرّت في أرضية الخزينة..

طلبَ الفتى من الأفندي الخروجَ من الغرفة شفقةً عليه ورحمةً به، فقد بدا عليه التوتّر، اصطحبه ناحيةَ الواجهة الأماميّة المطلّة على الحديقة، إنّه مكانٌ مناسب ليلتقطَ أنفاسَه وتعود له روحُه من جديد، فالجوّ اليوم صحْوٌ، والطقسُ مائل إلى الاستقرار النّسبي، إنّها تباشير الربيع، إلّا أنّ سكون الجوّ على فترات لم يمنعْ شجيرات الرّيحان التي تحفّ الممرّ المتراصة على جانبيه مِن الاهتزاز، فتبعث بأريجِها الذي استسلمَ له الأفندي، وقد أسندَ رأسَه تدريجيًّا إلى مسندٍ وضعه الفتى على الكنبةِ الملاصقة للجدار..

أحضرَ الفتى كوبًا من الماءِ البارد للأفندي يسأله باهتمام:

- هل أنتَ بخير يا أفندي؟! أراك وقد أجهدت نفسَك!

شربَ الأفندي بعضَ الماء، وهو ينظرُ إلى الفتى، وانْحدرت عينُه ناحيةَ شجرة التّوت العتيقة الملاصقة لسور المنزل، وقال:

- أتعرف كمْ يبلغ عمرُ هذه الشجرة!؟

قال الفتى باستغراب:

- لا أعلم، فأنا منذُ وعيت على الدّنيا وأنا أراها على وضعها.

قال الأفندي بعد أنْ بلعَ ريقَه باستسلام:

- لقد زرعتُ بيدي هذه الشجرة وأنا شابّ يافع، كم جلست تحتَها صغيرًا أرْويها بيدي، أعطيها من حياتي لتحيا، كانَ مبلغُ طموحي أنْ أراها وقد عانقت السماء، أتعرفُ.. لقد شهدت حبَّنا أنا وفتاتي، كمْ حلمنا معًا، كم تعاهدنا معًا، كم.. وكم.. وكم....

ردّ الفتى بسرعة:

- تقصد الحاجّة....؟!

ضحك الأفندي من بديهةِ فتاه الصغير..

شاهد الفتى الأفندي وقد اعتصرتْه أحاديثُ الذكريات، كان الأفندي- وهو الجبلُ الأشمّ الذي حيّر أهلَ القرية- طفلًا صغيرًا يتلوّى من فرط

الحنين، لكنّه عوّد نفسه الصمود، فسرعان ما يعود سريعًا كما كان، ولكنّها عاطفة الإنسان..

قال الأفندي له:

– أتدري أنّ حياتنا مرّت بمُنعطفَين خطيرين أعتقدُ أنّهما السببُ الرئيسي لما وصلتُ إليه الآن، فقد حدث لوالدي حادثٌ غيّر مجرى حياتنا جميعًا. لقد كان والدي يعملُ ناظرًا للوقْف، وكان تحت يدِه دائرة كبيرة بها مئاتُ الأفدنة، كان والدي رجلًا طيبًا لا يعرف الخبثَ أو اللّوع، كان نظيفَ اليد، أمينًا، محبًّا للخير، خدومًا لِمَن حوله، يحْسِن الظنّ بجميع مَن حوله، لكنّه لسذاجته هذه وقعَ أسيرًا لدهاءِ وخبث ومكْر بعضِ أصحاب النفوس المريضة.. كان والدي لا يعرفُ ألاعيب الخبثاء مِن حوله، لقد كان شريفًا طاهرَ اليد، لعلّ هذا ما أزعج اللّصوص الذين وجدوا في وجودِه بهذه المبادئ عقبةً كئودًا كبيرة تحول دونَ تمريرِ سرقاتهم لأموالِ الدائرة الكبيرة، كان والدي يدير هذه الأطيانَ بذكاء، أحبّ العمل واجتهد فيه، لم نكنْ نراه في اليوم إلّا ساعة أو ساعتين، فقد كان يأتي في منتصف الليل، كانت أمّي الوحيدة التي تستقبله، تقدّر تعبَه وتعذرُه وتحثّه دائمًا تحرّي الحلال.. كان لصوصُ الدائرة يريدون استمالةَ الوالد إليهم بين ترهيبٍ وترغيب، لكنّه كان عنيدًا، وفي أحدِ المرّات احتدم النّقاش والشّجار بينه وبينهم، بعد أنْ هدّدهم برفع شكواه إلى المسئولين فقد أمسك بيده مستنداتٍ تدين تلاعبَهم في الحسابات، وتؤكّد

سرقاتهم..لم يكنْ من بُدّ لهم إلّا الإطاحة به مهْما كلّفهم هذا من تضحيات؛ فالرجل عنيدٌ لا يرضخ للإغْراء، ولا يلين للتهديد. كان الوقتُ هو وقتَ الحصاد، انتظر اللّصوص حتى جُمعت أجرانُ القمح، كان المحصولُ وفيرًا هذا العام، اجتهد والدي فقد كان والدي حاصلًا على شهادةٍ عليا في الزراعة من المدارس التي افتتحها السّلطان حسين كامل عبْر مطلع هذا القرن، فكان يطبّق ما درسه على الواقع.. وبينما الوالد يأخذُ قسطًا من الرّاحة كعادته بعدَ صلاة العشاء، كان نذيرُ شؤمٍ يطرق الباب ويصيح بأعلى صوته..

- يا فندي، لقد خُرب بيتُنا، النار يا أفندي.

هبّ والدي من نومِه حافيًا بملابس نومِه، فتح الباب.. لقد كان خفيرَ الدائرة، وقد شقّ ملابسه ولطَمَ خدّه..

سأله الأفندي مُنزعجًا:

- ما الأمر يا إسماعيل!؟

قال الخفير:

- الجرن شبّتْ به النار يا أفندي.

خرجَ والدي مسرعًا ناحيةَ الحقول، كانت النارُ مشتعلةً يكاد يصلُ لهيبها قبّةَ السماء، كان الجرنُ كبيرًا، فقد جُمعت فيه حصيلةُ خمسمائة فدان من القمح جُملةً واحدة.. طارَ عقل والدي، أخذَ يجري بين الحقول، يتخطّى المجاري

والمصارفَ حتى وصل إلى الحريق، كان الناسُ قد التفّوا حول المكان في ذهولٍ وخوف، حاولوا- دونَ جدوى- إيقاف ألسنةِ النّار المُتصاعدة، ولكنْ ذهبت جهودُهم أدراجَ الرياح؛ فقد كان الحريقُ هائلًا لا تقدرُ عليه جرّارات المياه.. حاول الوالدُ أن يستنجدَ بالجهات المَعنيّة، ولكنْ ذهبت جهودُه أدراجَ الرياح؛ لقد كان الوقت متأخّرًا. أخيرًا، استسلم الوالدُ للأمر الواقع، دارتِ الدنيا به فسقطَ مغشيًّا عليه، لقد انْهارت الدنيا مِن حوله، كانت النار تلتهمُ أحلامَه ومستقبلَه قبل أن تلتهم أعوادَ القمح. حملَ الأهالي والدي، وعادوا به إلى المنزل، انتظرتْ والدتي أمامَ منزلنا، وقد أعْياها الانتظار وهي تدعو الله أن يسلّم، وما إنْ رأتْه محمولًا على الأعناق حتى صرخت بأعلى صوتها، هرولَ الجيران يحملونَ الوالد، دخلوا به إلى المنزل، جُنّ جنونُ الوالدة، كادت تفقدُ عقلها مِن هول الصّدمة.. حاول الجيرانُ إسعاف الوالد، ولكنْ بعد عناء طويلٍ عاد إلى وعْيه ثانية، ثمّ دخل في حالةٍ من الصّمت الطويل، تفحّص جميعَ مَن حوله، وبصوتٍ عال وهو يمسك بتلابيب الخفر وعمّال الدائرة راحَ يردّد:

- النار... القمح.. الخفر..

أوشكتِ الوالدةُ على الانهيار، لم يكنْ أحدٌ بجانبها ساعة حدوثِ الفاجعة، كان أخي الأكبر يدرس بالمرحلةِ الثانوية وهو مقيمٌ في المدينة،لم يصلْه الخبرُ

حتى الآن.. عاد الجيرانُ إلى منازلهم، ظلّ الوالد جالسًا لساعاتٍ على الكنبة في هدوءٍ تام، واستسلامٍ لم نعهدْه من قبل، أمسكت الوالدة برأسه، وهزّتها، قالت له وهي تصرخُ والدموع تتقاطر من عينيها:

– تماسكْ، كنْ جلدًا صلبًا، هل ستستسلمُ مِن أوّل جولة؟!

كان الوالد ينظرُ إليها وقد تحجّرت عيناه، وارتعدت فرائصه، وشفتاه تردّد كلماتٍ غير مفهومة، وأخيرًا انخرطَ في نوبةٍ من البكاء الطويل، حقيقةً.. لم أعهدْ والدي من قبل بهذه الصّورةِ المؤسفة، فقد كان صلبَ المراس لا يرضخُ بسهولة، جلمودًا صلبًا، قويًّا، صاحب سطوة لا تزعزعها أعتى الرّياح، لكنّه ظهرَ هذه الليلة في حالةٍ يُرثى لها، أوجع قلبي الصغير الذي لم يكنْ يميّز ساعتها ما يجري حوله سوى بكاءِ أمي الحبيبة وانتحابِها، وانهيار والدي. جاءته والدتي بكوبٍ من الماء، مرّرت يدَها المُبلّلة بالماء على وجهه، ونثرتْ بعضًا منها على شفتِه، توسّلت إليه أكثرَ من مرّة أن يشربَ قليلًا منها، لكنّه كان في ذهوله، دخلتُ إلى غرفتي وأغلقتُ بابها، وانخرطتُ في البكاء وكأنّي لم أبْكِ مِن قبْل. لم ينَمِ البيتُ حتى أشرقتْ شمس اليوم التالي، كانت ليلةً من أقسى ليالي العمر، خيّم الأسى على البيت يبتلعُه، لم أكنْ أظنّ أنّ الحزن سيتزحزحُ هذه المرّة عنّا. تجهّز أبي مرتديًا ملابسَه، وخرج مع أوّل ضوء في النّهار، كانت وجهتُه موقعَ الحريق، اصطحبَ معه بعضَ الخفر الذين كانوا جلوسًا منذ الليل أمام المنزل، ينتظرون خروجَه...

أدركَ والدي مِن المُعاينة المبدئيّة التي أجراها أنّ الحريق دُبّر بليل، فكلّ الشواهد تدلّ على أنّه بفعْل فاعل، لكنّ خيطًا رفيعًا يصلُ ما بين الأحداث قد فُقِدَ فضاع الدّليل، وبعد لحظاتٍ جاءت قوّة من وحدة البوليس التابعة المركز لبدْء المعاينة وإجراءِ التحقيق في الحادث، كان كلّ شيء رتّبَ سلفًا، حتى شهادات الشّهود التي لا تخلو مِن الكذب والافتراءِ على الوالد، والتي اتّفقت جميعُها على اتّهام الوالد بالتسيّب والإهمال والتقصير المتعمّد، وعدم أخذِ الحيْطة والتّهاون في أداء وظيفته؛ قد جُهّزت ضمنَ ما جُهّز.. حاول والدي أنْ يتمالك نفسَه، لكنْ دون فائدة، خانته أعصابُه وهاج مِن تطاول بعض الحضور الذي أسهبَ في شهادةِ الزّور، أراد الوالدُ أن يفتكَ به، لكن حِيلَ بينه وبين ذلك مِن قِبَل رجال البوليس، أغلق المحضرُ وتمّ استدعاء والدي للتحقيق في القاهرة ثانية..

سافر والدي وهو يعلم بالنّتيجة مُسبقًا، فكلّ الدلائل تشيرُ إلى تورّطه؛ فالشهود والقرائنُ أثبتت ذلك، لقد فعل اللّصوص فعلتهم الدّنيئة ولا سبيلَ إلى البراءة. عادَ الوالد مِن سفره بعد أن قرّرت اللّجنة المختصّة إصدارَ قرارِ فصْله من وظيفته بشكلٍ نهائي، وأسندتْ إليه تهمُ التسيّب والإهمال الذي نجمَ عنهما الحريق، حمدَ الوالدُ الله تعالى على قضائه وقدره، لكنّه لم يستطعِ الخروج من المنزل لأسابيعَ طويلة، كان يتوارى مِن الناس، شعر وكأنّ أعينَهم مسلّطة عليه، أشبه ما يكون لمخالبَ تهنشُ لحمَه، همساتهم، نظراتهم.. كلّ

شيء مِن حوله يعاديه، استمرّ في أحضان العزلة طويلًا، سلّم نفسه طوعًا لها، لم تستطعِ الوالدة ثَنْيه عنْ هذا القرار.

لقد تحدّد للبيت مصيرٌ آخر، ارتبكت أحوالُ كلّ مَن فيه، بعد أنْ ساءت الأحوال المعيشية بعضَ الشيء، قرّرت أنا وأخي الأكبر الانقطاعَ عن الدراسة، كنت في السّنة النهائية من التعليم الابتدائي، وكان أخي الأكبر في السنة النهائية من التعليم الثانوي، ورغمَ تفوّقنا لم ترحمْنا المحنةُ فلم يكنْ لدينا حلولٌ أخرى، كان أبي يمتلكُ ثروةً لا بأس بها، مساحة من الأرض ورثها عن والده، قام بـتأجيرها، ولكنّ ثمنَ إيجارها في تلك الفترة لا يفي بمتطلباتِ المنزل فقد تعوّد مَن فيه حياةَ الرّفاهية ورغدَ العيش...

لم يكنْ أمامنا بدّ سوى البحثِ عن وظيفة، وظّف أخي ككاتبٍ في المحكمة، وأنا عُيّنت بوظيفة كاتب حسابات بمصنع السّكر، ومِن وقتها قرّرت السّفر والرحيل مِن هذا الجوّ الخانق، كنت أتواصل معهم بالرّسائل للاطمئنان على أحوالهم، وخاصّة الوالد المسكين، استمرّ الوضع على ما هو عليه حتى جاءتني الأخبارُ بمرض الوالدة المفاجئ؛ فقرّرت عندها العودة، كانت حالتُها تسوء يومًا بعد يوم على الرّغم من تكرّر مراجعة الطبيب بانتظام، لازمتُها طيلة أسبوعين، لكنّ الأطباء قرّروا أنّ الأمل في الشفاء أصبح ضعيفًا، لقد قتلَها القهر، وفتَكَ بها المرض، أخفَتْ مرضَها عني وعنِ الجميع حتى لا تزيد همومنا همًّا آخر..

وأخيرًا، قهرَها مرضُها اللّعين الذي فعل فعلتَه بهذا الكائن الرّقيق الذي لا يعرف إلّا الحبّ والخيرَ والسلام للدنيا بأسرها، فأسلمتْ روحَها إلى خالقها عزّ وجَل. كانت أمّي كلّ شيء بحياتي، لم تكنْ أمًّا عادية، بل كانت الأمّ والأختَ والحبيبة، عاش والدي حياتَه بنصف إنسانٍ، لقد كانت أمّي رفيقةَ دربه وسميرةَ وحدتِه وشريانَ حياته، وسندَه بعد الله تعالى في هذه الدّنيا، حاول الوالدُ لملمَةَ أحزانه، لم يستطعِ الصّمود أمام أمواجِ الحزن والفقد التي تلاطمت على قلبه الذي يَنْزف، فما كان أمامَه إلّا أنْ عاد إلى عزلته مرّة أخرى، نادرًا ما كان يخرجُ من المنزل إلّا لقضاء بعض الحاجات الضروريّة.

وبمرور الأيّام، مرض والدي، لقد افترسه الهمّ هو الآخر، تداعت صحّتُه وتدهورت حالته، فتكالبَ عليه المرض وتقدّمُه في السّن، فلم يستطعِ المسكين- وهو الكسير- الفكاكَ مِن قدَره، وفارقَ الحياة ليتركني وحيدًا أندُبُ فراقَهما الموجع، يا لحسرةَ قلبي المقهور!! لم يتبقّ لي منهما شيء إلّا ما رأيتَ مِن حطام داخلَ هذه الصناديق القديمة، وبعد موته بسنواتٍ وصلتني من ساعي البريد أحدُ المراسلات، اكتشفْتُ- بعد فضّها- أنّها تحمل اعتذارًا من الأوقاف، وتبرئةً لوالدي ممّا نسب إليه من تُهم، فقد تبيّن لجهاتِ التحقيق سلامةَ طرفه، وأنّ الأمر لا يتعدّى كونه دسيسةً ومكيدة من لصوص، والغريب في الموضوع أنّ الخطاب أرفقَ به ردّ الاعتبار كتابيًّا، وقيمة الرّاتب عن سنوات الانقطاع عن العمل، إضافةً إلى معاش تقاعدي مجزٍ..

ساعتَها طويتُ الخطاب، ووضعته داخل درج مكتبي، ونظرتُ إلى صورةِ والدي المعلّقة في وسط الصالة، ودعوتُ بأعلى صوتي قائلًا:

– رحمكَ الله يا أبي، عشتَ شريفًا، ويأبى اللهُ إلّا أن يبرّئك من تهمتِك الباطلة ليظلّ اسمُك نظيفًا في حياتك وبعد مماتك.

فراقٌ محتوم

لم يخطرْ ببال الفتى أنْ يأتي اليومُ الذي يفارق فيه الأفندي، لقد عوّد نفسه طوالَ حياته ألّا يفارق هذا العالَم الذي وجدَ فيه نفسَه أخيرًا، فطوال طفولته لم يكنْ يُغريه ما يغري الفتيان في مثل عمره..

شغف حبًّا بالمنزل وصاحبه، ووجد فيه ما يُلهيه عن الدنيا بأسرها، لم يفكر يومًا في الانقطاع عن وصْل الأفندي، أو أنّ شيئًا ما يمكنُه الحيلولة دونَ رؤيته أو إقامته في منزله..

كان يحنّ دائمًا لعهده القديم، ويجدُ في نفسه مِن مسّه الذي تنشطُ له روحُه مِن وهدتها، لم تغبْ عنه أدقّ التفاصيل، دائمًا ما يمرّ أمامه شريطُ الذّكريات سريعًا، فهو يردّد في شجنٍ ساعةَ أنْ وطئت قدمُه أرضيّة الحديقة الأمامية لمنزل الأفندي، عندها أدركَ- وللوهْلة الأولى- أنّ شيئًا ما يجذبه إليه، وأنّ عوالمَ مِن أطيافٍ جميلة تتبسّم له وترحّب به، وتعدُه... فعَنْ قريب ستتكشّف له فهي تعرف ما بداخله، ولا سبيلَ أمامه ليناورَها، امتزجتْ رغبتُه باقتحام غياهب هذا العالم المسحور مع أمنيةِ والده القديمة وطموحِه في أنْ يجد ابنَه النابغ مِن رجال القرية المعدودين؛ لذا فقد وهبَه منذُ نعومة أظفاره للعلم والدرس والمطالعة، وجعل من التردّد على منزل الأفندي وملازمة مكتبتِه العتيقة وسيلةً ينفذُ من خلالها لما رسم له، ومِن هذه البوابة ينطلق- ولا شكّ- إلى مضارب الرجال.

أخلصَ الفتى لهذه الأمْنية، وسعى لها سعيَها، وأعدّ العدّة مبكرًا يتلمّس من نصائح الشيخ الوالدِ ما يجد فيه حماستَه، ويضاعف من اندفاعه نحو الهدف المنشود، فهو يرى تشجيعَ والدِه له وإقبال الأفندي عليه، ما يُسهم له بحظّ وافرٍ في تكوينه العقلي ونموّه الوجداني، لم يتكاسلْ عن تحصيل شيء أو الإقبال عليه بنهمٍ قد يجد معه الفائدة.

ظلّ يحتضن حلمَه القديم بين ضلوعه، يتنقّل به بين ساعات اللّيل والنهار، بيْن الأهل والأصدقاء والجيران في المدرسة وبين الصفوف، كان أسيرَ فكرته القديمة يؤمنُ بها ويسعى في سبيلها، يرخصُ مِن أجلها كلّ غالٍ وثمين، لا يتوانى لحظةً واحدة عن الاقتراب منها..

كبرَ الفتى، وكبرتْ معه أمنياتُه وأحلامه، تعدّدت مشاغله، لكنّها لم تأخذْه قيدَ أنْملة عن حلمِه الذي ظلّ يغازله منذ سنين.

وها هي السنون تتعاقب سِراعًا، وقطارُ العمر يمضي بلا توقّف، وأصبح صاحبُنا شابًّا فتيًّا يافعًا، ولكنّ أماني الصغر تلازمُه فيجد أنّ أمنياته تتوقّف معها تمامًا كعهد الصبا وزمنِ الطلب، هنا في بيتِ الأفندي وجد ذاتَه، وبين جدرانه تحرّكت حواسُّه، ونبَضَ قلبُه بنور العلم وبصيص المعرفة، هنا تجرّع أولى كئوس الحبّ الصادق المجرّد من الخداع، وجدَ بين الجدران مِن رجلٍ عجوز ما لم يجدْه عند غيره من أهل القرية، هنا تعلّم كيف تكون الحياة هادئة، كيف يصنع المرء ذاتَه، كيف ينسلخُ من أدران نفسِه، كيف يحيا الإنسان عالَمه لنفسه وللعالم في صمت، كيف يحبّ الحياة فتهبُه من عوالمها، كيف

يخلص لفكرته فيجد بركتَها تسري في ذاته وفي الوجود مِن حوله، كيف.. وكيف....

لم تشغلْه دراستُه الجامعية عنِ التفكير في عالم الأفندي الذي غذّى ذاتَه وحفر كيانَه، حتى في قاعاتِ الدّرس مع زملاء الطّلب، كان الأفندي بطلَ حديثه، مثلَه الأعلى، فارسَ الفكر؛ حملَ أفكارَه، تكلّم بكلامه، اقتبسَ من حكمته، ينتهزُ كلّ مناسبة، ينبري عند كلّ حادثة، ويقول في تباهٍ:

– قال الأفندي كذا، وفي هذا الموقف كان يفعلُ كذا...

لم يشعرْ بالحرج يومًا من ترديدِ مأثورات الأفندي على مسامع القوم، حقيقة كانوا أوّلَ عهدهم بصداقته يستغربون إصرارَ الفتى إقحامَ الرجل في كلّ حادثة وحديث.. ولم تخلُ أحاديثهم من بعض التندّر أحيانًا، وأحيانًا أخرى من السّخرية، كان بعضُ الخبثاء يردّد وسط الحديث:

– مَن هذا الأفندي الذي صدّعت رؤوسنا به؟ لا بدّ أنّه شخصٌ مِن عصور السلاطين القُدامى، أو ربّما هو مِن نسْج الخيال.

لم يحملِ الفتى كلامَهم على محْملِ الجد؛ لذا لم يكترثْ به، ولم تغضبْه سخافتهم، بل زادتْ مِن إصراره وقوّتْ عزيمته، أصبح الأفندي بالنسبة له فكرةً خالدة تستحقّ مَن يُخلص لها، فهذا أقلّ ما يمكن فعلُه مع معلّمه الأوّل.. وبمرور الوقت، اعتاد الرّفاق سماعَ أحاديث الأفندي؛ حكاياته الغريبة، جُمله المتكرّرة مع كلّ حادثة، نصائحه وتوجيهاته، كثيرًا ما طلبوا مِن

رفيقهم أن يعيدَ على مسامعهم قصصًا بعينها، وفي أحيان كثيرة اقْتبسوا مِن أمثاله الشهيرة ما ضمّنوا به أحاديثَهم..

عادتْ به الذكرياتُ إلى يوم أن علمَ أنّه مقبولٌ للدراسة في إحدى الجامعات الموجودة في مدينةٍ بعيدة، كانت الصّدمة شديدةً عليه، كيف سيُحرم مِن رؤية الأفندي كلَّ هذا الوقت! مرّت الأيام عليه ثقيلة، يعدّ الساعات، ويطوي الليالي، جعل همّه في أحاديثِ صاحبه العجوز، علّها تسلّيه عن صاحبها..

كان كلّما حان موعدُ العودة، حرص أن يكونَ منزل الأفندي مهبطَه الأوّل، ومناخ رحلته الطويلة، يلقاه بعدَ غياب، فيرتمي بين أحضانه.. ويبدو أنّ صديقه العجوز هو الآخر يكابدُ أشواقه؛ فيبادله مشاعرَ لا تقلّ عنه ضراوة، اعتاد العجوز تهيئةَ نفسِه منذ الصباح لمقْدِم صديقه العائد مِن إجازته، فاليوم هو اليومُ المحدّد لوصوله، ولا بدّ أنْ يستعدّ له قدرَ الإمكان، تتابع نظراته جهةَ مؤشّر الساعة الكبيرة المعلّقة بصالة المنزل، يعدّ الساعات ويُحصي الدقائق..

جالتْ أذنه مع كلّ طارقٍ يطرق خارجَ البيت، وتسمّع موضعَ أقدام المارّة في الشارع، وعينُه لا تبعد لحظةً عن الباب الخشبي الكبير، خيّل إليه أكثر من مرّة أنّ زائره المنتظَر هو الطارق..

وأخيرًا لم يجدِ العجوزُ بدًّا سوى أن يقطع على فكْره السبيلَ فجعل يتمشّى بين ممرّات الحديقة، لم يكن الأفندي يكذّب إحساسه أبدًا، فعندما تزدادُ دقّات قلبه يدرك أنّ فتاهُ أوشك على الوصول، لا بدّ أنّه سيطرق بابَه الخشبي

بعد دقائق، لم يكنِ الأفندي يكذب هذه المشاعر، بل شاركتْه هي الأخرى ما يجد، لم يخطرْ بباله أنّ شيئًا من هذا القبيل يمكن أن يحدثَ له، كانت عزلتُه عن الناس تكفيه مئونة الارتباط بأحدٍ أو التعلّق به لهذا الحدّ المخيف، لكنه القدرُ الذي ساقَ هذا الفتى في طريقه.

سُرّ الأفندي مِن تصرّف صديقه الشاب الذي لم يتنكّر للجميل كما هو مع كلّ إجازة يعود أوّل ما يعود إلى عشّه الذي احتضنه صغيرًا حتى كبر، وأصبح في عداد الرجال الذين يُشار إليهم بالعلم والنبوغ بينَ أبناء القرية، ومطمع كثيرٍ من أسَرها..

أعدّ الأفندي فنجانَ الشاي السّاخن المخصوص بضيفِه الزّائر، ولم ينسَ أنْ يضع بعضَ وريْقات النّعناع الأخضر الذي تعوّده رفيقُه القادم، ولعلّها فرصةٌ مناسبة لاقتناص بعضِ الوقت ليقصّ صديقُه عليه مِن حكايات الطلب والدّرس، وما حدث له بين أسوارِ الجامعة وبين الزملاء..

أدرك الفتى- بفطنتِه المعهودة- وقعَ حديثِه على مسامع الأفندي، فعمَدَ إلى تنويعها ينمّقها ويزخْرف فيها؛ تسليةً للعجوز المتلهّف، فالرجل- كعهدِه السابق- لا يملّ من سماع أقاصيص الفتى، فهو بين ضاحكٍ، ومتأثرٍ، وغاضب، ومتسائل...

كانت حكاياتُ الجامعة تستهوي الأفندي، فها هو يعودُ من جديد يستمعُ لحكايات الناس، وأصبح له مع قصص صديقه صلةٌ بالعالم من حوْله، وعادت له أيّامه الأولى بعودته، بعد أنْ غاب عنه فتاهُ الأثير.

كان الرجلُ قد انقطعَ عن الخروج إلّا لحاجة، وتمنّع الناس عنه، فمَن يسأل عنه!؟

ولكنّ الرّاوي هذه المرّة هو الفتى بطلُ الجلسة الاستثنائية، منحَه الأفندي هذا اللّقب عن طيبِ خاطر، وبعد الاستراحة وتناولِ الشاي، طلبَ الفتى الإذنَ بالانصراف؛ فقد تأخّر الوقت كثيرًا، فالأهلُ في انتظاره، على أن يعودَ ثانية عندما يحلّ المساء، ويستريح من عناءِ سفره الطويل.

كان والدُه الشيخ يعرف ما ينوي ابنُه فعلَه، قادَه إحساسُه الصادق إلى هذه النتيجة، يعرف جيدًا مقدار تعلّقه بالأفندي حتى بعد أن أصبحَ شابًّا جامعيًّا، تظلّ نفسه تهفو إلى محتضنه الأوّل، تمامًا كفرخ صغيرٍ لا ينسى عشّه.

داوم النظرَ إلى ساعتِه بين اللّحظة والأخرى، استرعى هذا الفعلُ انتباهَ والده الشيخ الذي نظرَ هو الآخر إلى والدته، وكلٌّ منهما قد أخفى ابتسامته وسطَ ضحكات وهمسات وصيحاتِ الصّغار الذين تحلّقوا حوْل أخيهم، كان الصغار في شوقٍ إليه، فهذا يجلسُ على فخذه، وذاك يعبثُ في حقيبتِه، وهذه تطوي ملابسَه، وتلك تعدُه بوجبةٍ لذيذة من طعامه المفضّل...

تعوّد أخوه الصغير أمين أنْ يجلس بالقرب منه، وما إنِ استقرّ المجلس حتى أحضَرَ كتابَه الصغير، وأوراقه طالبًا منْه أن يراجع معه بعضَ الأحرف التي حفظَها في كتّاب القرية مع سيدنا الشيخ حسن، كان الصغيرُ يتقدّم بسرعة في التّحصيل، أعجبَ الفتى به، احتضنَه وقبّله بين عينيه واعدًا إيّاه بهدية قيّمة المرّة القادمة..

ولكنّ هذه المرّة الجائرةُ ستقتصرُ على قطع الحلوى اللّذيذة ذاتِ الألوان الجميلة، وبعضِ حبّات الكرمِلّة المحبّبة عند الصغار.

وبعد تناول طعام العشاء، طلب الوالدُ من ابنِه أن يلحقه في غرفتِه الخاصّة، طالبًا من الزّوجة أن تحضرَ لهما أكوابًا من الشاي، وتلحقْ بهما إلى الداخل.. كان الشيخ مشغولَ البال، قلقًا على أحوالِ ابنه فهو يعرف اجتهاده في الدرس واستقامةَ خلقِه، فلم يخامره شكٌّ في ذلك، لكنه كان في لهفةٍ ليعرف أحوالَ ابنه وحياتَه الجامعية يقصّ عليه قصاصات منها، طال حديثُهما أمورًا كثيرة، كان الشيخ يستمعُ لابنه وقد برقتْ عيناه من الفرح، وقلبُه يدعو الله أن يحفظه من كلّ مكْروه، جابَ الشاب في حديثه أمورًا تتعلّق بالمسكن والأصدقاء والجيران، وغيرها..

كانت الإجابات مُقنعةً للشيخ الوالد، على الرغم مِن تكرارها في كلّ زيارة، لم ينسَ سؤاله عن أمورٍ بعينها كعادته في كلّ أجازة كأداءِ الصّلوات، والمواظبة على أوْراده اليومية، إلى جانب التبْكير إلى النّوم، وفي اليقظة، ففيهما سلامةُ البدن والتفكير.

وعلى الرّغم من ذلك، لم يغفلِ الفتى سؤالَ والده عن الأفندي، والتقصّي عن أحواله، راجيًا منه المواظبة على زيارته، والسؤال عنه.

طمأنَ الشيخ ابنَه بأنّ الرجل وديعته، وإنْ لم يصرّح بذلك. وبعد فترة، استأذن الفتى والدَه في الخروج؛ فالأفندي في انتظارِه الآن حسبَ الموعد المحدّد بينهما.

سار الفتى صوبَ منزل الأفندي وهو يردّد في نفسه: أيّها المسكين العاثر، كم أنتَ مسكين أيّها العجوز، لماذا تفعل بك الأيام هكذا؟!! لماذا تقسو عليك كلّ هذه القسوة!؟ والآن تكمل تسلّطها عليك فها هي تحولُ بيني وبينك، ولا تمنحك إلّا زياراتٍ لا تبلّ الرّيق!!

وفي مجلس الأفندي تعلو الضّحكات، وتتعالى النّكات، ويصفو الودّ وتمتزج النفوس بالصفاء، فلا كدر ولا خداع ولا مكر..

في مجلس الأفندي، تجد الذكرياتُ سبيلَها، تنشط لتداعب المشاعرَ، وتمسّها بروحٍ منها، تتعانق القلوب الوفيّة التي لم يشغلْها تباعدُ المسافات، وتعاقب الأيامِ واللّيالي عن الوصْل، والحنين إلى مهْدها القديم، فتعود مسرعة علّها تجدُ في رحابه حياتَها. وحين انقضاء السّمر يحين الرّحيل، فتتعاهد القلوبُ على لقاء قريب..

كان الفراقُ يعتصر فؤادَ الأفندي عصرًا، شعرَ العجوز أنّ أجلَه يقترب، ولكنّ ما يؤرقه أنْ يلبي داعي الموت وحيدًا، محرومًا مِن رؤية صديقِه الشابّ، فلو كان بجانبه لتغيّرت المعادلة، فتبرد نارُه ويهدأ قلبُه المضطرب، فما أهونَ الموت بين الأحبّة، ولكنّ رسائله كانت تتوالى عليه مُحمّلة بعبير الشّوق تستمدّ من ذكراهما ما يعوّضه، ولو لقليل هذا الوهَج، فهي السلوى الوحيدة للعجوز.

مرّت السنون سريعة، فقد تخرّج الشابّ من الجامعة، وعيّن موظفًا بإحدى الهيئات الحكومية، فأصبح في مكانٍ مرموق يليقُ بذكائه وتوْقِه، كان لنبوغه

ومعارف والده دورٌ في هذا الاختيار، إلّا أنّ والده أخفى عنه هذه الحقيقة ولم يكشفها أمامه، لم يعلمِ الفتى بوساطة والدِه إلّا مؤخّرًا، لكنه قبِلَ مُجبرًا هذه الوظيفة، فهي رغبةُ الوالد الشيخ.

حظي الشابّ برضا رؤسائه في العمل، كانت التقارير المَرْفوعة عنه لصالحِه في أغلب الأوقات، وهذا ما مكّنه من الترشّح لنيل فرصةِ الإعارة خارج البلاد في وظيفة بعائدٍ ماديّ كبير.

فكّر الفتى طويلًا ما بين المستقبل الذي ينتظره في بلده، وبين الإعارة التي توفّر له الضمان المالي الذي يمكّنه مِن بناءِ حياته القادمة. وفي النهاية، انتصرت فكرةُ الإعارة.. أراد الفتى أن يخوض هذه المرّة مغامرةً جديدة، ولِمَ لا!؟ وهو المغامر الذي لم يعرفِ الخوف والتردّد طريقًا إلى قلبه المتوثّب، فهل نسي جسارته في اقتحام بيت الأفندي، والإقامة فيه ليلَ نهار متحديًا كلّ المخاوف والصعاب، وما تنسجه العامّة من أقاويل تهوّل من البيت وتصوّره كوكْرِ الجنّ والمَرَدة الذين يتجولون فيه بلا رادع، يخالطهم شيخٌ عجوز به مَسٌّ من سحر!!!

شغل حالُ الأفندي الفتى طويلًا، كيف سيخبره بأمر السفر!؟ لا بدّ أنه سيفرح، لكنّ أمر الغربة والبعاد لا شكّ سيؤرقه ويضاعفُ من تباريح قلبه المكسور، يا للمسكين البائس!

تشجّع الفتى، وألقى على مسامعه النبأ بعد طول تردّد، فرح الأفندي كثيرًا

بهذه البشارة السعيدة، لكنّه حاول إخفاء أحزانه التي اعتصرته بها رسمته من خيوطِ القهر على وجهِه الأصفر النحيف.

كان الحوارُ بينهما مِن أصعب ما يكون، حاول الفتى في النهاية إخفاءَ حزنه هو الآخر وسْط ابتسامة مُصْطنعة، لكنّها في النهاية غلبت تصنّعه.

أمسك الفتى يدَ الأفندي وقال له وهو يقاوم عبرةً متحجّرة يكابدها بلا فائدة، فقد انسكبت دفعةً واحدة من عينه:

– إنني مَمْنونٌ لك يا أفندي، فقد تعلّمت منك الكثير، إنّك شريكُ تفوّقي ونجاحي، لن أوفّيك حقّك ما حييت، أعدك ألّا أنساك أبدًا، أرجوك لا تنسني..

حاول الأفندي أن يخفي دموعَ عينيه، لكنّه لم يستطع مقاومتَها، انفجر العجوز بالبكاء، وكأنّه لم يبكِ طوال حياته، احتضنَ الشاب وهو يقول بعدَ أنْ جفّف مدامعه:

– يا بني، مثلك لا يُنسَى أبدًا، لقد كنت لي نعمَ الصّديق، وخيرَ الجليس، ولكنّي أوصيك بوصيةٍ غالية قبل أن تسافر، فربّما لا أراك ثانية، اتقّ الله حيثما كنت، اجعلْ ما بينك وبين ربك عامرًا تنقادُ لك الدنيا وأهلها، وفي الأخير اجعلْ لي نصيبًا من دعائك في صلواتك، اذكرني دائمًا، ولا تنسني.

طيّب الشابّ خاطرَ صديقه العجوز، أراد أن يخرجه من حالتِه هذه مقترحًا أنْ يحضّر لهما الشاي بالنعناع؛ فهو المناسب لهذه الأجواء.. ضحك الأفندي مِن ذكاء صديقه الشابّ، ونهض ليعدّ أكواب الشاي على عَجَل.

انقضتِ الأيّام سريعًا، وجاء موعدُ السّفر، كان الفتى مشغولًا بتجهيز أوراقِه الرّسمية، إلى جانب إعداد بعض احتياجاته الضرورية اللّازمة للسفر..

كان الشابّ يعود متأخّرًا في أغلب الأيام، مُنهكَ القوى، حرصَ الشيخ الوالد أن يمنحَ ابنَه بعضَ نصائحه وتوجّهاته هو الآخر، والتي لم تخلُ من التحريض على طاعة الله وأداءِ الصّلوات، وتحرّي الحلال والبعدِ عن الحرام في كلّ شيء...

شعرَ الفتى بأمرٍ غريب، وكأنّ والده الشيخ والأفندي يودّعانه وداعهما الأخير، داخله الخوف، ولكنّه تماسك حتى لا يقلق مَن حوله، ويفسد عليهم أوقاتهم.

ظلّ الأفندي قريبًا من صاحبِه لا يفارقه حتى حانَ موعد السّفر، أشفقَ الجميع على العجوز الذي ظهر عليه الوهنُ لفراق صاحبه، فقد افْترست الرجلَ أحزانُه، وتكالبت عليه همومُه دفعةً واحدة، وها هو يودّع صديقه الشابّ، آخر مَن بقيَ له في هذه الحياة الكئيبة، وربّما يكون وداعه الأخير..

أحسّ الشابّ بالحالة المُزرية التي وصل إليها العجوز، كان صامتًا طوالَ جلسته، يحدقُ في الوجوه وكأنّه يلقي عليهم نظرةَ المودّع. حاول الشيخ الوالد أن يهوّن عليه أحزانه، كان يسامرُه وينتقل به مِن حكايةٍ إلى أخرى، يقطع عليه حبلَ أفكاره ويوقف هواجسَه، ولكنْ بلا فائدة؛ فالرجل مأخوذٌ بشيء أكبر..

سلّم الشابّ على مودّعيه، فقد جاءت السيارة التي ستقلّه إلى المطار، انتفض الأفندي، وعلا نحيبُه فجأةً حتى سمعه كلّ مَن في المكان..

احتضن الشابّ العجوزَ بحرارةٍ وقبّل رأسَه، وطلب منه الدّعاء.. نظر الأفندي إليه وعيناه قد اغرورقتا بالدموع وهو يقول:

– لا تنسَ ما قلتُه لك بالأمس.

هزّ الشابّ رأسَه، قبّل يدَ والده الشيخ، دخل سريعًا إلى البيت؛ فقد كانت والدتُه تنتظره عند عتبة الدار، قبّل يدَها، انهمرت دموعُها وسط كلمات الدّعاء بالحفظ والسلامة وسعة الرّزق.

التفّ الأصدقاء حولَه بين مودّع وضاحك، وهو يسلّم عليهم طالبًا منهم الدّعاء بالسلامة..

وقف الشابّ على بُعد خطواتٍ من الدّرب الضيق، نظر إلى أعلى أسطح البيوت القديمة، تلفّت إلى بيت جدّته المهدّم، جالَ ببصره إلى الأبنية القديمة المتهالكة، تذكّر أيّامه التي انْقضت، مرّت بين ناظريه سريعًا حياتُه كشريطٍ سينمائي قصير، تمنّى ساعتها لو تعود به الحياة إلى الوراء فيظلّ طفلًا لا يعرف مِن دنياه إلّا اللعب، تتناقل أقدامُه وتتجوّل روحه بين هذه الجدران المسْقوفة بالقشّ الذي أتتْ عليها الرّطوبة؛ فهي عنده أغلى مِن قصور قيصر ومدائن كسرى!!

كان الفتى يخفي دموعَه، يحجزها ما استطاع أنْ تنحدرَ منه، لكنّها غلبته في النهاية، قال بصوتٍ محشْرج وهو يمسح عينيه بمنديله:

– أستودعكم اللهَ جميعًا، لا تنسونا من الدعاء.

بدأت السيارة في التحرّك، جلس الفتى مأخوذًا يختلس بعضَ النّظرات مِن نوافذها، وعلى مقربةٍ من مدخل القرية طلبَ الشابّ من سائقه التوقّف لدقائق، ترجّل من سيارته خطواتٍ قليلة ليلقي نظرةً طويلة على أطلال أحبّ المَوَاطن إلى نفسه، سمع مَن حوله حديثَه:

– ما أجملَ شجرَكِ ونخْلك، ما أرق هواءَكِ، وأعذب ماءك وأطيب أهلك!! هل ترانا سنلتقي مرّة أخرى؟

سارت السيارة تطوي الطريق طيًّا لتغيب في الفضاء الممتدّ بين الحقول الواسعة والجسرِ الترابي الطويل، وها هو العصفور يغادر عشّه لأوّل مرّة.

انخرط الشابُّ في عمله الجديد، حاول جاهدًا النسيان، ولكنْ بلا فائدة، لم تأخذِ الغربة من حنينه شيئًا، بل زادت من لهيب شوقه، كان يعود كلّ يوم من عمله منهكًا ليجد نفسَه فريسة لأفكاره، حاول التغلّب على هذا التفكير، جعل همّه توسيعَ دائرة معارفه، اصطفى بعضًا من أصدقاء العمل الذين توسّم فيهم الصدق.. وبمرور الوقت، استطاع التغلّب على هذه الهواجس. كانت رسائلُ الوالد تنهالُ عليه محمّلة بالشوق والحبّ والحنين، تحكي له أحوالَ أمّه وأخواته الصغار، وتشاكسَهم، وبعضَ طرفهم...

كانت هذه الرّسائل تزيد من بهجته، وتجلبُ إلى نفسه السعادة، و...،...

كان يقرأ الرّسالة أكثرَ من مرّة في اليوم الواحد، كانت ضحكاتُه لا تنقطع رغم تكرار القراءة مرّات عديدة، يتذكّر أخوتَه الصغار وتندّرهم. ولكنّ

الغريب في الأمر أنّ الرسائل على كثرتِها خلتْ من ذكرِ الأفندي، فلم يذكره الوالدُ إلّا نادرًا..

سأل الشابُّ نفسَه: تُرى.. لماذا لم يبسط الوالدُ كلامَه عن الأفندي!؟ هل أصاب الرجلَ مكروهٌ، أم ماذا؟!!

أمسك القلم وبدأ يكتب لوالده، وبعد السؤال عن عائلته، طلبَ منه أنْ يطلب من الأفندي كتابة خطابٍ مفصّلٍ بأحواله، فهو في غاية الشوق إليه، وبعد أنْ أغلق المظروف، تناولَه بيده ومزّقه.

قال بصوتٍ مرتفع: ماذا يضرّني لو كتبت للأفندي خطابًا مباشرًا أخصّه به؟!

شرع في الكتابة، أحسّ أنّ الكلام يهرب منه، ماذا يكتب، وأخيرًا استجمع ما تبقّى له من قوّة وأمسك بالقلم، كانت عباراتُه موجَزة، وفي نهاية الخطاب طلبَ من الأفندي أن يراسله؛ فهو قلِقٌ عليه.

وصل خطاب الأفندي، ولكنّه وصل متأخّرًا عن ميعاده بكثير، لقد كان الرجلُ ينازع الموت على فراش المرض، طلب العجوزُ من الشيخ الوالد أنْ يقرأ له الرّسالة، فهو لا يقوى على القراءة.

بدا الأفندي متأثرًا من الرسالة، لقد أثارت شجونَه، وأعادت إليه أحزانه، طلب الشيخ أن يكتبَ هو الرسالة بنفسه، أملاه أسطرَها، كانت الرسالة في مضمونها حديثَ ودٍّ صريح، وتطمين بسلامته، فلا داعي للقلق..

زاد مرض الأفندي واعتلّت صحّته بدرجةٍ كبيرة، جعلت الشيخَ الوالد يلازمُه طوالَ الوقت، كان يقضي اليومَ بأكمله بجانبه.. يناوله دواءه، ويعدّ له طعامه، لكنّ حالة الأفندي تدهْورت، أضربَ العجوز عن الطعام وتمنّع عن الدواء...

حزن الجميع لما أصابه، كان الأفندي يغيب عن الوعي لفترةٍ قصيرة، ثمّ يعود لوعْيه ثانية، فكان كلّ مرّة يسأل عن الشابّ، يناديه باسمه....

بكى الشيخ- بحُرقة- على حالةِ العجوز اليائس، فلا أهلَ ولا ولدَ ولا سند، طلب الشيخُ من أحدِ الجيران ليُخبر أقاربَ الأفندي بالقرية المجاورة. ولكنْ للأسف فقد تأخّر الوقت، فارق الأفندي الحياة، ولكنْ قبل أن يلفظ أنفاسَه الأخيرة نطقَ باسْم صديقه الشابّ لآخر مرّة له في الحياة، ثمّ نطق بعدها الشهادة، وسلّم الروح إلى بارئها.

تردّد الشيخ الوالدُ في مكاتبةِ ابنه يخبره بنبأ وفاة الأفندي، تحيّر الشيخ.. ماذا يكتب!؟ تماسك في النهاية وأرْغم نفسه كتابةَ الرسالة، والتي جاءت مملوءةً بالحسرة والأسى.

وصلت الرّسالة الشابَّ، نزلت عليه كالصّاعقة، أمعن النظرَ في الرسالة لمرّات عديدة، لم يصدّق نفسه في البداية، تساقطت دموعُه، أغرقت صفحاتِ الرسالة، بكى الصديقَ والخلَّ الوفي، بكى الأهلَ والوطن....

قال بصوتٍ صارخ: هل فارقَ الأفندي الحياةَ حقًّا!!؟ لا.. لا بدّ أنّه كابوس وأصحو منه.

بكى.. وبكى.. وبكى حتى جفّت دموعُه. ماذا يفعل الآن!! انزوى على أحزانه، انقطع عن العمل بضعةَ أيّام، لم يخرجْ من مسكنه، لم يذقْ جفنُه النومَ ليل نهار..

مرّت الأيام والشهور مُتثاقلة حزينة، وحان موعدُ عودته لإجازة سنوية، لكنْ ماذا يفعل في إجازته، كان موتُ الأفندي يعتصره، فقْدُه بهذه السرعة دونَ أن يراه يؤلمُه لدرجةٍ كبيرة.

عاد الشابُّ من سفره، استقلّ سيّارة أجرة من المطار تقلّه إلى قريته. وعلى مشارف القرية طلبَ مجدّدًا من السائق أنْ يتوقّف لدقائق.. تصبّب وجهُه عرقًا، ارتفعت دقّات قلبه، شعرَ وكأنّه يختنق.. نزل مِن السيارة، رمى بصرَه في الفضاء الواسع الممتدّ حولَ القرية، شاهدَ الحقول الخضراء، وأطلالَ النخيل، وأشجارَ الجمّيز العتيقة، وداعبَ بقطعٍ صغيرة من الحصى بعضَ أوزات قادمةٍ من جهة بيوت القرية تسبحُ على صفحة مياه الترعة الكبيرة المارّة من أمامها..

كان الوقت لا يزال مبكّرًا، فبعد دقائق ليست بالقليلة ستبدأ الشمسُ في مدّ خيوطها الساحرة تنساب من الشمال، تعلن للعالَم شروقَها في صباح يوم جديدٍ يحملُ للدنيا الأمل، ولكنّه يحمل لقلبِه وحدَه دونَ البشرية الحسرةَ والألم، فها هو يعودُ لأحزانه..

وصل الشابّ مداخل القرية، كانت القريةُ لم تستيقظْ من سباتها بعد ليلٍ طويل، عانق فيه الظلامُ سماءها، وها هو ينجلي ليعود إلى مكامِنه ينتظر

أن يعود مِن جديد. وقفت السّيارة أمام المنزل، خرج والدُه الشيخ وإخوتُه الصغار مهرولين في سرورٍ بالغ، استقبلوه بالأحضان، جرتْ والدته نحوَه تغمره بحبّها، تغالب دموعَ الفرح التي سالت على وجنتِها لتأخذَ صغيرَها بين ذراعيها، وتنهال على خدّيه بسيْلٍ من القُبَل..

قبّل الشاب رأسَ والده ويدَ أمّه، واحتضن إخوتَه الصغار.. لكنّ شيئًا غريبًا كان يُخفيه، لاحظ الوالدُ انشغالَ ابنه، لم يستطعْ إخفاء مشاعرِه التي نازعته غصبًا عنه، فتتابعت نظراتُه ناحية بيت الأفندي، لكنّها ارتدّت إليه هذه المرّة خائبة، فصاحبُ البيت ذهب.. ولا أملَ في رجوعه ثانية، وضع الوالد ذراعَه على كتفه ليدخل الجميع داخلَ المنزل، حاول الفتى أن يعيش أجواءَ الفرح والابتهاج التي صاحبت عودته، أفرغ محتوياتِ الحقائب، وبدأ توزيع الهدايا على الجميع، انشغل كلٌّ واحد بهديّته لكنّه أسند رأسَه إلى الحائط وأسلمَ نفسَه للنّعاس، غفتْ عيناه لحظات، هزّ رأسَه، حاول أن يرسمَ على وجهه المكفَهرّ ابتسامةً مزعومة ربّما يستطيع معها مداراةَ أحزانه..

تعالتْ ضحكات جميع مَن في الدار، مدّ يده يلاعب أخاه الصّغير ويلاطفه. كان والدُه الوحيدَ الذي يشعر بأحزانه وإنْ لم يبدها، لكنّها سنّة الحياة، وقدرُ الله في الخلق؛ فالموت حقّ ولا مفرّ منه يا صغيري، ولن تقفَ الدنيا عند لحظةٍ بعينها، فالحياةُ أمامك، وسوف تصاحبُ فيها وتفارق، وتحبّ وتكره.. فسبحانَ مَن له الدوام.

وفي الصباح، وضع ملابسَه وخرج قبْل أن يصحو مَن في الدار ليقف أمامَ بوّابة منزل الأفندي الخشبيّة، ثمّ يرفع يدَه بالدّعاء يردّده.. لم يشعرْ إلّا بيدٍ حانيةٍ تأتيه مِن خلفه تربتُ على كتفه برفقٍ، استدار ليجدَ والده مَن يقف خلفه..

عاود الفتى النظرَ مرّة أخرى إلى البوّابة الخشبية الكبيرة.. ليعود مع والده ناحيةَ المنزل، دخل الاثنان سريعًا إلى المنزل ليغلق الباب.

ويبدأ يومٌ جديد، ولكنْ بدون الأفندي.

الفهرس